ثروت أباظة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثروت أباظة

قصة على النيل

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة



(١)

فى استعلاء وكبر ، يقف قصر أحمد باشا شكرى ، يشرف على النيل الذى يجرى من تحته فى تطامن وهدوء ، فإن رأيته حسبت أن النيل لم يجر إلا ليجعل هذا القصر على هذه الروعة وعلى ذلك البهاء . فهو فارع إلى السماء ، عريض ضخم ، كل ما فيه يوحى إليك أن هنا مجدا قديما لا يزال جديدا ، وأن هنا عزا عزيزا ، وخيرا وفيرا ، وكرما عتيدا ، ورفدا وهناء .

يفصـل القصر عن النيل حديقـة منسقة ، ويصـل القصر بالنيل سلم من الحجر يفضى إلى النيل ذاته ، إذا شـاء سـكان القصر أن يستعملوا قاربهم البخارى الراسى هنـاك ، خلصـوا إليـه بسلمهم هـذا .

كان القصر إذن يفضى إلى النيـل بهـذا السلم ، أما باب القصر ذاته ، فقـد كان من الناحيـة المقابلة للنيل ضـخما رائعا ، مفتوحا على مصراعيه طول اليوم ، لا يلتقى مصراعاه إلا فى الهزيع الأخير من الليل .

كان الوقت أصـيلا ، حين بلغ البوابة شـاب فى مقتبل العمر ، قـد يروعك منه أول ما تراه ، قوام ملىء وطول فارع ، ولكنك إن أنعمت النظر فى وجهـه وملابسه لم يرعك فى وجهـه شىء من القسـامة ، ولا راعك فى ملبسه شىء من الانسجام .

ـ سلام عليكم يا عم ادريس •

وقام البواب واقفا فى أدب :

ـ وعليك السلام يا بك ورحمة الله •

ـ الباشا نزل ؟

ـ والله يا بك لا أدرى ، ولكن لا أظن •

ـ طيب انتظره حتى ينزل •

ـ تفضل يا سعادة البك •

ويدخل سليمان بك شكرى سراى عمه أحمد باشا ، كما تعـود أن يدخل ، فالدار مكان مباح لأقارب الباشـا ، يجلسون فى أبهائهـا ، ويطلبون ما يشاءون من قهوة أو غيرها ، سواء كان الباشا موجـودا أم غير موجود • فالباشا أب لهم جميعا وهم فى داره أصحاب دار • ولم تكن هذه الأبوة من الباشا مقصورة على أقاربه الأدنين أو غـير الأدنين ، وإنما كانت تتسع فتشمل كل شاب يعرف الباشا ، ويتصل به فى معترك السياسة ، فالباشا من روادها •

جلس سليمان فى حجرة المكتب ينتظر نزول عمه الباشـا ، ولم يطل به الانفراد ، اذ سرعان ما دخل عليه ابن عمه وصفى ، وهو شاب حاصل على اجازة الحقوق جميل الصورة ، حسن السمت ، له شهرة واسعة فى الأدب السياسى ، وقد استطاع أن ينجح فى الانتخابات ، فتحددت مكانته السياسية ، وأصبح من النواب الظاهرين فى مجلس النواب •

ـ أهلا وصفى •

ـ أهلا سليمان •• ألم ينزل عمى ؟

ـ لا والله لم ينزل بعد •• أراك باسما •• هـل وراء ابتسامتك خبر جديد ؟

ـ لا ، ولكنى لاحظت أنك تأتى هنـا فى كل يوم منـذ عدت من أوربا •

ـ وأى عجيبة فى ذلك •• ألا تأتى أنت كل يوم ؟

ـ نعم ، ولكن عشرة أيام متتالية لا تنقطع يوما •• ألا ترى أنها غريبة بعض الشىء ؟

ـ يا أخى عشرة أو عشرين • ما شأنك أنت ؟

ـ لا شأن لى ولكنى ألاحظ وأبتسم •• ألا تعطينى حق الابتسام ؟

ـ الله •• أتظننى سـعد باشا وتريد أن تتعب قلبى أنا أيضا •• لا يا حبيبى ،أنا لا أحب المناقشة ، ولا أحب السياسة ، ولا أحب هذا الكلام المزوق الذى يخفى وراءه معـانى أخرى •• أنا رجل مهندس ، أضع قالب الطوب على الآخر فيتم البيت •

ـ واضح •• واضح •• فلو لم تكن مهندسـا لمـا حشرت سعد باشا والسياسة وقالب الطوب فى ضحكة •• مجرد ضحكة !

ـ وبعد •• أما فرغت ؟

ـ يا أخى ، أنا لم أفتح الحديث ، وإنما أنت الذى فتحته •

ـ فهل تسمح لى أن أقفله ؟

ـ على كيفك ، ولكن أريد أن أفتح معك موضوعا آخر •

ـ افتح ، ولكن ترفق بى وحياة والدك •

ـ لم أجلس معك وحدنا منذ عدت من أوربا ، ماذا فعلت هناك ••؟

ـ حصلت على دبلوم الهندسة •

ـ هذا أعرفه جيدا •• أقصد فى حياتك الخاصة •

ـ أكاد أفهم •• وإن كنت غير متأكد من موضـوع سـؤالك •• أتقصد •• ؟

ـ الحـريم •

ـ الحـريم ؟

ـ نعم •

ـ ليس هناك شىء اسمه الحريم •• ولكن ما الذى جعلك تدخـل من موضوع مجيئى هنا إلى موضوع الحريم ؟

ـ أتريد أن أقول السبب . وأذكر الصلة بين الموضوعين . أم تفضل أن تتكلم أنت فى السؤال من غير شرح منى لهذه الأسباب والصلات •

ـ لا . أفضل أن أتكلم فى الموضـوع . فأنا أعلم أنك طويل اللسان •

ـ عظيم •• قل . ما حال الحريم هناك ؟

ـ ليس هناك حريم . بل إن هناك نساء •

ـ لا أجد فرقا بين الاسمين ••

ـ بل الفرق بعيد •• الحريم عندك وعند الرجعيين أمثالك نساء محجبات . يضعن على وجوههن الستار الأسود . وإن كان قد أصبح شفافا . وهن عندك لابد أن يلبسن المعاطف ، ويضعن على رءوسهن القلانس . بل لعلك تريدهن محجبات باليشمك والحبرة ، أما النساء فى أوربا فأداة نافعـة •

ـ ومن قال لك إن النساء فى مصر أداة غير نافعة ؟

ـ تقصد نافعات فى الطبخ وإخراج **الأولاد وتربيتهم** •

ـ وهل هذا قليل ، وما الأطفال ؟ أليسوا هم رجال الغد ؟؟

ـــ لا ، إن المرأة فى أوربا أقوى من ذلك وأنفع ، فصاحبات المواهب يزاحمن الرجال فى أعمالهم ، وهن مع السياسيين أمثالك يخرجن فى الانتخابات مع أزواجهن •

ـــ إننا هنا نحترم المرأة أكثر مما يحترمها الغربيون ، نحن نراها جوهرة يجب أن تظل بعيدة عن أيدى الطامعين ، وعن أنظارهم أيضا •

ـــ فتحبسها ؟!

ـــ ألم تكن لك صديقة فى أوروبا ؟

ـــ بل كان لى •

ـــ أترضى لابنتك ، أو نزوجتك أن تكون صديقة لرجل ؟

ـــ ماذا تعنى بالصداقة ؟

ـــ أعنى الصداقة التى كانت بينك وبين فتاتك فى أوربا •

ـــ يا أخى أعوذ بالله •• أعوذ بالله •

ـــ ارايت •• أترضى أن تخطب واحدة تعرف أنهـا كانت تلتقى بآخر •• لقاء بريئا ؟

ـــ طبعا ، لا •

ـــ فما هذا الدفاع الحار ؟

ـــ عن الحرية •

ـــ حرية المرأة هى الطريق إلى هذا الذى تأنف أنت منه ، لن ترى المرأة إذ ذاك فى الرجل ذلك الشىء المقدس الذى لا يمكن أن تلتقى به إلا إذا كان زوجا لها ، والرجل أيضا سيفقد لذته بالمرأة فى زوجته ، ما دام يلتقى بالنساء فى الطريق وفى العمل • سيجد كل منهما أنه من الطبيعى أن يلتقيـا ، وإذا التقيا ••

ـــ وما البأس إذا التقيا وتعارفا ثم تزوجا ؟

ـ الخشية أن يتزوجا قبل الزواج •

ـ فإذا كانا عاقلين واقتصر الأمر بينهما على اللقاء البرىء ؟

ـ ما رأيك أنت ، إذ التقيت بفتاة وبادلتها حبا •• حبا شريفا •• أتتزوجها بعد ذلك ؟•

ـ لا •• لا •• لا أظن •

ـ أرأيت ، إننا نحب أن نثق بزوجاتنا •• نحبهن لنا بجميعهن ، بذكرياتهن وأحلامهن وآمالهن ، ولا نحب هذه الذكريات أن تبدأ إلا بعد الزواج ، فكل ما قبل الزواج لا نعترف به نحن الشرقيين ، حتى وإن كنا نحن الطرف الآخر فيه •

ـ ولكن يا أخى ••

وقطع عم دهب خادم الباشا الخاص النقاش ، وهو يفتح البـــاب قائلا فى جد حازم :

ـ سعادة الباشا •

ووقف الشابان ينتظران قدومه ، وما هى إلا لحظات قلائل ، حتى أقبل الباشا مبتسما كعادته ، كان الباشا رجلا فى الحلقة السابعة من عمره ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، سمح الوجه ، ترى فى وجهه طيبة ، فإذا أنعمت النظر فى عينيه من وراء نظارته ، رأيت فيهما عمقا وذكاء ولمـــاحية ، مارس الباشا السياسة ومارسته ، وشهد أحداثها وشارك فيها ، ولكنه أبى أن ينضم إلى حزب من الأحزاب ، بل كان دائما يقف من هذه الأحزاب موقف الناقد الحر ، يؤيد هـــذا حينا ، ويهاجمه حينا ، دون أن يبعثه إلى التأييد أو المهاجمة باعث شخصى ، إلا ما يرى فيه صالحا للبلد • وقد اكتسب بهذا لنفسه احترام جميع

السياسيين ، كما اكتسب بهذا ذاته لنفسه كره جميع السياسيين ومن تبعهم ، فلم يكن له بين الشعب مؤيدون ، وهكذا كان دائما ، بعيــدا عن الحكم ، إلا إذا جاءت وزارة محايدة ، أو وزارة مؤقتــة ، فهــو إذن عضو من أقوى أعضائها شخصية ، ومن أوسعهم نفوذا •

دخل الباشا الغرفة ، وحيا ولدى أخـــويه وجلس دون أن يلحظ أنظار وصفى التى كانت مشدودة إلى النــافذة المطلة على الحديقة ، ولم يلحظ وصفى أن عمه قد جلس وأنه قد آن له أن يجلس هو الآخر، وإنما ظل شاخصا إلى تلك المرأة التى دلفت إلى الحديقة تحمل فوق رأسها بقجة مصرورة ، تهدلت جنباتها فوق رأســها ، إنها أم وديدة تحمل الأقمشة التى تعرضها على حريم الدار ، وتحمل أيضا موافقته على موعد الليلة •• وأفاق وصــفى من سرحته على صــوت عمــه ينبهه ••

ــ خير يا سى وصــفى ، أراك سارحا ، أتراك تفــكر فى خطبتك الجديدة ؟

وارتج وصفى لكلمة الخطبة ، وصحا إلى عمه يســأله فى جزع وحــيرة :

ــ أى خطبة •• أى خطبة يا عمى ؟

ــ يا أخى ، أنا قلت خطبة ، أقصد خطبتك فى مجلس النــواب ، ألا تنوى مهاجمة أحد غدا ؟

ــ والله يا عمى ، سعد باشا أصبح رجلا عسيرا على المهاجمة ، فهو منذ تولى رياسة مجلس النواب ، وهو يعمل على ضم الكلمة •• لو كان سار على هذا النحو منذ أول عمله بالسياسة لأراحنا •

وقال الباشا باسما :

ـ الواقع أن العيب الأساسى فى سـعد أنه استغل الدكتاتورية الشعبية ، وهى دكتاتورية تعطى لصاحبها سلطات واسعة ، وتجعله يعمل وكأنما هو وحده صاحب البلد .

ـ ولكنه فى هذه الأيام الأخيرة أصبح يستعمل الدكتاتورية الشعبية استعمالا معقولا .

ـ ما أحب إلينا أن يظل سـائرا على هذا النحو ، مالك سـاكتا يا سليمان ؟

ـ يا عمى أنا لا أفهم فى السياسة .

ـ آه صحيح .. نسيت هذا ، ونحن أيضا لا نفهم فى الهندسة .. فما رأيك .. ابحث لنا عن موضوع نتكلم فيه .

فقال وصفى وقد هفت نفسه إلى مداعبة ابن عمه :

ـ كنا نتكلم قبل قدوم سعادتك عن المرأة فى الغرب ، والحـريم فى الشرق . ويظهر أن أخانا سليمان يخالفنا نحن الشرقيين فى أفكارنا عن المرأة .. قل رأيك لعمى .

وتقلص وجه سليمان واحتقن وتلجلج لسانه ، وأصبح لا يدرى ما يفعل ، وضحك وصفى ضحكة مستورة . فهو يعلم أن سليمان لن يستطيع أن يقول رأيه أمام عمه المعـروف بالمحافظة ، وأحس العم أن وصفى قد ألقى بابن عمه فى مأزق دقيق فغير مجرى الحديث .

ـ هيه يا سى سليمان ، ماذا عملت فى المصلحة ؟

وقبل أن يجيب سليمان أدرك وصفى أن فى عينى ابن عمه حديثـا آخر يريد أن يفضى به إلى عمه فى خلوة فخرج من الغرفة فى هـدوء دون استئذان ، وأقفل الباب من خلفه ، وشكر سليمان لابن عمـه هذا الادراك الدقيق ، وراح يجمع صوته ليسأل عمه فى حشرجة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـــ ماذا عملت لى يا عمى ؟

وكان الباشا يدرك تماما ما يقصد إليه السؤال ، ولكنه لم يشأ أن يجيب فى وضوح ، خشية أن يكون ما أدركه غير ما يقصد إليه ابن أخيه ، فهو يسأل :

ـــ ماذا فعلت لك فيم ..؟

ـــ ألم تقل لى أنك ستسأل سهير ثانية إن كانت تقبلنى ؟

ـــ سألتها .

ـــ وبماذا أجابت ..؟

ـــ . . .

ـــ لا شك أن فى رضا سعادتك كل الكفاية .

ـــ يا أخى ، أنت تعرف أننى رجل محافظ ، وابنتى لا ترد لى أمرا . ولكن الزواج شأنها وحدها ، ولا أستطيع أن أرغمها .. أنا سأتركها بعد حين ، فبماذا تراها ستذكرنى إن أنا زوجتها بمن لا تريد ؟

ـــ يا عمى نحن فى مصر لا نسأل بناتنا عمن يتزوجن .

ـــ ولكنى أنا أسأل .

ـــ . . .

وأحس الباشا أنه أغلظ على ابن أخيه ، وأدركته عليه الشفقة ، ولم يشأ أن يجمع عليه الرد الخشن ورد خطبته فى آن ، فهو يقول له فى تلطف :

ـــ أمثلك ، وأنت المتعلم فى أوربا ، يقول هذا الكلام ، وماذا أعمل، إنى ألححت عليها ولكن بلا فائدة ، ولم أشأ أن أرغمها ارغاما حتى

لا تقوم الحياة بينكما على أمر جاف صدر منى ، على كل حال أترك لك فرصة أخرى .

— أمرك يا عمى .

— طيب يا سيدى .

وأدرك سليمان أنه لم يعد ما يدعو لبقائه ، فقام وقد اكفهر وجهه ، واستأذن عمه وخرج .

لم يكن سليمان جميلا ، ولكن ما أصابه فى زيارته تلك زاده قبحا ، فلو قدر له أن ينظر فى مرآة حينذاك ، لما تمالك نفسه عن أن يقول :

— نعم ، إنها محقة أن ترفضنى ، ولو كنت أنا امرأة .. ولو كنت حتى امرأة فقيرة ، ولست ابنة باشا ، لو كنت ، ونظرت إلى هذه الخلقة لرفضت الزواج بصاحبها .

كان خليقا أن يقول هذا لو إنه نظر إلى مرآة ، ولو أنه أصاب بصيصا من ضمير ولكنه — والحمد لله — لم ينظر إلى مرآة ، ولم يصب شيئا من ضمير ، فهو ينقلب إلى بيته ، لا يفكر إلا فى هذه الثروة التى يوشك أن يفوتها عليه ذكاء بنت عمه ، وقبح خلقته .

(٢)

خرج وصفى من الحجرة وأغلق الباب من خلفه ، ولكنه لم يقصد إلى الباب الخارجى للمنزل ، بل هو يقصد إلى الحديقة الخلفية يتمشى فى أنحائها رويدا ، وكأنما لا يهدف لغير الاستمتاع بضوء القمر الذى ينسكب على الحديقة ، حتى إذا بلغ السلم المؤدى إلى النيل ، نزل عليه فى سرعة ، وفى لمحة أخفاه الجدار الأبيض القائم هناك عن الحديقة والمنزل جميعا •

هنا المرعد •• موعده مع سهير •• ترى ماذا تخفى لهما الأيام • إنها سهير بجمالها الرائع ، بذلك القوام الفارع ، وهذه الضحكة العذبة التى لا تغرب عن ثغرها •• ثغرها ذلك الحلو الذى يلقى الكلام رقيقا جريئا ، عميق المعنى حلو الرنين ، سهير بذلك الوجه الذى يميل إلى الطول فى امتلاء ، وبهذين الخدين الناعمين ، يشع فيهما زهو وثقة ، وبهاتين العينين ، وفيهما بريق أخاذ يكاد فى ضوء القمر ينسكب مع ضوء القمر •• إنها سهير بروحها تلك الحلوة وبحبها العنيف له •• ماذا تخفى لهما الأيام •• إنه لن ينسى •• لن ينسى يوم جاءته أم وديدة تهمس فى أذنه أن انتظر اليوم عند مرفأ القارب ، وكاد العقل يردده ، ولكن الشباب دفعه •• وهناك التقيا فى أول يوم •• ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع عنه أم وديدة بالموعد المهموس حينا ، أو بالموعد المكتوب حينا آخر ، وبين هذه المواعيد استقبل وصفى أساكيب من السعادة لم يفكر يوما إنه سيلتقى بها • ولكن إلى أين ؟

إنه يحبها •• يحبها •• يحب فيهــا شبابه البكر ، ويحب فيهــا أمسياتها الناعمة فى ضوء القمر ، أو فى ضــوء المصــباح المعلق على القارب ، يحب فيهــا استيقاظة القلب الأولى ، وصـــحوة النبضات الناغمة •• يحبها ولكن إلى أين •• أزواجا ••؟

نعم هو يعلم أن عمه لن يتردد فى قبوله ، وهو يعلم أنه جــدير بها ، وهى جديرة به • ولكن الزواج ؟ ! فـذا ما شغلتنى الحياة ، وإذا انصرفت عن الحب حينا إلى ذلك المعترك الضخم الذى ألقيت بنفسى فيه •• ماذا تعمل سهير •• ولكنه يحبها •• بل هــو لم يعرف للحب معنى إلا هنا؛ •• هنا •• هنا بجانب هذا القارب وعلى ضفاف هذا النيل ، وفى ظل هذا القصر ، وفى ضوء هاتين العينين •• عينى سهير • يحبها : وهى تحبه ولكن الزواج ثقــة •• أجننت ؟ ألا تثق بابنــة عمك ؟؟ لا •• أثق •• أجننت ؟ لم أجن ألم تســع هى إلى هــذا الموعد ؟ ولكن هذا لم يكن إلا من أجلك أنت •• أنت وحدك ، من أجل شبابك الريان ، ومن أجل جمالك هذا ، من أجل عينيك الرائعتين ، وشفتيك الرقيقتين يعلوهما ذلك الشارب الذى تعنى بتجميله ، ومن اجل شعرك الأسود تحت طربوشك المــائل ، يا لك من غر !! أتذكر جمال سنك ألست رجلا ، نعم •• إنى رجل •• رجل عظيم كاتب ، أديب سياسى يخشى كبار الساسة قلمه ولسانه ، وأنا رجل وطنى •• أحببت وطنى وهاجمت أعداءه ، وأثرت القلق فى نفوسهم فقبضوا على مرات فما زادنى هذا عند وطنى ومواطنى إلا إعزازا وحبــا ، وأنا أيضا عضو بمجلس النواب •• وأصــغر النواب سنا ، وأنا أيضا غنى • وأبى باشا مثل أبيها •• نعم فما كانت لتسعى إلا إلى •• إلى أنا بكل هــذه الأمجاد التى تجتمع فى • ولكن ؟! ولكن ماذا أيهــا

العربيد ، أتلتقى بهـــا وتبثها الهوى وتقابل هواها ثم تتردد • نعم إنى أتردد •

إنها قد تسعى إلى غيرى كما سعت إلى •• بل إن أمى قد ألقت إلى فيما ألقت أن كلاما غير كريم يدور حول سهير • أليس بحسبى هـــذا الكلام حتى لا أتزوجها •• ومتى رأيت الناس يصدقون ، لعلهم وشاة يكذبون ، ولكن الشرف ســـمعة ، وكرامة الفتـــاة منوطة بسمعتها ، فما الناس يتحدثون عنها ولا يتحدثون عن فتاة أخرى • لعلهم ينفسون عليها جمالها وغناها •• كم من الفتيات جميلات وذوات غنى ولا نسمع عنهن شيئا •• لابد انها هى التى أتاحت الفرص لهـــذا الحـــديث أن يدور •• ثم •• أليس فى لقائها بى ما يدل على أنها جريئة لا تراعى التقاليـــد •• ولكنها تلتقى بك أنت وحدك •• لا •• إن من تقبل أن تلتقى بى لا ترفض أن تلتقى بآخر •• الزواج أمر خطير ، قد لا أفرغ لها •• قد تشغلنى السياسة ، فما يمنعها أن تواعد آخر كما تواعدنى •• لا •• لا •• لا أستطيع •• الزواج •• الزواج !

إن أمى محقة حين فكرت أن تخطب لى هنـــد بنت اسماعيل باشا مصطفى • ومن أدراك أن هندا لا تلتقى بابن عم لها كما تفعل سهير ؟ أيها المتشكك •• وكيف لهند أن تلتقى وهى فتاة صـــغيرة لا تزال فى أكمام الصبا لم تعده إلى الشباب •• تلك هى الزوجة •• تربية تركية صارمة ، تخرج من يد المربية إلى يد الزوج . بلا لقـــاء ولا مواعيد ولا أقارب فى النيل ، ولا ستار من جدار أو ليل ولا أم وديدة حمالة المواعيد • ولكن سهير •• سهير •• ماذا أنت قائل لهـــا ؟ ماذا أنت قائل لها ؟

وحينذ سمع أقداما تقترب ، وسرعان ما بدت سهير على رأس السلم

وراحت تجوس الحديقة بنظرها هينهة ، ثم نزلت السلم فى سرعة محاذرة أن يصدر منها صوت واستقبلها وصفى :

ـ تأخرت •

وضحكت سهير وهى تقول :

ـ انتظرت حتى خرج أبى •

ـ عمى خرج ؟

ـ نعم •• ظللت أرقب باب الخروج ورأيت الباشمهندس الثقيل يخرج ، ثم خرج أبى بعده بقليل ومعه عبد البديع أفندى كاتب الزراعة •

ـ أنت تظلمين سليمان !

ـ أعوذ بالله •• لا تذكره لى •

ـ ولماذا ؟

ـ يا أخى هذا كارثة •• مصيبة •• بلوى •

ـ لماذا •• لماذا هذا كله •• هل جلست معه ؟

وتضحك سهير وهى تقول :

ـ نعم يا سى وصفى ! ؟ • كيف أجلس معه ؟ •• أأقابل الرجال ؟

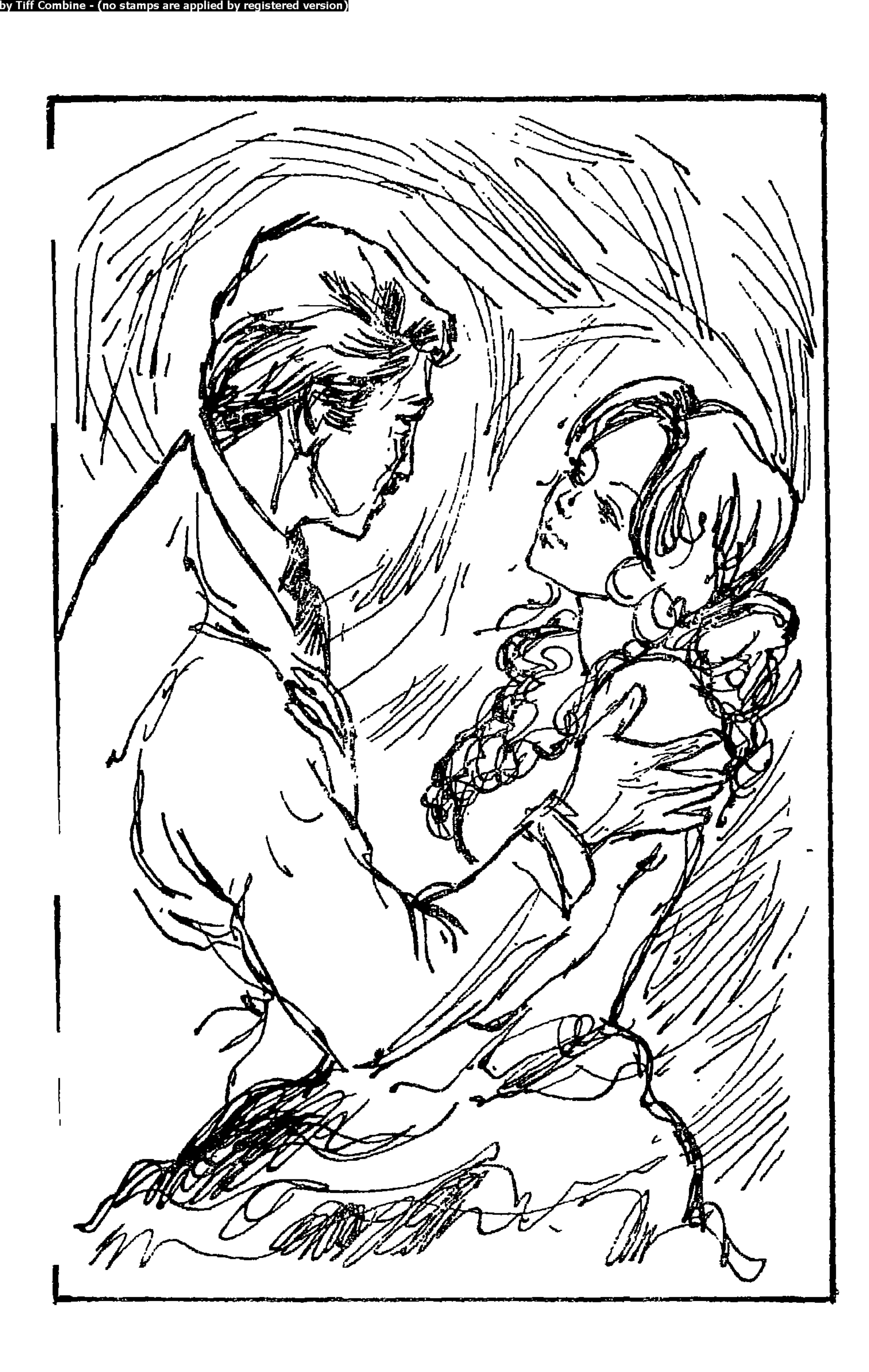
وابتسم وصفى وهو يقول :

ـ وما أنا ؟ هل أنا ست ؟

وابتسمت سهير ، ولمع فى عينيها بريق وهى تنظر إلى وصفى نظرات عميقة جعلت الزهو يملكه ويروح يحاول أن يخفيه بالرجوع إلى الحديث عن سليمان ، فقد كان ذمه يرضيه ويرتاح إليه كما يرتاح لمديح يسمعه عن نفسه •

ـ فكيف عرفت أنه كارثة ومصيبة وبلوى ؟

ـ أوه •• يا أخى ، أترك سيرة هذا اللوح •



ويقهقة وصفى قهقهة توشك أن تعلو ، لولا أن تسارع سهير فتضع يدها على فمه فيقبلها ويمسك بها ، ويعيد سؤاله وهو ما يزال محتضنا يدها بيديه :

ــ كيف عرفت أوصافه هذه ؟

ــ يكفى أن هذه رابع مرة أرفضه ، وهو يصر على طلبى ••

ــ رابع مرة ؟

ــ طبعا ، عد معى ، مرة قبل أن يسافر ، وأجابه أبى دون أن يسأل رأيى بأننى ما زلت صغيرة ، ومرة وهو مسافر بخطاب لم يرد أبى عليه ، ومرة أرسل أمه وسألنى أبى فرفضت ، وهذه المرة التى لا يزال يلح فيها •

ــ والله مكافح •• من يعلم لعله ينال أمنيته •

وانتفضت سهير جازعة . وانحبس صوتها وهى تسأل فى لهفة جازعة :

ــ ماذا •• ماذا تقول يا وصفى ؟

وأطلق وصفى ضحكة صغيرة وهو يقول :

ــ يا ستى أنا أضحك •• ألهذا الحد تكرهينه ؟

ــ بل لهذا الحد أحب غيره •

واغرورقت عينا وصفى بالدموع ، ولم يجد شيئا يفعله إلا أن يميل على يد سهير ، يقبلها فى خشوع حائر ، وفى قلق مرير ان أحست سهير لما صبرت أن تلقى بنفسها إلى النيل ، وأوشكت سهير أن تميل على رأسه تقبله وهو مكب على يدها ، ولكن ردها عن ذلك كبر لم يمحه الحب ، وردها عن ذلك أن صعد إليها وجه وصفى والدموع تتغشاه بعد أن فاض منها سكب" على يدها •

(٣)

عاد وصفى إلى منزله أول الليل . وجلس إلى أمه التى استقبلته وقد رسمت على فمها ابتسامة . أدرك وصفى أنها تخفى وراءها أمرا • ولم يشأ وصفى أن يستعجل أمه لتنتهى إليه ما تخفيه ابتسامتها . فهو يعلم أنها سرعان ما تفضى إليه بما تخبئه •

كانت السيدة اجلال أم وصفى سيدة فى الحلقة السادسة من عمرها . تركية المولد والنشأة ، وكانت بيضاء الجبين . لم يخط الزمان على وجهها خطوطا كثيرة . وإنما ترك صفحة وجهها صافية يلمع فيها البشر . فقد عاشت مع المرحوم زوجها عيشة رضية . فلم يتزوج عليها ولم يشتر جوارى أخريات شأن أمثاله من الأغنياء وإنما أفردها بحبه وعنايته ومنزله • ولكن هذا جميعه لم يستطع أن يمحو من عينها وميض قلق ألم بها منذ اختطفها اللصوص وهى طفلة تلعب فى مدارج الصبا ، وأتوا بها إلى مصر حيث بيعت بيع الرقيق إلى جد وصفى الذى زوجها لولده أدهم باشا شكرى • لا ، لم تمح الأيام من عينها هذه النظرة القلقة ، ولم يستطع أدهم باشا بكل حدبه عليها وحبه لها أن يزيل هذه الآثار الدارسة من بقايا القلق التى ارتسمت فى عينها منذ ذلك الحين البعيد • ولم تنجب اجلال هانم لزوجها غير وصفى ؛ فحمد ربه على ما أعطى . وعاش لا يرجو من دنياه إلا أن يمد الله فى عمر ولده ويحفظه من شر العاديات •

وكان وصفى خليقا أن يميع منتهزا فرصة انفراده بأبوة أبيه وببنوته له لولا أن اجلال هانم أدركت ما يحيط بالفتى من خطر ، فقامت على شأنه فى قسوة رحيمة وحزم واع ، وهيأ له أبوه مناهل العلم ومجالس العلماء ، فشب الفتى قويم الخلق واللسان ، أديبا محبا للعلم ، وصار إلى مكانه المرموق هذا مدركا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أمه وأبيه .

وحين انتقل أبوه إلى جوار ربه عاش الفتى وليس له أرب فى بيته إلا أن يرضى أمه فلا تفتقد شيئا كانت تجده أيام أبيه .. اللهم إلا فقدانها لزوجها ، وذلك الذى لا يعوضه مال أو بنون .

لاحظت اجلال هانم أن وصفى لم يحفل أمر ابتسامتها التى وضعتها على فمها حين أقبل ، فوسعت الابتسامة مرة أخرى عساه أن يسألها ، فقد كانت تدير الحديث فى ذهنها قبل أن يأتى ولدها ، وكانت تريد أن يسألها « ماذا وراء ابتسامتك » حتى ترد سؤاله بما تريد أن تخبره به، ولكن ها هو ذا ابنها يأبى أن يسألها ولا تعرف هى كيف تبدأ الحديث .

وأدرك وصفى أنها تريد أن يسألها عما تخفيه ، وشاء أن يداعبها بصمته فسكت لا يسألها . وطال الصمت بهما وازدادت الابتسامة اتساعا ، وازاد وصفى تشاغلا عنها حتى ضاقت الأم آخر الأمر .

— أما انك بارد !

وضحك وصفى وهو يقول :

— لماذا يا أمى ؟

— أما ترى أنى أبتسم وأبتسم ، أما ترى أننى أريد أن أقول شيئا ؟ !

— فما يمنعك يا أمى أن تقوليه ؟

— لأنك لا تسألنى عن سبب ابتسامتى •

— ألابد أن أسـألك حتى تخبرينى •• أنا أعلم أنك لن تسكتى أو تقولى ما بعث هذه الابتسامة الحلوة الى شفتيك •

— والله لأسكتن فلا أخبرك •

— ولمـاذا يا أمى ، أنا أعرف أنك تريدين أن تخبرينى عن خبر هام ، فلا تضايقى نفسك وقولى الخبر •

— أنا أضايق نفسى ، إنه أنت الذى يتوق إلى معرفة ما أخفيه •

— أنا يا أمى !

— نعم أنت ولكنى لن أخبرك •

— حسنا •• نعمل تجربة ، الذى يتكلم أولا يدفع للآخر خمسـة جنيهات •

— أما انك بارد !

— هيه •• ما رأيك •• نعمل تجربة •

— طيب •• سنرى •

وسكت الاثنان وقـد ازدادت الابتسامة اتساعا على وجه اجلال هانم ، حتى لتوشك أن تنفجر عن ضحكة مرحة فرحانة • ولم يطل بهما الصمت بل تلفتت اجلال هانم حولها وهى تقول :

— أين كيسى •• ها هو ذا ••

وفتحت اجلال هانم كيس نقودها وأخرجت منه خمسـة جنيهات وقالت لابنها :

— خذ واسمع •

وراح الاثنان يقهقهان فى مرح ، ثم قالت اجلال هانم :

— احزر من زارنى اليوم •

— حرم اسماعيل باشا مصطفى •

وفغرت الأم فاها عاجبة من ولدها هذا الذى حيرها •

ـ وكيف عرفت ؟

ـ عرفت من ابتسامتك الأولى •

ـ طيب هات الجنيهات الخمسة •• أتضحك عليّ يا واد ؟

ـ وفيم أضحك عليك ؟

ـ أتكون عارفا بالموضوع كله وتدعى الجهل به ؟

ـ يا أمى •• وهل لك عمل منذ قبلت أن تخطبى لى هندا إلا بيت اسماعيل باشا مصطفى ، وهل لك حديث إلا عن الخطبة ، وعن صداقتك لسمية هانم منذ أيام الطفولة ، وعن فرحك لهذا النسب الجديد • يا أمى اننى أعلم أنك لا تحملين أخبارا إلا هذه ، فمنذ فتحت هذا الموضوع وأنت لا تتحدثين عن شيء آخر •

ـ آه لئيم •• هات الفلوس التى أخذتها •

وقال وصفى جادا :

ـ وماذا قالت لك سمية هانم ؟

ـ أرأيت •• انك أنت الذى تتوق إلى هذا الحديث •

ـ على كل حال لابد لى أن أعرف •

ـ يا سيدى ، الباشا وافق وهو مسرور جدا ، وقالت لى أنه منتظرك غدا لتحدد موعد الخطبة •

وقال وصفى فى شيء من القلق :

ـ غدا ؟

ـ غدا •

ـ بهذه السرعة ؟

ـ وما المانع ؟

وسرح وصفى بنظرة وهو يقول :

ـ نعم •• صحيح •• ما المانع ؟

(٤)

واندفع وصفى فى تيار رغبة عنيفة أن يتم زواجه هذا ، لقد كان يخشى الأيام ، أو هو يخشى نفسه أن مرت عليه الأيام ، كان قد وصل إلى قراره هذا بعد تردد ، وكان العقل وحده هو الدافع إلى هـذا الزواج ، كان يريد زواجا مستقرا غير مفزع بأشباح من الماضى ، وخيالات من رعونة الشباب .

كان يعلم أن قلبه نافر من زواجه هذا إلى هواه الأول ، وكان قلبه الشاب قوى النبض ، عنيف الحجة ، ولكن استطاع فى لحظة أن يضع حول قلبه سياجا من المنطق ، فخفت النبض هونا ، وانبعث وصفى فى غفوة من قلبه يتم الزواج ، فى اندفاعة خائف ، وفى سرعة قلق ، وفى عزم حيران .

يصبح الصباح فيندفع وصفى إلى التليفون يطلب إلى العاملة أن تصله بمنزل اسماعيل باشا مصطفى ، وبعد هنيهة يكون وصفى على موعد أن يلتقى بالباشا فى منزله فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم ذاته .

وفى الساعة الخامسة يكون وصفى قد أخذ مكانه من اسماعيل باشا مصطفى ، والباشا يرحب به فى اجلال فهو يعرفه من زمن بعيد ، ويلاحقه كاتبا وسياسيا ، ويحمل له فى نفسه إلى جانب الحب اكبارا . وقد كان وصفى عالما بمكانه من نفس الباشا ، ولكن علمه لم يمنع الخجل أن يلعثم لسانه بعض الحين .. بعض الحين فقط ، ثم سرعان

ما جرى الحديث فيما قــدر له أن يجرى وسرعان ما تحدد موعــد الخطبة •• وصفى متعجل والباشا مسرور بهذا التعجــل ، وصفى يخشى أن يطغى عليه قلبه إن تراخى الموعد ، والباشا يظن تعجــل وصفى عدم صبر عن لقاء عروسه •

والتقت الرغبتان وإن اختلفت البواعث والظنون• وانتهى الحديث، واستأذن وصفى وخرج • وعند باب المنزل التقى وصفى بأم وديدة تحمل فوق رأسها بقجتها ، فحياها تحية عابرة ، وانصرف عنها باهتة ذاهلة إن لم يمل وصفى على أذنها ولم يتح لهـــا أن تميل على أذنه •

ركب وصفى عربته وأمر الســـائق أن يسعى به إلى بيت عمـــه أجمد باشا ، وما إن أتم إصدار أمره حتى صـــكت حوافر الخيـــل مسامع أم وديدة وهى فى طريقها إلى باب الحريم •

(٥)

كانت حجرة المكتب فى بيت الباشا خالية لا يشغلها إلا كاتب زراعته عبد البديع أفندى الدكر شاب يفتتح الحلقة الثالثة من عمره ، صورة قوية المعالم للفلاح المصرى ، مغلفا بعـادات الريف ، لم ينزع من غلافه شىء ، لن تخطىء عيناك حقيقته ، ولن تخدعك منه هذه الحلة التى يضعها على نفسه كلما اقتضت الأعمال أن يزور الباشا فى المدينة • فقد شب فى القرية ، وفى مكتب الباشا ، يتلقى عن أبيه أحمد الدكر فنون حساب الدوبيا ، ومحاسبة الأنفار ، وصرف التقاوى والسماد ، وظل بالقرية وبمكتب الباشا عمره جميعه حتى مات أبوه ، فتولى هو عمله •

ولم يكن مجيئه هـذه المرة فى عمل ، وإنما جاء ليستأذن الباشـا أن يكمل نصف دينه بالزواج من خطيبته التى خطبها له أبوه منـذ هو طفل ، ومنذ عروسه وليدة ، أنها ابنة عمه « محبوبة » •• محبوبة العمر كله •• كم يشتاق إليها •• إلى الزواج بها ، وإلى أن تخلو بهما حجرة ، ويقفل عليهما رتاج • إنه يحبها ، ويخفق قلبه لرؤيتها ، وتمور الدماء فى عروقه حين يلتقى بها وقد ألقت على رأسها خمارها الأسود • وهو منذ يومين لا يطيق صبرا ، فقد رآها فى صحن دارها ، وقد لبست جلبابها الأحمر الهفهام الذى لم يكن قد رأى منه إلا طرفه الأقصى حين كان يتدلى تحت جلبابها الأسود ، رأى الثوب جميعه ، رأى ظهره ، ورأى أكمامه وقد انشمرت عن ذراعيها •• ذراعيها هى ،

بل لقد رأى أيضا ساقيها تحيطان بالطست رأى ذلك جميعه حين ولج بيت عمه الذى كان مفتوحا •• رأى محبوبة فتملاها مليا ، حتى إذا أحس أنها توشك أن تلتفت خلفها سارع عائدا بظهره إلى باب الدار ، ومن هنـــاك قال :

— يا ساتر •

وقامت محبوبة عن الغسيل ، ومن وراء باب حجرتها قالت وهى تدرك من المنادى :

— من ؟

— أنا عبد البديع يا محبوبة •• عمى هنا ؟

— لا •• خرج •• تفضل •

— لا •• استأذن انا •• سأعود إليه فى العشية •

هو منذ تلك اللحظة لا يطيق صـــبرا ، ولولا أن الأعمـــال كانت متراكمة لركب القطار إلى الباشا لحظة ترك محبوبة ، ولكنه صبر نفسه يومين بغير نوم ؛ لقد كانت ســـاقا محبوبة وذراعاها تطارده فى النوم والصحو على السواء حتى لقد خشى أن يخطىء فى الحساب فجاء •• جاء منذ الأمس ؛ ولكنه لم يستطع أن يحادث الباشا فقد كان جالسا طوال الوقت إلى ولدى أخويه فلم يره إلا وهو فى طريقه إلى السيارة ولم يتسع الوقت إلا لأن يسأله الباشا سؤالا عاما عن حال الزراعة ، ثم طلب إليه أن يبيت إلى الغد • وبات ليلته فى بيت الباشا ؛ وخرج فى الفجر ليصليه حاضرا فى سيدنا الحسين وحين عاد كان الباشا قد خرج • ثم ها هو ذا ينتظره وقد اقتربت الساعة من السادسة وأنه يخشى أن يبيت هـــذه الليلة أيضا دون عـــودة إلى القرية •• إلى محبوبة •

هكذا كان يفكر عبد البديع حين فتح البـاب ودلف إلى الحجرة سليمان • وقام عبد البديع فى أدب بالغ ، وقد اشتعل فى نفسه كره عنيف لسليمان ، فقد كان يريد أن يحادث الباشا على انفراد ، والآن لم يصبح هذا الانفراد ميسورا ، ولكن هذا لم يمنع عبد البـديع أن يقـول :

ـ مرحبا سعادة البك •

ـ أهلا عبد البديع أفندى •• لى زمان لم أرك •• كيف حالك ؟

ـ الحمد لله يا سعادة البك •• أطال الله عمرك •

ـ كيف حال الزراعة عندكم ؟

ـ ماشية يا سعادة البك •• بركة الباشا كبيرة ••

ـ كم يرمى الفدان ؟

ـ من القطن يا بك ؟

ـ نعم •

ـ خمسة •

ـ فقط ؟

ـ نعمة •

ـ والقمح ؟

ـ من خمسة إلى ستة أرادب •

ـ فقط ؟

ـ نعمة يا سعادة البك ، طيب ، والله إن أرضـنا تنتج أحسن محصول فى الجهة •

ـ لا •• لا يا عبد البديع أفنـدى •• لابد أنكم لا تحسـنون الخـدمة •

ـ يا سعادة البك الحال عندنا لا يقاس بالحال فى اوربا •
ـ ولم لا ؟
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله •• هناك أوربا •• وهل أوربا يا بك مثل العواسجة •• شتان يا سعادة البك •• شتان •
ـ المسألة خدمة أرض فقط •• لو خدمت الأرض أعطتك •
ـ إنها أرض عمك وأرضك بجانبها •• أوصل لنا فى مرة وأرشدنا ، ونحن ننفذ أوامرك •
وقبل أن يجيب سليمان ، يفتح عم دهب الباب قائلا فى لهجتـه الحازمة :
ـ سعادة الباشا •

ويدخل الباشا إلى الحجرة ويسلم على سليمان وعبد البديع أفندى، ويقعد ، ويقعد سليمان ، وينظر الباشا إلى عبد البديع منتظرا أن يخرج ولكن عبد البديع يقول :
ـ سعادة الباشا يسمح لى •
ـ ماذا ؟
ـ كلمة صغيرة ، فإنى أريد أن أسافر الليـلة إن أذن سـعادة الباشـا •

ويتململ الباشا فى كرسيه ، وينظر إلى سليمـان راجيا أن يفهم ويترك الحجرة ، ولكن سليمان لم يتحرك من مكانه ، فلم يجد الباشا مفرا آخر الأمر من أن يقول لابن أخيه :
ـ اتركنا دقيقة يا سليمان •
ـ أمرك يا عمى •
ـ ويقوم سليمان خارجا حاقدا على عبد البديع أن يخفى عنـه

سرا •• فقد كان يحسب أنه يريد محادثة الباشا فى شأن من شئون الزراعة ، وقد كان يحب أن يعرف كل شئون الزراعة •• زراعة عمه الباشا بالذات •

قال عبد البديع فى لجلجة :

ــ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا وأبقاك •• سعادة الباشا يعرف أننى خاطب لابنة عمى محبوبة منذ زمن بعيد •

وقاطعه الباشا :

ــ عظيم •• عظيم ، وتريد أن تتزوج ؟

ــ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا •

ــ طيب اكتب أمرا إلى نفسك أن تصرف خمسين جنيها تتزوج بها •

وسمع عبد البديع الرقم فتحجرت عيناه هنيهة ، ثم فاض منها دمع فرحان ، فما كان يطمع فى غير عشرين ، وانكب عبد البديع على يد الباشا متشبثا بها ملقيا عليه بفمه ، ولكن الباشا يختطفها منه فى حزم :

ــ ماذا جرى يا عبد البديع ، متى رأيتنى أسمح لأحد أن يقبل يدى •• أستغفر الله يا ابنى ، واستغفره أنت أيضا •• اذهب يا ابنى ••• أنت ابنى • اذهب بارك الله لك فى زوجتك وبارك لها فيك•

وقال عبد البديع والدموع تجرى على خديه :

ــ وبارك لنا فيك يا سعادة الباشا ، وأطال عمرك ، ولا أرانا فيك سوءا أبدا يا سعادة الباشا•

وخرج عبد البديع ونادى الباشا :

ــ يا سليمان •• يا سليمان •

ودخل سليمان الحجرة . وتبعه وصفى الذى كان قد وصل لتوه ، وجلس كلاهما إلى الباشا وقد غشيهم الصمت ؛ أما الباشا فمفكر فى عبد البديع وفى زواجه مقارنا بينه وبين ابنتيه اللتين تعقدان الزواج تعقيدا يوشك أن ينتهى بهما إلى بوار • ومفكر أيضا فى سليمان هذا وفى وصفى ؛ فقد كان يتمنى أن يخطب وصفى إحدى ابنتيه ؛ ولكنه صامت لا يبين عن رغبة . ولا تبدو منه بادرة تفكير ، ولو كان يطيق أن يرفض سليمان دون الرجوع إلى ابنته لفعل حتى يضمن بعده عنها ولكن لا يستطيع فهو ابن أخيه وإن كان فقيرا ، ويخشى أن يرفضه فتغضب الأسرة جميعها . فقد استقر العرف بينهم ألا يكون المال سببا فى قبول أحدهم أو رفضه • فكلهم أسرة ، وكلهم سواسية ؛ لا يرفع المال واحدا منهم ولا يخفض آخر • ولكن الحمد لله . فان سهير ترفض وتتمسك بالرفض وما يظنها تقبله أبدا •• فان وجهه هذا — وهو يعلم أنها رأته من وراء الشباك — كفيل بأن يجعلها تزداد تمسكا برفضها له كلما عرض عليها •

وأما سليمان فقد كان يفكر فيما نال عبد البديع أفندى لعمه وفى الثروة الضخمة التى يشرف عليها هذا العبد غير البديع ويتوق فى أعماق نفسه أن يشرف هو عليها •• آه لو تقبله سهير •

وأما وصفى فقد كان يفكر فى الوسيلة التى سيلقى بها إلى عمه خبر خطبته . فقد كان يحب عمه ويقدره ؛ ولا يريده أن يسمع خبر الخطبة من غيره . وكان يعرف أن عمه يريده . لإحدى بنتيه ؛ جاهلا ما بينه وبين سهير . جاهلا أيضا أن هذا الذى بينه وبين سهير هو نفسه الذى منعه من التقدم للخطبة •

وهكذا صمت ثلاثتهم حتى فتح عبد البديع أفندى الباب وتقدم إلى

الباشا فى انحناء ، مقدما إليه إذن الصرف ، ووقع الباشا الإذن بين دعوات عبد البديع أفندى المتلاحقة ، والتفت الباشا إلى ولدي أخويه :

ـ باركا لعبد البديع أفندى ؛ فانه سيتزوج •

وهنأ الشابان عبد البديع أفندى الذى شكر لهما تهنئتهما وخرج ، ولحق به وصفى إلى خارج الغرفة ، وفى البهو انتحى وصفى بعبد البديع ناحية وأخرج من حافظته عشرة جنيهات أعطاها له ، وتأبى عبد البديع هنيهة ، ثم قبل الهدية وهو يشكر وصفى ويدعو له ••

وعاد وصفى إلى الحجرة ، فوجد الصمت ما يزال يأخذ مكانه بين عمه وسليمان • وكان الباشا قد أدرك ما دعا وصفى إلى الخروج ؛ وأراد أن يغمز سليمان فقد كان يريده هو أيضا أن يهدى كاتبه شيئا•• أى شىء مهما يكن تافها ليمكن لنفسه احترامها عند الخدم • قال الباشا لوصفى :

ـ ما كان لك أن تفعل ، فقد أعطيته أنا خمسين جنيها •

وتردد وصفى ثم قال :

ـ يا عمى أنا أعرف ذكاءك الخارق ، ولكنى ما كنت أحسب أنك تعرف الغيب أيضا •

ـ لا غيب ولا حاضر •• لم يكن هناك ما يدعو لخروجك إلا هذا ، وأنا أعرف عنك أيضا أنك كثير العطاء •• وسع الله عليك يا ابنى •

ولم يشعر سليمان بغمزة عمه وإنما شعر بحقده يزداد على عبد البديع لزواجه ، لنيله هذه الأموال فوق ما ينهبه من الزراعة • وشعر بحقده على وصفى يزداد أيضا لغناه ، ولأنه استطاع

بهذا الغنى أن ينال هذا الدعاء الجميل من عمه ، كمـا استطاع من قبل بغناه ومركزه أن يكون المرشح الأول فى إشاعات الأسرة للزواج من ســهير •

وانتهز وصفى الفرصة السانحة من الحديث عن الزواج وقال لعمه:

ـ وأنا يا عمى سأتزوج عن قريب •

ودهش الباشا ، وتسارعت الدقات بين ضلوع سليمان •

ليس هــذا أسلوبا يخطب به الفتى الفتــاة إلى أبيها ، ولم يكن الباشا يقدر أن وصفى سيخطب غير واحدة من بنتيه • وانتفض قلب سليمان ذعرا متخيلا أن وصفى سيخطب ســهير • ولم يتح وصفى لهذه المشاعر أن تبلغ مداها ، بل سارع قائلا :

ـ لقد خطبت اليوم هند بنت اسماعيل باشا مصطفى •

وتمالك الباشا نفسه فى سرعة قادرة مرن عليها فى مجالات السياسة والحياة وقال :

ـ مبروك •

ولم يستطع أن يزيد ، بل لم يستطع أن يشفع التهنئة بابتسامة •• أى ابتسامة مهما تكن باهتة •• قالها مبروك •• بريئة من كل فرح ، مجردة من كل معنى للتهنئة ، أما سليمان فقد جاهد نفسه أن يخفى فرحته وأطلق :

ـ مبروك •

تحمل سرورا عاتيا راقصا ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحمل كل ما فى نفسه من سرور •

وأحس وصفى راحة إلى القاء هذا النبأ •• راحة الحيران التائه يصل إلى مستقر ، مهما يكن هذا المستقر مخالفا لمـا كان يتمنى ••

ولكنه مستقر على أيه حال • أحس أنه أتم عزمه •• وتغلب على قلبه ؛ واطمأن إلى مستقبله فى ظلال بيت هادىء لا تدور فيه أعاصير الهوى ، وإن كان يتمنى أن تترقرق فيه نسمات من الحب الناعم ، تنمو ولا تدوى ، وتكبر مع الزمان ، ولكن فى هدوء ووقار وإيناس •

ولم يلبث وصفى كثيرا •• فقد أحس بالصدمة التى يعانيها عمه من خيبة الأمل ؛ وبالفرح الذى يعانى سليمان فى كتمانه أن أمله قد يتحقق •

وما ان بلغ وصفى الباب الكبير ؛ حتى التقى هناك مرة ثانية فى يومه هذا بأم وديدة ذاهلة حائرة ؛ تتخفى منه فى بقجتها ، وتميل عن طريقه فى ازورار •• وأحس وصفى فى أعماق نفسه كرها لأم وديدة •• كرها شديدا لم يعرفه لأحد من قبل •• انها هى •• هى وحدها التى فرقت بينه وبين هواه •• انها هى التى وضعت هذا الحائل بينه وبين سهير •

وأدرك وصفى ان النبأ فى طريقه الى سهير مع بقجة أم وديدة ، وأحس حينئذ أن سهير ستحس هذا البغض نفسه نحو أم وديدة •• وأحس فؤاده يختلج فى صدره خلجه الطير الجريح •• انه سيجتمع هو وسهير على كره أم وديدة فى وقت معا ، كما اجتمع هو وسهير على حب أم وديده فى وقت معا •

(٦)

صعدت أم وديدة الى الطابق الأعلى وهناك لقيتها الأسرة جميعها بالترحاب وخاصـــة سهير التى راحت تدور حولهـــا فى فرحة نشوانة ، يبتعثها فى نفسها هذا اللقاء الذى مهدت له أم وديدة فى أمسهم الذاهب ولم يكن فرح سميحة أخت سهير بأقل من فرح أختها بأم وديدة ، فقد طالمـــا كانت تهمس أم وديدة لســـميحة أن أختهـــا الكبرى ستتزوج عما قريب ، وعما قريب ستلحق هى بها وتتزوج من فتى أحلامها سامى الذى لا يمنعه عن طلبها إلا أن أختها الكبرى لم تتزوج بعد ، ولم يكن فرح الأم بأقل من فرح البنتين ، فقد كانت أم وديدة تقرأ لها الفنجان وتطمئنها أن فرحين لا واحد سيقامان عما قريب ، بعد نقط ثلاث فقط ، فى انقصر • فيطمئن مضطربها القلق ، ويهدأ ثائرها المفزع دائما بتلك القالة التى تشيعها أخوات بناتها من زوجة الباشا الأولى ، من سهير وسميحة ستظلان عانسين بلازواج •

راحت البنتان تتواثبان حـــول أم وديدة ، جاعلتين السبب الظاهر لفرحتيهما أنها قد جاءت لهما بما طلبته كل منهما فى الأمس من ملابس وأقمشة •

واستقبلتها السيدة تفيدة فى فرح هادىء شارع فى وجهها كله ، وأطل من عينيها الطيبتين ومن صوتها وهى تقول بعد أن صفقت بيديها :

ــ يا بنت هاتى القهوة •

وواجهت أم وديدة هـــذا الاستقبال الفـــرحان بوجمـــة حزينة ،

ووجه شاحب كالثلج ، وعقــل مذهوب ، وقــد وضحت آلامها جميعا في صوتها وهي تقــول :

ــ اعملي القهوة سادة يا نبوية •

واكفهر وجه الست الكبيرة وقالت :

ــ لمــاذا يا أم وديدة كفى اللــه الشر !

ــ واللــه يا ستي كنت عند جماعة وسمعت ــ ويا شوم ما سمعت ــ حكاية ــ بعيد عنك ــ ومن ساعتها وأنا مخي داير وربنا يستر •

ــ خير يا أم وديدة ؟

وانطفأت الفــرحة عن وجــوه الأسره جميعها ، وارتمت الفتاتان إلى الأرض بجانب أم وديــدة ، واشرأبت إليهــا رأســاهما ، وجف فهما ، فما تطيقان كلاما ، وما تطيقان صمتا •

ــ خير يا أم وديدة ؟

ــ واللــه يا ستات لا خير أبدا •• لا إله إلا اللــه •

وقلت السيدة تفيدة :

ــ يا أختي قولي ، نشفت ريقنا •

وخلست أم وديدة نظــرة إلى سهير ، ثم أطرقت وصعدت تنهيدة عميقة ، وقالت :

ــ لا حــول ولا قوة إلا باللــه •• كان بودي يا ستي سهــير أن يحمل غيري الخبر ، ولكن لا عليك يا بنتي ، غيره أحسن منــه •

وحملقت عينا سهير في أم وديدة ، وأوشكت أن تصرخ « وصفي » ولكن أمسك بلسانها وجود أمها وأختهــا ، وأمسك بهــا استدراك

أم وديدة السريع بصوت رفعته حتى يطغى على ما قد يبدر من سهير :

ـ وصفى يا ستى الكبيرة •• سيدى وصفى بك •

ودقت السيدة الكبيرة صدرها وهى تقول :

ـ ماله يا أم وديدة •• ماله وصفى ؟

وقفزت سميحة واقفة ذاهلة :

ـ ما لوصفى يا أم وديدة ؟

وبقيت سهير مكانها وكأنها تعرف أن وصفى بخير ، وكأن الأمر لا يعنيها ، فهى مطرقة تشتعل نفسها بنيران من الغيظ والألم والحسرة ، والكبر ذل من بعد كبر ، والكرامة أهينت من بعد كرامة •

واستطردت أم وديدة :

ـ خطب يا ستى الكبيره •• خطب هند بنت اسماعيل باشا مصطفى •

وتمالكت الست الكبيرة نفسها فى كبر وهى تقول :

ـ وماله ؟

وحاولت سميحة أن تقلدها وهى تقول :

ـ آه •• وماله •

وقامت سهير إلى حجرتها فى هدوء وبطء وفى وجوم ، فكأنما وجهها قد من صخر فهو قاتم لا يبين عما يسده فى نفسها من ثورات • حتى إذا خلت بحجرتها أقفلت الباب وأحكمت رتاجه ، ثم ارتمت على السرير ، شعلة لا تريد أن تخفف وقودها بماء ، وان

كان هــذا المــاء دمعا ، لا وإن كان هذا المــاء دما • انها تريد شعلة نفسهــا أن تظل مشتعلة تحرق وتحرق وان يكن الوقــود نفسها •• وان يكون الوقــود حياتها •• ارتمت على السرير وألقت بوجههــا الى الجدار الصلب ، لا تذرف دمعة ، ولا تفــكر فى شىء غير أمس عنــد القارب ، وغير الأمسيات التى سبقت الأمس هناك حيث قتلت كرامتها ، وأهدرت كبرها ، ولم تنــل حبــا لقــاء كرامة ، ولا وفاء لقــاء كبر • فلتلتهب نيران الشعلة ولتكن نفسها الوقود ، وما النفس بلا كرامة ، وبلا كبر ، وبلا حب ، وبلا وفاء •

لقــد أدركت أن الذى قضى على مستقبلها هــو القاؤها بوصفى مهما يكن لقــاء بريئــا •• لقــد كانت تعــرف وصفى رجلا متشبثا بالتقاليد ، يقدسها ويدافع عنهــا •• ألم تكن تقــرأ له مقالاته التى يعارض بهــا من يطالبون برفع الحجاب ، أما كان هذا رادعا لها أن تلتقى به •• ولــكن هى أم وديدة أوحت اليها أن لقاء سيتم بينهــا وبين من تحب • وهيأت لها أنه أمر ميسور ، فانصاعت فى سذاجة الهوى ، وفى رعونة الشباب الأولى •

صامتة سهير لا تبــكى ولكن تشتعل وتحترق بلا نور من الشعلة ، ولا بصيص من ضيــاء يبعثه الحريق ، حريق أسود داكن كآمالها ، كمستقبلها ، كماضيها ، كحياتها جميعا •

وطرق البــاب فقامت إليــه لم تسأل الطارق من هــو وما يريد ، وانفرج البــاب عن سميحة التى دخلت صــامتة وأقفلت الباب من خلفها وسارت مــع أختها إلى السرير ، وعادت سهير إلى استلقائها وجلست سميحة بجانبها :

ـــ لا عيــك يا ••

ولم تـــكمل سميحة الجملة ، فقـــد كانت تدرك أن آمال سهير معلقة بوصفى ، وقـــد كانت العـــائلة جميعهـــا تذكى هـــذه الآمال بمـــا تطلقه من شائعات وأقاويل •• كانت تـــدرك ذلك ولكنها كانت تجهل مواعيد أم وديدة ولقـــاء الأمسيات •• لم تكمل سميحة الجملة فقـــد وجدتها سخيفة لا تفيد شيئا ، ولم تجد شيئا تقوله غير دمعات فاضت صامتـــة أول الأمر ، ثـــم انفجرت عن بكاء ونشيج ، راحت سميحة تكتمه بالوسادة ، وقـــد ألقت وجهها اليهـــا ، وسهير صامتة لا تتكلم ، وكأنما هى وحـــدها فى الغرفة بلا بكاء جازع حزين قـــد ألقيت أختهـــا فى غمرته • وطـــرق البـــاب مرة أخرى وانفتـــح عن أم وديدة تقـــول :

— ستى سهير •

ولم ترد سهير على أن تقـــول :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وعادت أم وديدة فى نغمة توشك أن تكون نغمة نصح :

— يا ستى سهير ••

ولم تكمل لفظ سهير ، فقـــد قاطعتها سهير فى صوت حازم يحمل حقا ويحمل أمرا :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وأقفلت أم وديدة البـــاب وانصرفت • وخلت الحجرة بالأختين مرة أخرى ، ولكن سهير تريد أن تنفرد بنفسها ، فهى تقول لأختها :

— اذهبى إلى حجرتك يا سميحة •• أريد أن أنام •

— ومن سيلبس أبى حين يعـــود ؟

وقالت سهير فى تصميم :

ــ أنا طبعا •• سأصحو قبل عودته •• اذهبى الى حجرتك •

وفهمت سميحة أن أختهـا تريد أن تخلو الى نفسها ، فقـامت وتركت لهـا وحدتها •

* * *

عاد الباشـا متأخرا بادى التعب ، وأحست سهير وقـع أقدامه فى البهـو ، فقـامت اليـه جامدة محاذرة أن تلتقى عيناه بعينها ، ودخلت معه حجرته ووقفت وراءه لتخلع عنه سترته •

وقال الباشا وهو يخلع ملابسه :

ــ لا أدرى يا سهير لمـاذا أحس بتعب الليلة ؟

ــ لعلك تحتاج الى النوم يا أبى •• أبى ••

وقال الأب فى اشفاق :

ــ نعم يا بنتى •

ــ ماذا كان سليمان يعمل عندك اليوم ؟

وأدرك الباشا ما يهفو اليـه حديثها ، ولـكن لم يستطع أن يميله بالموضوع الى آخر • فهو يقول متظاهرا بعدم الاهتمام :

ــ انه يجىء كل يوم يا بنتى ••

ــ نعم أعرف ••

وأدرك الباشا أنه لا بـد له أن يلاقى الأمر مواجهـة ، فسـكت حتى لبس جلبابه ، وقعـد على الأريكة ، ثم نظر مليا الى وجه ابنته وقال لهـا :

ـ أتعرفين ما تريدين يا سهير ؟

وقالت سهير :

ـ تمام المعرفة يا أبى .

ـ لعلك غاضبة الليلة من أمر ما ، فيحسن أن تروى فى الأمر ، وتفكرى فيه وأنت بعيدة عن غضب لحظة .. انها حياتك يا سهير .. حياتك كلها .

ـ أبى ، اذا كنت أنت لا تريدنى أن أتزوج من سليمان فأمرك ولا أخرج عن أمرك .. أما أنا .. أما أنا ..

وجمعت كل قواها الباقية لتكمل الجملة قائلة :

ـ أما أنا فأقبله يا أبى .

ـ أواثقة أنت يا سهير ؟

ـ كل الثقة يا أبى .. انى أقبله .

وكان الباشا صادقا مع نفسه ، وصادقا مع قومه .. لقد قبلت ابنته الزواج من سليمان ، ولا بد له أن يوافق ، فهو ابن أخيه ولا يستطيع أن يرفضه ، وقد كان أمله الوحيد فى الرفض معلقا بابنته . ولكن ها هى ذى تقبل .. فماذا بقى له انها حياتها .. وهى فيها حرة .. ويل لها من الأيام .. أيكون سليمان زوجا لابنتى هذه .. ويل لها من الأيام !

(٧)

أصبح الصباح على الباشا ، فاذا بوعكة الأمس تصبح مرضا فهو لا يطيق أن يبرح فراشه ، وجاء الأطباء واجتمعوا حول سرير الباشا وقرروا ألا يبرحه لمدة شهر على الأقل ، ووصفوا له العلاج وخرجوا ، وانشغل المنزل جميعه بمرض الباشا ، ونسيت السيده تفيدة فى غمرة علاج الباشا ما كان بالأمس من خطبة وصفى • وانشغلت سميحة بأبيها أيضا ؛ أما سهير فقد راحت تنفذ أوامر الأطباء فى صرامة قاسية ، باذلة أقصى جهدها فى خدمة أبيها ، ولكن دون أن تنسى ، وكيف لها أن تنسى •

ومرت أيام والدار مقصد زوار لا ينقطع لهم سيل ، فأما فى الدور الأعلى فسيدات الأسرة حزنهن حزنان ، حزن لمرض الباشا ، وحزن يظهرنه وان لم يتمكن فى نفوسهن لخطبة وصفى لغير سهير •

وكانت بنات الباشا الكبيرات مع الزائرات وان كن يطلن من أمد الزيارة ، وقد يطيب لأحداهن أن تغيظ زوج أبيها ، فتبيت ليلة أو أكثر من ليلة فى قصر أبيها • وكن اذا جلسن الى زوج أبيهن أبدين أسفا لمرض أبيهن ، وأسفا آخر مستترا بالحديث الملفوف لخطبة وصفى ، مبديات انشغالهن على مصير أختيهن • حتى اذا خلت بهن حجرة ، راحت كل منهن تبدى سخريتها المرحة لما أصاب القصر من مصائب ، مرددات أن هذه المصائب انما هى ذنب أمهن المسكينة التى تزوج أبوهن عليها دون ذنب أو جريرة ، ولكن هذا لم يمنعهن أن يشفقن على أبيهن ، وأن يتمنين له الشفاء •

وأما الدور الأسفل فقد كان يحفل بالرجال ، لا يصعد أحد منهم الى الدور الأعلى ، فان الباشا كان لا يلقى أحدا ، وأحد لا يستطيع أن يصعد الى الدور الأعلى ما دام الباشا لا يلقاه ، فما تلقى السيدة الا اخوتها هى دون اخوة الباشا ، فهم لا يصعدون وانما يمكثون بالدور الأول يتعرفون الأخبار من الأطباء حين نزولهم ، ويلقون الزوار ويشكرون زيارتهم •• كان رجال الأسرة جميعهم يلتقون بالدور الأول ويظلون به الساعات ، لا فارق ثمة بين اخوة الباشا وأبناء اخوته وبين غيرهم من أفراد الأسرة فالجميع له اخوة وأبناء اخوة •

وكان وصفى وسليمان على حالهما من المواظبة ، يظلان بالقصر ما اتسع لهما الوقت • وكانت خطبة وصفى قد عرفت فى مجال الأسرة ، فراحت التهنئات تترى اليه ، ولكنها تهنئات ذاهلة •• أذهلها اخلاف الخطبة لظنونهم ، وأذهلها انتظام وصفى فى المجىء الى دار عمه رغم خطبته ، وكانت تهنئات واجمة أيضا فقد كان مرض الباشا يخيفهم جميعا •

لم يكن سليمان يعلم ما جرت به الأمور بعد خطبة وصفى •• ومن أين له أن يعلم ؟ ! ، ولكن آماله كانت قد تضخمت ، فهو أكثر رفعا للكلفة فى القصر ، وهو من يجلس فى الشرفة الخارجية ليكون أول مستقبل للزوار ، وهو من يودع الزائر حتى عربته أو سيارته -

وتحسنت صحة الباشا ، واستطاع أن ينتقل من السرير الى الأريكة دون أن يبرح الغرفة ، واستطاع أن يلقى اخوته بين حين وحين على أن يتباعد ما بين الحين والحين • واستطاع أيضا أن يذكر آخر حديث له مع سهير قبيل مرضه ، وأن يذكر أن الحديث قد

مرت عليه أسابيع ، فهو ينتهز فرصة تخلو به الغرفة وبابنته فيسألها :

ــ هيه يا سهير .. أمصممة أنت على قبولك لسليمان ؟

ــ نعم يا أبى .

ــ أواثقة أن هذه رغبتك بلا أى تأثير ؟

ــ نعم يا أبى .

ــ شأنك يا بنتى .. ولكن اذكرى حياتك كلها أنك أنت من اخترت ، فاذا مت فاذكرى أنى سألتك رأيك .. وألححت فى السؤال .. أنت وحدك المسئولة عن حياتك منذ هذه اللحظة .

ــ أطال الله عمرك يا أبى .

ــ على بركة الله .

وعلم الباشا أن سليمان بالقصر ، فأمر أن يخلى الطريق الى حجرته من الحريم ، وأن يصعد سليمان اليه .

وقصد سليمان الى عمه الذى استقبله فى محاولة هزيلة للبشر ، وقال له :

ــ مبروك يا سليمان .. مبروك عليك سهير يا ابنى .

وهوى سليمان على يد عمه يقبلها ؛ فتركها له الباشا ، فهى قبلة ابن اختار يد أبيه موضعا لها .. وقال الباشا لسليمان وهو ما يزال مكبا على يده :

ــ يا بنى الشكر يكون بمعاملتها هى معاملة ترضينى .. ترضينى وأنا فى قبرى .. انها ابنتى .. قطعة منى .. وهى أحب بناتى الى .. أحببها هى .. أحببها هى يا سليمان ؛ فهى بغير كل

ما حولها من مال وجاه جديرة بالحب ، والله على ما أقول شهيد ..
أكرمها يا سليمان تكرم أباك وعمك .

ولم يقل سليمان شيئا فى غمرة فرحته الا جملة واحدة ظلت تتردد على لسانه ، دون أن يفكر فيها ، ودون أن يجد لها فى نفسه صدى .

ــ أطال الله عمرك يا عمى .. أطال الله عمرك يا عمى ..

لم يكن تفكيره فى الثروة التى انهملت عليه ليسمح له أن يفكر فى شىء آخر ، ولم يكن ليسمح له أيضا أن يستمع إلى كلام عمه حتى يفهمه .. وانما هى جملة تعلقت بلسانه ، فراح لسانه يرددها وكأنها اسطوانة وضعت على حاك خرب .

(٨)

كانت الأيام التالية أيام أفراح •• أو هى ان شئت الحق الخالص أيام زيجات • فقد تزوج عبد البديع من محبوبة ، وقد كانت هذه هى أولى الزيجات ، وقد كانت ناحية الأفراح فيها مترعة خالصة لا يشوبها الا الهناء والسعاده •

فقد عاد عبد البديع الى انقرية وبلغها فى الهزيع الأخير من الليل فما رده التأخير أن يقصد إلى بيت عمه • وطرق الباب فى شىء من التهيب ولكن فى اصرار وجاءه صوت عمه جازعا غاضبا بعض الغضب من هذه اليد العابثة التى تطرق عليه الباب فى بهيم الليل ، فهو يثوب من نومه العميق :

ــ من ؟

ــ أنا عبد البديع يا عم •• لا مؤاخذة •

ــ خير يا بنى •

ــ خير وكل الخير يا عم •• افتح •

وقال العم وهو يفتح الباب غير مطيق أن يفتح عينيه :

ــ يا ابنى الصباح رباح •• خير •• متى جئت من مصر ؟

ــ الآن يا عم الآن ••

ــ وكيف حال الباشا •• عسى الله أن يكون بخير •

ـ بخير يا عم الحمد لله •• أبقاه الله لنا ومد فى عمره •

وراح عبد البديع يقص على عمه الخير الذى سكبه عليه الباشا وابن أخيه وصفى بك ، ولم يفته أن يذكر جمود سليمان • واتفق عبد البديع مع عمه على أن يكون الفرح بعد أسبوع وأن يكون المهر ثلاثين جنيها ، بدلا من العشرين التى كان متفقا عليها •

ولكن الصباح أقبل عليهم بمرض الباشا فتأجل الزواج ، وجعل موعده شفاء الباشا ، حتى يكون الفرح فرحين ، وظل عبد البديع يتعجل هذا الشفاء حتى علم به وعلم بخطبة سهير هانم الى سليمان بك ففرح بخبر الشفاء فرحا غامرا وان اعترضت غمرته غصة بهذا الزواج الذى اختاره الباشا لابنته ، ولكنه سرعان ما قال فى نفسه « أطال الله لنا عمر الباشا •• مالنا نحن ولسليمان » •

وأقيم فرح عبد البديع وخلت الحجرة به وبزوجته وارتاح المضنى الى المضنى بها وهدأ للاعج المستمر من هوى شب على السنين الطوال ، وازداد أجيجه من نظرة عارضة عجلت بالزواج • وانصرف الجمع الذى ظل ملازما لباب الحجرة ، يعلو خواره وتنشق حناجره عن أصوات مرتفعة تريد أن تلتهم فى هديرها تلك الصرخة التى تودع بها الفتاة عهد العذارى •

خلت الحجرة بالزوجين وبدأت بهما حياة جديدة •• جديدة عليهما ، قديمة على العالمين منذ بدء العالمين •

* * *

وفى القاهرة ، وفى ذلك القصر المطل على النيل كانت العدة تعد لفرح آخر ؟ ولكن أهو فرح ؟ أيحمل من معنى هذه الكلمة شيئا ••

على كل حال هو زواج دعى الى شهـود حفلة قـوم كثـيرون ، هم خيرة أبناء مصر وقادتها ، وسيحيى ليلته خـير المغنين •• بمبه كشر عند الحريم ، وعبـد اللطيف البنا عند الرجال • فهـو فـرح اذن ! ولـكن العروس •• مصدر هذا الفرح وسببه ، حزينة لا تعبأ من أمر هـذا الفرح بشيء ، وانمـا هي جامدة لا تتحرك خلجات وجهها عن نأمه من بشر أو سرور ، تسألهـا أمهـا عمـا تريد فتترك لهـا الأمر جميعه ، لا تريد أن تسـاهم فيـه بأكثر من تلك الموافقة التى قسرت نفسها عليهـا قسر ، ويسألهـا أبوها عن طلباتها فلا تزيد على الدعاء له بطول العمر •• دعاء صادقا من عميق قلبها وأن يكن صدقه عـذا يخفى مشاعر أخـرى لا تبـين عنها لأبيهـا • كانت سهير لا تريد أن تشارك فى هذا الجرم الذى تقترفه نكاية بنفسها أكثر مما ساهمت •• فبحسبها اعناتا لنفسها وانتقاما أنها وافقت على الزواج من سليمان • أما أن تشارك فى تجهيز نفسها لهذا الزواج ، فهـذا ما لا تطيـق أن تفعل ، لقـد استنفذت جهدها جميعا لتقول لأبيهـا أنها تقبل هـذا الزواج ، ولم تبق منها بقية تجهز بهـا له •

وكانت الأم تعـرف ما يعتلج بنفس ابنتها ، ولكنها تكتم علمهـا ذاك فلا تبين عنه ، فهى تخشى أن تشمت بهـا بنـات زوجها ، وهى تخشى أن تنكأ فى نفس ابنتها جرحا تعـرف أنه يسيل ، وترجو من الزمان أن يرقأ دماءه المسفوحة ، فهى صامتـة تلهى نفسها بالشراء والاشراف على شـأن الزواج وحفله ، ولـكن هـذا الشراء وهـذا الاشراف لا يمهدان لهـا وقتا طويلا ، فقد تم الاتفاق على أن يقيم سليمان مـع زوجتـه فى قصر أبيها الباشا ، فالأمر لم يعـد محتاجا لغـير أثاث حجرة نوم واحـدة تستبدل بالقـديم الذى كانت تنام فيـه سهير ، والشيء الوحيـد الذى طلبته سهير هو ألا يباع أثاث

حجرتها القـــديم ، وألا يبارح الطابق الأعلى أو القـــاهرة الى منزل الريف طلبت ذلك ولم تبـــد لطلبها سببا ، وأجيبت إلى طلبها دون أن تسأل عن السبب • لقـــد شهدت هـــذه الحجرة أسعد أيامها ، وهى تريدها أن تبقى قطعة من سعادتها الذاهبـــة •

لم تكثر الأم اذا من الشراء انما هو أثاث حجرة واحـــدة فخـــم وضعته بـــدلا من أثاث حجرة سهير القـــديم ، وابتسمت لسهير ، وهى تقـــول :

أما أثاث حجرتك القـــديم فهـــو كمـــا طلبت ، سيظل هنـــا معنا فى هـــذا الدور ، سأجعله فى الحجرة المجاورة لك ينتظر الأولاد •

وذعرت سهير ، الأولاد ! ؟ وهـــل ستأتى بأولاد أيضـــا ، نسيت ســـهير أن الزوج فى غالب أمره ينتج الأولاد •• الأولاد •• أولاد منهـــا ومن سليمان •• لم تفكر فى هذا الأمر إلا حين ذكرته أمها ، وقـــد ظلت بعـــد ذلك ليـــالى تفكر فى هـــذه الكارثة الجديدة التى ستصاحب ما وقـــع وما أوقعتـــه هى على نفسهـــا من كوارث •• وأوشكت ، بل وهمت أن تقـــول لأمهـــا ارفضوا الزواج • ولـــكن منعها خوف راعد ، خافت الصدمة التى سيصاب بهـــا أبوها ان هى قالت « لا » بعـــد « نعم » ، وخافت أن يرغمها أبوها على الزواج ارغاما وقـــد كان خليقا أن يفعل ، فهو لا يقبل أن تمس كرامته بسوء وان كلفه هذا حياة ابنته جميعا ، وخافت أيضا أن تطفىء هذه الفرحة الغامرة التى تمرح أختهـــا سميحة فى أسكوبها ، مظهرة أنهـــا فرحة من أجل أختها وقـــد غبيت أن أختها تعرف تماما بأمر حبها لسامى وحب سامى لهـــا وانتظارهما زواجها هى ليتزوجا هما أيضا •

لم تكن « لا » اذن ذات غائدة فقد فات حينها ، بل انها كانت خليقة

أن تجعل الزواج يتم فى ظلال قاتمة من الارغام والقهر والزجر والتهديد ، بدلا من اتمامه فى ظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب .. نعم فقد كان البيت الذى يتهيأ للزواج الجديد ، مغمورا بهذه الظلال من العطف والاشفاق والحدب والحب . وهى ظلال كما ترى خالية من الفرح كل الخلو . فهى ظلال بلا اشراق ، كان القصر المقبل على الزواج بعيدا عن الفرح كل البعد ، ولم تجد الزغرودة التى كانت تطلقها بعض الخادمات من حين الى حين ، عندما يقبل العريس وينتظر عمه فى الدور الأسفل ، أو عندما تقبل قطعة من أثاث جديد أو قماش أو فستان للعروس ، لا ولم تجد تلك الضحكة العريضة التى كانت تضعها الأم على شفتيها ، لا ولم تجد هذه الرقة الحنون التى كان يصطنعها الأب كلما حادث ابنته العروس ، بل ولم تجد الفرحة الحقة التى كانت تعيش سميحة فى أنغامها ، لم يجد شىء من ذلك فى اشاعة قبسة من فرح فى هذه الظلال التى كانت تسود القصر الذى يتهيأ للزواج الجديد ، وأن تكن الظلال مسكوبة من عطف واشفاق وحدب وحب ، الا أنها ظلال أبدا لم تعرف ومضة الفرح .

ومع ذلك جاء اليوم الموعود ، وسمى اليوم يوم الفرح . واستقبل الأب اليوم أشد ما يكون اشفاقا وضيقا ، فقد كان يعلم تماما ما تقاسيه ابنته ، حتى لقد كان يوشك أن يقتل ابن أخيه هذا ، كان يرى فيه جلاد ابنته الذى اختارته هى لنفسها فى لحظة انهدمت فيها آمالها . لم يكن لفقر سليمان أى أثر فى ضيق الباشا به ، فهو ابن أخيه ، وقد كان أخوه حبيبا الى نفسه ، ولقد طالما نهاه عن السرف والقمار والمضاربة ولكنه لم يستمع ، بل انه كان فى كثير من الأحايين يدفع عنه ديونه وان تضخمت ليبقى عليه أرضه ، ولكنه

لم يـكن لينتهي حتى أنهى ماله جميعا وأتى عليـه ، فلم تبـق منـه الا أوشال ضئيلة لا تعدو ثلاثين فدانا ملاصقة لأرض الباشا ، ومع ذلك فقـد كان الباشا يحبه ، وظل يرعى ولده بعـد وفاته حتى عاد من أوربا ، وكـم كان البـاشا يتمنى أن يـكون سليمان على خلق سوى ، وترفع عن الدنايا واعتزاز بالنفس ، ولكن سليمان لم يكن ، كان كل شيء الا خلقا سويا أو ترفعا أو اعتزازا ، كان هينا •• هينا على نفسه فرآه الناس أهون ، وكان دنيئا لا يعـرف السمو ، وكان ذليلا يطلب الأمر اليسير فيبذل فى سبيله كل كرامة ، حتى لم تبق له كرامة ، لا يعف عن قـول خسيس ، ولا تمتد آماله الا الى توافـه الأمـور بلا طمـوح • أكبر آماله هى تلك التى ينـالها الآن ، زواج من ثروة ، وركون الى هـذه الثروة ، واستزاده لهـا دون أن يفكر حتى فيما سيتمتع به فى ظلال هـذه الثروة •

كان الباشا يعرف هـذا جميعه عن سليمان ، فهو ضيق به أشـد الضيق ، لا يفكر فى فقـره ، فقـد كان يعلم أن غنى ابنته كفيل أن يضمن لهـا ولزوجها حياة ميسورة ، ولكن زوجها نفسه بما فيـه من خلق ، أو بما ليس فيـه من خلق ، هو ما يضيق به الباشا ، ولـكن ماذا يفعل ؟ لقـد تم الأمر وحل اليوم • ولات حين رجوع •

أقبـل سليمان على قصر البـاشا فى الصباح من يوم الفـرح ، واستقبله الخدم فى اجلال صـامت ، وصعد خبر مجيئه الى الباشا وانطلقت زغرودة أعقبهـا صمت • وظل سليمان منتظرا عمه متوفز الأعصاب . يدعو الله فى نفسه أن يتم هذا اليوم على خير •• الكتاب فقط يا رب •• الكتاب على خـير يا رب ، ولا أريد غير هـذا منـك يا رب •• انه كـل ما أطلبه منك يا رب ، لن أطلب منك بعـد اليوم شيئا يا رب •

وكأن الله يضيره أن يطلب هـذا السليمان شيئا ، أو كأنه يخادع ربه ويمنيه أن يريحه بعـد ذلك من طلباته ، أم لعله كان لا يـدرى ما يفعل ، أو ما يقول ، فظل يدعو ربه فى الحاح تعوده مع عبيد الله ، فلا حرج عليه ان هو بذله عنـد المولى •

ولم يطل به الدعاء ، فقـد نـزل عمه متجهم الوجه وان حاول أن يلقى على وجهـه بعض البشاشة :

ــ صباح الخير يا سليمان •

وأقبل سليمان على يـد عمه فقبلها :

ــ صباح الخير يا عمى •

وجلس الباشـا ، وجلس سليمان ، ومرت فترة صمت ، ثـم قال البـاشا •

ــ سليمان . هل أعددت المهـر ؟

وأخذ سليمان لحظة ثم تلعثم وهو يقـول :

ــ نعم •• نعم •• نعم يا عمى •

ــ كم ستدفع ؟

ــ أمرك يا عمى •

ــ لا بل أمرك أنت •• انى أريد أن تدفع شيئا مهما يكن قليلا ، حتى أحس أنك أجهدت نفسك لتنال أملك •

ــ والله •• والله ••

ــ اسمع يا سليمان •• اننى أعددت لك هـذا المبلغ •

وأخرج الباشا من جيبه ظرفا منتفخا ، وأكمل حديثه :

ألفـان من الجنيهـات ••

واتسعت حدقتا سليمان ، وفغر فاه ، واستعصى ريقه على البلع ، حتى ليكاد يسيل ، وأكمل الباشا حديثه :

— ستدفع منها ألفا هى المهر • وأعطيك الألف الأخرى لك لتظهر أمام زوجتك فى الشهور الأولى مظهرا يرضى كرامتها ، ويشعرها أنها تزوجت من رجل يريدها هى ولا يريد مالها •• هذا المبلغ كبير يا سليمان كما ترى •• فأكرم به نفسك أمام زوجتك ولكنى أريد أن تكتب لى كمبيالة بخمسمائة جنيه •• هذا هو المبلغ الذى أريدك أن تقدمه لى مهرا ، وأما بقية الألفين ، فانه هدية منى لك لمناسبة زواجك •

وهب سليمان الى يد عمه وانكب عليها يريد أن يقبلها ، ولكن الباشا سارع فجذب يده وهو يقول :

— لا •• لا يا سليمان فى هذه المرة لا •• لا تقبل يدى لأننى أعطيتك نقودا ••

وأخذ سليمان المال ، وانحط على كرسيه ، ولم ينظر الى عمه ، ولو فعل لرأى وجها ينكره •• لو فعل لرأى وجه عمه الذى كان يحاول أن يكسوه بالبشاشة ، وقد انقلب الى وجه حزين كسيف جازع ملىء بالكره والاحتقار ، لقد فعل الباشا ما فعل ، وكان يتمنى أن يتأبى سليمان أو يظهر بعض التمنع ، أو يعرض أن يكتب كمبيالة بالمبلغ جميعه ، أو يظهر بأى مظهر فيه بعض كبرياء ، أو بعض رجولة ، أو بعض خلق • أما أن ينكب على يده كما فعل عبد البديع فواضيعتا لك يا سهير !!

أحس الباشا الألم الذى أمرضه يعوده ، ولكنه جاهد نفسه ،

ولم يبين عنه ، وقام تاركا القصر جميعه ، ومن ورائه ابن أخيه ، وحين حاول أن يركب معه سيارته قال له :

ــ لا أظن طريقنا واحدا •

ثم أمر سائقه فسر ، وأخذ سليمان وجهته الى داره ليبشر أمه بما سكبه عليه عمه دون أن يشعر بما يكنه له عمه هذا ، ودون حتى أن يشعر بما فى رد عمه له عن ركوب السيارة من كراهية واحتقار •

* * *

وكان الفرح الثالث هو زواج وصفى ، وقد كان هذا الزواج محوطا بشىء كثير من الفرح ، فأهل هند فى فرح غامر يعدون للزواج والسعادة تغمر نفوسهم ، وكانت هند ذاتها سعيدة غاية السعادة •• سعيدة لأنها ستتزوج ، وقد شبت وهى تسمع أن الزواج معناه فرح ، فهى لا تعطى فقيرا الا دعا لها بالزواج والفرح ، وهى لا تجلس الى أمها الا رأتها تتمنى لها زواجا من رجل عظيم لتقيم لها فرحا تتحدث عنه الى أولادها وأولاد أولادها ، وهى لا تجلس إلى زائرات إلا دعون لها بالزواج والفرح ، وها هى ذى تتزوج ، ومن رجل عظيم مشهور طالما سمعت عنه من أبيها ومن أعمامها وأخوالها وهو ابن باشا وغنى ويقولون انه جميل كالأمير الذى تروى عنه الأقاصيص ، والذى تشهده فى التمثيل حين تصحبها أمها الى التمثيل فى يوم السيدات •

ها هى ذى تتزوج اذن ، وها هو ذا الفرح يعد له اعدادا ضخما رائعا •• فهى اذن فرحانة •• يبارك أبوها فرحتها وتنتشى بها أمها •

وكانت السيدة اجلال سعيدة أيضا بزواج ابنها : فهى زيجة طالما تمنتها وسعت اليها .

الوحيد الذى انشغل عن أن يفرح هو وصفى ، وقد أراد لنفسه أن ينشغل .. لا يريد أن يفكر فى هذا الزواج ولا يريد أن يعرف حقيقة شعوره نحوه .. انه زواج فقط ، بلا مشاعر حوله من ضيق أو فرح أو أمل أو ألم ، انه زواج يتم فى حياته كجزء من طريق حياته ، ولا بد له أن يقطعه فهو لا يستقلبه بشعور معين ، وانما هو يشغل نفسه بالسياسة ، ويندفع فى غمارها يريد منها أن يحقق أمله فى الجهاد ، ويريد أيضا أن تشغله عن تفكير آخر ، وعن زواج آخر . لم يعد يريد أن يذكره أو يذكر صاحبته .. سهير .

(٩)

أقيم فـــرح ســـهير الحزينـــة ، فـــكان على أروع ما أريد له أن يكون • وطرب الزوار وانتشوا بالغناء ، فكانوا هم ومعهم سليمان وسميحة رمز الفـــرح فى القصر •

كان سليمان فرحا يغشى فرحه بعض اضطراب • فهـــو ان يكن قـــد ربط جأشه وسكن مضطربه بعـــد كتابة عقد الزواج ، الا أنه عاد لنفسه يسألها : ماذا هو قائل فى ليلته تلك ؟

ماذا هـــو قائل لسهير فى لقائهما الأول • انه لا يفـــكر فيما هـــو فاعل ، لأن أمه منعته أن يفعل شيئا فى ليلته الأولى ، فشأن العروس فى الليلة الأولى أن تـــكون مضطربة ، ويجب على العريس أن يطمئن روعها ليلة أو أكثر من ليلة حتى يزول عنها الروع ويهدأ المضطرب •

فماذا هـــو قائل اذن •• لو أنه كان مثـــل وصفى لفتـــح للحديث أبوابا ، أما وهو لا يستطيع حديثا فماذا يفعل •• آه لقـــد تذكر •• ألم يكن يحكى على صديقـــاته فى أوربا ما يجعلهن يضحـــكن حتى تســـيل الدموع من عيونهن ، أو لم يكن أترابه وأصـــدقاؤه هنـــاك يضحكون منه هم أيضا •• نعم انه لم يجد بمصر منذ عاد من يضحك من حديثه الا أن هذا لن يقف به عن المحاولة ، فان عروسه مثقفة ولابد أنها ستضحك كما كان أصحابه يضحكون •• لقد هداه الله الى الحل •• وانه لمتبعه فبالغ ما أراد لنفسه أن يبلغ فى ليلته •

وراح سليمان يعيد على ذهنـــه ما كان يحكيه بأوربا لأصـــدقائه ،

منصرفا عن الفرح الى تلك الأيام المزدهرة فى حيـــاته ، والمدعوون فى شـــغل عنه إلى الغناء وإلى أصدقائهم ، لا يحفل واحد منهم شأن سليمان ، فلم يكن ذا شـــأن بينهم أو بين غيرهم ، فهو من أولئـــك الذين اذا حضروا أو غابوا لم تحس حضورهم أو غيابهم • وقد كان فى هذه اللحظة حاضرا غائبا ، يفكر ويبتسم ويفرح •• لقـــد هدى الى الحل ، ووفق الى السبيل !

وكانت ســـهير فى الطابق الأعلى ، يعينها على ســـتر ما بنفسها من ألم وحسرة الخجل الذى تتشح به العروس فى ليلة زفافها ، فهى صامتة عن ألم ، وتظن المدعوات أنها صامتة من خجل ، والله يعلم ، والباشا وأمها ، على أى لاعج من أسى ينطبق صمتها •

وانتهى الفرح • وخلا العروس الى عروســـه • ولم يجد سليمان من كل ما كان يعده فى رأسه الا :

ــ مساء الخير •

ونظرت اليـــه ســـهير •• انه فى القرب أبشع منـــه فى البعـــد ، وجاهدت نفسها أن تجيب ، فلم تستطع فأشـــاحت متخذة من خجل العروس وقاء لها من الإجابة •

وتمطى سليمان وألقى نفسه إلى كرسى وهو يقول :

ــ متعب الفرح •

وسخرت سهير فى نفسها من كلمة الفرح ، وظلت فى صمتها •

ــ أليس عجيبا أن تكونى ابنـــة عمى ولا أراك الا الليلة ؟ عادات سخيفة !! • عندنا فى أوربا كان النساء يقابلن الرجال حتى الأغراب •• تصورى ••

عنــدنا فى أوربا •• لا •• لا أطيق •• أيجمع إلى قبح المنظر ، وصــفاقة الوجه ، ثقل الدم أيضا •• لا •• لا يارب •• لم أقــدر لنفسى كل هــذا العقــاب •• النجاه يا رب النجاة •• عنــدنا فى أوربا •• ويقول تصــورى •• أنا متصــورة •• أنا عارفة فلا حاجة بى إلى التصور •• الشيء الوحيد الذى لا أتصوره هو أنت يا زوجى ، يا شريك حياتى يا مستقبلى كله ، يا بقية عمرى •• وأخشى والله أن تكون بقية العمر طويلة •

ــ كان النســاء يجلسن معى ، وهن لا يعرفننى •• وكنا نتكلم ونتبادل الأحاديث ••

ثم يضحك سليمان فى غرور شائه ثقيل :

ــ كن يعجبن بى اعجابا كبيرا •

بك أنت •• لا •• انى أعلم •• لقــد كن يضحكن منك لا لك •• كنت سخرية الأصــدقاء والصديقات •• ويلى أنا ، لقــد كنت تقيم مع الواحــدة منهن ســاعة أو يوما أو شــهرا ، ثم تنصرف عنك ؛ ولا يمكن أن تنصرف أنت عنهــا لأنك صــفيق ، أما أنا فالعمر •• العمر كله •

ــ تعرفت هناك ببنات كثيرات •• جميلات •• ولكنهن طبعا لسن فى مثل جمالك •

وتغازل أيضــا •• يا لهــا من مصيبة ! •• انه يستعرض أمامى مهارته مع النساء ، ويغازلنى فى وقت واحــد • كأن من المفروض أن أفرح أن كان له سوابق مع أخريات •• نعم والله كنت خليقة أن أتعزى لو أن هذا الذى يرويه حق •• كنت خليقة أن أعزى نفسى بأن أخريات فكبن به قبلى ، ولكن من أدرانى أنه الحق !!

ـ أنت غيرى •• أليس كذلك •• لا •• لا •• لا تغارى ، فقد انتهى ما كان بينى وبينهن ، ولقد شئت أن أقص عليك هذا الحديث ، حتى أكون صريحا معك منذ أول ليلة •• هيه لا تغارى •

أغار ! •• عليك أنت •• ألم ينظر فى مرآة هذا الثور •• أنا أغار عليه ؟ !

وقام سليمان عن كرسيه واقترب منها فى كرسيها الذى جلست اليه ، وقد ألقت برأسها إلى كفيها تدير إجاباتها على زوجها فى ذهنها ولا تنطق منها بشىء •• اقترب سليمان من زوجته ووضع يده على كتفها •• ولم تكن رأته وهو يقوم عن كرسيه مقتربا منها •• لم تر شيئا من هذا ولم تحس إلا بيده تهبط على كتفها ، فلم تشعر بنفسها إلا وهى فى آخر الغرفة ، تصطك أسنانها من المقت والخوف ، محدقة فيه مذعورة ، لا تنطق بلسانها شيئا ، وإن كانت عيناها قد نطقتا بكل شىء •

ولم يكن سليمان يفهم من لغة العيون شيئا ، وانما قال فى نفسه « ان أمى خبيرة •• انها تدرك الذعر الذى تلتقى به العروس فى ليلة زفافها الأولى » •

* * *

وفى الصباح بكرت سهير تخرج من غرفتها ، وتركت زوجها نائما هادىء البال مطمئنا ، لم تجد أحدا صاحيا ، فاتخذت لنفسها مكانا فى البهو ، وراحت تفكر فيما أصابت به نفسها ، وحاولت جهدها أن تنفى عن نفسها هذه الأفكار ولكن الأفكار كانت أقوى منها ، فهى تمور بعقلها فى ثورة عارمة ، فليس لها منها نجاء •

فقامت سهير تتمشى فى أرجاء البيت ، وقصدت الى الشباك المطل على باب البيت والشارع ، وكانت الحياة قد بدأت تدب هونا فى الطريق ، فبائع الفول يدفع عربته لم تتحلق حوله الخادمات والخدم بعد ، وبائع اللبن يسير حاملا بيده اناء اللبن ، وفوق رأسه ذلك اللوح الكبير الذى استقرت عليه أطباق القشدة وأوعية لبن الزبادى الفارغة ، والموظفون يسيرون فرادى ، والتلاميذ يسيرون جماعات ، وعم ادريس يصلى ، وقد وضع بجانبه موقدا من الفخار اشتعلت فيه النار واستقر عليه اناء الشاى والعيش ورأت سهير النار تشتعل وتكاد تلتهم العيش ، فما يملك عم ادريس الا أن يخرج من الصلاة بغير انتهاء ، بل انه حتى لا يستأذن ربه فى الخروج من ساحته بأن يلقى السلام على الملائكة الذين يحفون به وهو قائم .. لا يفعل شيئا من هذا ، بل هو يترك الصلاة فى جزع عاجل وينكفىء على النار ، يختطف منها العيش أن تلتهمه قبله . وتلوح ظل ابتسامة على شفتى سهير كانت جديرة بأن تكون ضحكة عريضة ، لولا ما بالقلب من ألم . وتظل سهير رانية الى عم ادريس والى الشارع . وقد ماجت فيه الحياة وتسارعت فيه الخطوات ، وجرت به العربات تجرها الجياد ، مطهمة حينا أو كسيرة وانية الخطوة حينا آخر ، وقد ترى من حين الى حين سيارة تخترق الطريق فى زهو ، مدلة بسرعتها وأناقتها ، فتلقاها الخيل وسائقوها بكبر ، كبر صاحب الأصل الدارس صار الى الفقر ، وما يزال متشبثا بأصله العريض ، وان يكن قد تهدّى الى فقر وارهاص بزوال .

واستطاعت الحياة أن تلهى سهير عما يمور بنفسها بعض الحين ، فلم تنتبه من وقفتها الا على عربة مطهمة الجياد تقف أمام بيتهم

وينزل منهـا ابن خالهـا سـامى عبد الحميد ، أمل أختهـ سميحة وفتاها • وحين تركت النافذة خشية أن يراها سامى ، سمعت جرسا يـدق • فأدركت أن أباها قـد صحا ، فذهبت الى غرفتـه ، وقالت وهى تفتح الشباك ، وقد حملت جرائد الصباح فى يدها :

ـ صباح الخير يا أبى •

وقال الأب فى بعض دهشة :

ـ صباح الخير يا بنتى •• صاح الخير يا عروسة ••

وكانت سهـير قـد أصبحت بجانب سرير أبيهـا ، تضم الـكلة المسدلة عليـه ، وهى تقـول :

ـ أرو أن تكون جقـد نمت نوما هانئا ؟ !

ـ أرجو أن تكونى أنت قـد نمت نوما هانئا ، لقـد صحـوت مبكره يا سهير •• خير يا سهير •

ـ خير يا أبى •

ـ قولى يا سهير •• هل أنت مرتاحة ؟

ولم تستطـع سهـير أن تحتمـل حـزنها أكثر ممـا احتملت •• لم تستطع أن تـكتم الدموع الطافرة من عينهـا ، فأدارت وجههـا عن أبيهـا ، وانهملت دمعـت صامتـة ، وألح الأب فى السؤال ، والدمـوع ما تزال تتزاحم فى عينى سهـير ، حتى اذا عجـزت عن وقف دفعها جلست على سرير أبيهـا ، وألقت برأسها على حافته ، وقـد تشبثت يداها بهـذه الحافة وبكت •• فى همهمة خافتـة أول الأمر ، ثـم ما لبثت أن انفجـرت عن بكاء صـاخب ، تـكاد تذرف فيـه قلبها ، وأمسك أبوها بهـا ، واحتـواها فى صـدره ، فازداد



بكاؤها عنفـــا ، والأب الراسخ الصلب لا يجـــد ما يفعله ســـوى أن يربت كتفها ، وقـــد ثارت فى نفسه عاطفـــة الأبوة جياشة ، رقراقة عنيفة ، حتى لم يستطع ، وهـــو الرجل عـــرك الحياة وعركته ، الى أن صـــار من الحوادث كالجبل الأشم ، تـــدور به الرياح فلا تنـــال منه •• لم يستطع أحمد باشا الا أن يسكب دمعـــات ، سارعت يده الى تجفيفها قبل أن تراها ابنته •

وأحست سهير فى حضن أبيهـــا بعض راحة ، وأحست أن بكاءها لن يفيدها شيئا الا أن تعـــذب أباها ، فتمالكت وانتفضت عن سرير أبيها الى خارج الغـــرفة ، لم تغب عنهـــا كثيرا ، بل هى تعود الى الأب الحزين ، وعلى شفتيها شـــبح ابتسامة باهتـــة ، وتجد أباها يختم صلاته ، فتجلس رانية اليه فى حب ، حتى اذا قام عن السجادة قالت :

ــ ان أكن قـــد آلمتـــك يا أبى هـــذا الصباح ، فانى أحمـــل لك خبرا تفـــرح له •

ــ والله يا بنتى لا أعلم أن شيئا يفرحنى وأنت حزينة •

ــ لا عليك منى يا أبى ، ان سامى قـــد جاء الآن ويرجو لقاءك •

ــ وأى شىء يفـــرح فى هـــذا ؟

ــ ألا تدرى يا أبى ، انه يريد أن يخطب أختى سميحة ، فبحياتى عليك يا أبى الا قبلته •

ــ سامى ابن حلال ، ولكن هل سميحة تريده ؟

ــ نعم يا أبى ، انى سألتها •

ــ هل أعتمد على قولك هـــذا وأقبله ، وأحمل عن نفسى مئـــونة سؤالها وخجلها ؟

ـ نعم يا أبى •

ـ اذن فأرسلى اليه من يصعد به الى هنـــا ، واخلو له الطريق •

وما هى الا دقائق ، حتى صعد ســـامى الى زوج عمته التى كانت قـــد صحت هى أيضا ، وانضمت الى زوجهـــا فى حجرته • وما هى الا دقائق أخـــرى ، حتى خرجت تفيدة هانم من الحجرة ، وأعلنت الى ابنتهـــا سميحة أن أباها قـــد قبـــل خطبـــة سامى لها ، وانطلقت الزغاريد فى القصر ، صاخبة فرحة هـــذه المـــرة ، لا يعوق انطلاقها شىء •

وصحا سليمان من نومه على هـــذه الزغاريد ، فظن أنهـــا موجهة له ، وحدث نفسه أنه لا يستحقها بعد ، ولكنه لم يستطع أن يصرح • ووضـــع على نفسه معطف المنزل ، وقصد الى حجرة عمه • وهنـــاك عـــرف ما أطلق هـــذه الزغاريد من عقـــالها • فهنأ ســـامى وأصابت نفسه غصة ، فقـــد كان يعلم أن سامى أغنى منه • ولكنه تذكر ما نال من عمه فى أمسه ، فثـــارت فى نفسه فـــكرة جاهـــد أن يكتمها • انه يريد أن يدعو زوجته الى رحلة خارج القاهرة ، يتمتعان فيها بشهر العسل ، حتى يظهـــر لعمـــه أنه سينفذ أمره له باظهـــار كرمه أمام زوجتـــه ، وحتى يستطيع أن يتيـــح لزوجتـــه أن تأنس به من تلك الوحشة التى عرفهـــا منهـــا فى ليلة البـــارحة • وكان يجاهد نفسه ألا ينفذ هذا العزم ، حرصا على الأموال ، واحتفاظا بها ، ليشترى قطعة أرض يضيفها الى تلك الأفدنة القليلة التى تركها له أبوه •

وبينما كانت هـــذه الأفـــكار تتصـــارع فى نفس سليمان ، كـــان القصر يموج فى فرحة غامرة • فسهير مـــع سميحة تحضنها ، وتبكى بكاء اختلط فيـــه الفرح بالحزن •• فرح بأختها وحزن على نفسها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتجيبها سميحة بالبكاء ، لا يبتعثه الا الفـرح الخالص ، تشـوبه الأحـلام الوردية عن الهناءة التى ترنو اليهـا فى ظل هـذا الزواج السعيد ٠

وكانت الأم فـرحة هى أيضـا ، فرحة بريئة سـاذجة ، ولـكنها لم تسعد بهـذا الفرح كثيرا ، فهى تنظر الى وجه زوجها فتجد فيـه ألمـا يجاهد فى اخفـائه ٠٠

ــ خير يا باشا ٠٠ أنت متعب ؟

ــ والله يا تفيدة نعم ٠

ــ ومالك لا تقـول ؟

ــ اتركنى النبات يفرحن ٠

ــ البنات لا يفرحن الا بك يا باشا ٠٠ صحتك أهم من كل شىء

وانكتم الفـرح فى الصدور ، وانـكتم معـه حزن سهير ، وحيرة سليمان الذى وجـد فى مرض الباشا قرارا حاسما ، اذ لا يمكن أن يدعو زوجته الى رحلة وأبوها مريض ٠

وسرعان ما جاء الأطبـاء . وهـرول سـامى ليشترى الدواء ، وتكاسل سليمان متظاهرا أنه يريد أن يظل الى جانب عمـه ، مرتئيا فى هـذا العذر اعفاء له من دفع ثمن الدواء ٠ وجاء الدواء ، ولـكن متى نفع الدواء ، وقضاء الله مقضى ، سبحانه يهب الحياة ويختارها الى جواره ٠٠ هو وحده صاحب الأمر فيها مبتدئة ومنتهية ٠

(١٠)

لم يستطع شيء أن يعوق سليمان عن حقوق الزواج ، وان يكن الحزن قد أجل نيل حقوقه بضعة أشهر ، ولكن أين المهرب لسهير والحياة طويلة ، ما الشهور فيها الا قطعة صغيرة من الزمن ، يبتلعها الزمن . ويبقى الزمن ، وتبقى الحياة ، ويبقى زوجها ، وتبقى حقوقه •• وقد نالها ، ولكن سهير كانت تحس دائما أنها كأنما ترتكب اثما حرمه الله ، كان يداخلها شعور بالخزى والعار ، ولولا أن عقلها ما يلبث أن يذكرها بأنها أوامر الله لما زايل هذا الشعور نفسها •

ولم يكن الجنين يعلم أن أمه لا تحب أباه ، ولم يكن يعلم أنه يتكون على رغم أمه ، ولم يكن يعلم أنها تتمنى أن تموت قبل أن يصبح هو طفلا ، ولو كان يعلم ما استطاع أن يفعل شيئا ، وماذا بيده أن يفعل •• انه يتكون ويكبر على رغم أنفه وعلى رغم أمه ، ويكتمل وينزل الى الحياة •

واستقبل القصر الطفل الأول لسهير •• وقد كان اسم الطفل معدا له قبل مجيئه « أحمد » وقد رحب سليمان بالطفل ورحب أن يسمى أحمد ، وتخلى عن بذل أى مال للحكيمة المولده أو للخدم ، فقد تعود الخدم منه ألا يعطيهم شيئا وان يكن بعض الأمل قد داعب نفوسهم أن تسخو نفسه الجامدة ، يوم مولد طفله الأول ، الا أن هذا الأمل كان ضعيفا واهنا ، لم يحسوا فى انهدامه برزء الأمل المنهدم •

(قصر على النيل)

وكانت سهير قــد عرفت عن زوجها هــذا البخل القاتل ، ولم تشأ أن تنبهه الى موقفه من الخدم ، فقــد كانت تعلم أن لا أمل يرجى من تنبيه ، وضمت هــذه السوءة الى ما اجتمع فيــه من ســوءات وسكتت • وقــد كانت تعلم أنه مهما يعطهم فانه لن يطيق أن يصبر نفسه عن ارتكاب الصغائر أمامهم • فقــد استطاع سليمان فى مهارة حاذقة أن يرغم زوجتــه على احتقارة ، فأصبح كرههــا له كرهين ، ومقتها له ألوانا من المقت ، عديدة لا يخفت لهــا أوار •

استقبلت سهير طفلها أحمد ومقت أبيــه يمهد له عندها ، وحينما رأته فى يــد الحكيمة يطلق صرخاته الأوى فى وجه الحياة لم تحس نحوه شيئا من عطف ، ولعلهــا لم تحس نحوه شيئا على الاطلاق ، لولا أنها تذكرت ما يتناقله النــاس من حب الأمهــات لأولادهن • فطوت نفسها على شعورها المبهم ، ونامت بعد أن عرفت أن وليدها طفــل ذكر • وما كان يعنيها أن يكون ذكرا أو أنثى •• كــل ما كان يعنيها ألا يجيء هــذا الطفل ، أما وقد جاء فسيان عندها أن يكون ذكرا أو أنثى ، فهو ان يكن ذكرا فقد يرث عن أبيه شر أبيــه ، وهو ان يكن أنثى ، فهى قد ترث عن أمها تعاسة أمها •

صحت سهير من نوم عميــق ، فوجدت أمهــا بجانبها تشرف على طعامها • حتى إذا أصابت ما قدموه لهــا ، دفعت أمهــا اليها طفلها لترضعه • وحين وضعت ثديهــا فى فم الطفل راح ســؤال يدور فى ذهنها •• وأنت ما ذنبك ؟ ما ذنبك أنت يا ولدى العزيز ••! العزيز •• أعزيز أنت •• أى شيء فيك عزيز ؟ ! أنت بلوَرة شقــائى •• انت تجسيد الأشباح القاتمة فى ظلال حياتى ! أنت تعاستى حيــه وترضع منى وأغذيها •• لا عليك يا ولدى ، فانى كمــا أتيت بك الى الحياة

أتيت بشقائى الى الحيـاة •• انهـا أنا يا بنى التى خلقت شقـاءها بيـدها ، وهأنتذا شقائى جاء من أحشـائى مجسما بعـد أن كان فكرا •• انسانا بعـد أن كان خيالا •• حياة بعـد أن كان رؤى •• حياة وان تـكن شقية حزينة آسية ، الا أنها حياة ، وأنا صاحبتها ، وأنا من أغذيها • سأغذيك يا بنى كمـا غذيت شقائى دائمـا ، وكمـا خلقت شقائى هذا •• لقد ولدتك أحشائى . كما ولد عقلى شقائى •• أتت بك أحشائى على رغـم أنفهـا . وولد عقلى شقـائى مختـارا لينتقم •• لقـد خلت انى أنتقم ممن هجـرنى ، فاذا أنا أنتقم من نفسى ، فويلى من ظالمة ومظلومة . وقاتلة وقتيل •• أنا هى جميعها ، أنا الظالمـة والمظلومة والقـاتلة والقتيـل •• ولـكن أنت •• أنت يا ولدى •• ما ذنبـك ؟ فاطعم •• اطعم يا بنى هنيئا لك ما ينساب الى جوفك الطاهر البرىء النـدى •• وأرجو اللـه اللطيف بعباده ألا ينساب فى دمى الذى يغـذيك هـذا الشقـاء الذى خالط دمى على الأيام •• اطعم هنيئا ، فأنت يا ولدى لا ذنب لك •

واقتحم سليمان الغـرفة على زوجتـه . فألقت فضلة ثوبها على صدرها ، ومال سليمان على جبين زوجتـه . فطبع عليـه قبلة ليس فيها الا ضم شفتين وانفراجهما عن صوت مرتفع مزعج وقال لهـا « كيف أنت يا سهير » ولم تزد سهير على أن تقـول « الحمد لله » وحين حاول أن يجـذب للحديث أطرافا لم تمكنه سهير ممـا يريد . فقد كانت فى غمرة من هـذه المشاعر التى زحمت نفسها ، ولم يدرك سليمان شيئا مما يخالجها ، فما كان يدرك شيئا فى نفسها ، واطمأن باله الى أنهـا متعبة لا تطيـق الحديث ، وخرج فرحا من الغرفة ، تشيعه نظرات سهير الحسيرة ، وقـد أزداد جسمه امتلاء ، فأصبح سمينا ضخما ، لا يذكرك ان رأيته الا بالعجل قواما وتفكيرا •

* * *

وبعـــد أيام قليلة من ميلاد أحمد عبرت باب القصر فى خطــوات وانيـــة محبوبة زوجة عبـــد البديع ، تحمل على كتفها ابنهـــا السيد وتمسك فى يدها سلة كبيرة ، يغطيها البرسيم ، ويســـير من خلفهـــا زوجها عبـــد البديع ، يحمل هـــو الآخر سلة كبيرة مغطاة بالقماش خيطت أطرافه الى حـــوافى السلة • ان الأسرة قـــد جاءت الى قصر الباشا تقـــدم تهنئتها الى السيدة سهير وتحمل معهـــا الهدايا التى ينتجها الريف الكريم ، وقد كان هذا المجىء يحمل فى طيـــاته شكرا عميقا من هـــذه الأسره الى السيدة سهير فهى التى مـــدت حمايتها على عبد البديع فأبقيت عليه فى وظيفته حين حاول سليمان أن يطيح به مدعيا أنه لص ، عاجزا فى الوقت ذاته عن أن يثبت عليه شيئا من انحراف الضمير •

وقـــد أحست محبوبة بالرهبـــة وهى تستقبل القصر ، ولكن يـــد زوجها من ورائهـــا ألقت الى نفسها الطمأنينة ، فخطت باسم اللـــه وبستره الى الرحبـــة الواسعة ، وسعت بـــين مغـــانى الحديقة الى القصر الـــكبير •

ولـــكن سيد أبى أن يجعل السيد يطمئن بهـــم ، فهـــو ينشق عن صراخ عال وعويل مزعج ، جاهدت أمه فى كتمانه ، ولكن بلا جدوى فقد أبى حتى ثدى أمه الذى أخرجته لتسكته به •

وبلغ العـــويل مسامع السيدات ، فسألن وجاءهن النبأ عن زيارة عبد البـــديع ، فمست هـــذه الزيارة نفس سهير بنسمة طيبة أحست فى عبيرها وفاء وحبا ، وان يكن صراخ الطفل قد أزعجها •

وقبـــل أن يختفى عبد البديع وأسرته الصاخبة فى الباب الداخلى

سمع ضجة سيارة تقف عند باب القصر ، فالتفت وعرف فيها سيارة سميحة هانم ، فقال لزوجته :

ـ أسكتى السيد ، واذهبى لتسلمى على الست سميحة تهنئيها بوليد أختها .

ثم انتقل عبد البديع الى داخل المنزل ، ولم يطع السيد أوامر أبيه ، ولم يجد فى اسكاته جهد أمه ، ولكن هذا لم يمنعها أن تتقدم من سميحة هانم التى كانت تسير وئيدة الخطى يمنعها عن الاسراع أنها تحمل هى الأخرى وليدا غائبا فى ظلمات أحشائها . وقالت محبوبة :

ـ الحمد لله على سلامة الست سهير يا ستى سميحة هانم .

ـ الله يسلمك يا محبوبة .. أهذا ابنك ؟

ـ نعم يا ستى . العقبى لك .. نفرح بالمحروس ، وتقومين بالسلامة مجبورة الخاطر ان شاء الله .

ـ لا ، فى هذه المرة أريد بنتا يا محبوبة .

ـ بنت يا ستى ! لا قدر الله .

ـ ولماذا يا محبوبة ؟ .. أنا عندى حسام .. ألا يكفى ولد واحدا ؟

ـ لا يكفى أبدا يا ستى .. ولد يا ستى ان شاء الله وند .

ـ يا شيخة اسكتى ، فانى أخشى أن يسمع الله دعائك .. بنت يا رب .. بنت .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمرك يا ستى ، بنت يا رب .. نولها ما تريد يا رب ، واجبر خاطرها .

ـ ألم ترى سهير بعـــد ؟

ـ لا والله يا ستى ، كنت داخلة ورأيتك فجئت أسلم عليك .

ـ تعالى نصعد معـــا .

..

وصعد ثلاثتهم ، وسيد لا يكف عن صراخه الا بمقـــدار ما يلقف فى حلقومه بضـــع شهقات من الهـــواء ، ما يلبث أن يخرجها عاليـــة الضجيج ، تنقض على الهـــدوء الـــذى كان يســـود القصر فتمزقه تمزيقـــا .

(١١)

كانت الكلمات لا تــكاد تستقيم على شفتى أحمــد ، حــين دخل الى حجرة يجلس فيها أبوه الى أمه وقال :

ــ بابا •• هت لى شكولاتة •

ــ ولمــاذا •• أليس عنــدك شيكولاتة ؟

ــ عنــدى ، ولكن هات لى أنت •

ــ ولمــاذا أنا ؟

ــ لأن نينه تحب أختى هنــاء ، وأنا لا أحب نينه •

ــ ومن أدراك أنهــا تحب هنــاء ؟

ــ كــل يوم •• كــل ساعة أراها تحتضنها وتجعلهــا تبوسهــا فى صــدرها •• بوسة طويلة •• طويلة •• وتقول انها ترضعها ، وأنا لا أبوسها الا بوسة قصيرة فقط ، وبعــد ذلك تتركنى لتجعل هنــاء تبوسها ••

وكانت الأم غارقة فى الضحك ، بينما أكمــل الأب نقاشــه مــع ولده :

ــ طيب وما شأن هــذا بالشيكولاتة ؟

ــ الشيــكولاتة التى عنــدى من عنــد نينــه •• هات لى أنت شيكولاتة •

ــ ومن أدراك أنها من عنــد نينــة ؟

ـ كل ما عنـــدى من عند نينة •• هات لى أنت شيكولاتة •

ـ طيب يا سى أحمد •• أمرك •

ويخرج الطفل مطمئنا الى وعـــد أبيه ؛ فقد كان طفلا ، ولم يكن قـــد عرف أباه بعـــد •

وكانت الأم لا تــزال فى ضحــكها من حــديث ولدها حــين قال سليمان :

ـ ألا يجب علينا أن نذهب اليوم الى وصفى لنهنئه ؟

وفجأة تجمــد الضــحك على شفتيها ؛ فقــد كان اســم وصفى لا يزال ذا رنين فى نفسها •• واستطرد سليمان :

ـ يجب أن نذهب لتهنئته •

ـ ولمــاذا ؟

ـ لأنه ابن عمنــا •

ـ انه ابن عمنا منــذ ميلادنا ؛ ولم نفــكر فى زيارته أو تهنئتــه قبل اليوم • فما الذى جعلك تذكر هــذا الآن ؟

ـ كنت مخطئا ، وأريد أن أصحح خطئى •

ـ سليمان •• قل الحقيقة •• انك تريد منــه شيئا •

ـ لا واللــه •• ولكن ••

ـ ولــكن ماذا •• انه رزق بجعفــر ولم تهنئــه ، بــل انك حتى لم تشكره على الهديتين اللتين أحضرهما عنــد مولدى أحمد وهناء ، واليــوم تريد أن تهنئه لأنه أصبح سكرتيرا لمجلس النواب ، ولا أرى المنصب كبــيرا عليــه ، فهــو عضــو نواب من سنوات ، وشخصية ظاهرة فى الحزب ، وليس غريبا أن يكون فى هــذا المنصب •

ـ ولكنه فاز بثقة اخوانه ، ويجب أن نهنئه بذلك •

ـ قل لى يا سليمان •• ألم تحصل على الدرجة بعـد ؟

ـ وما شأن هـذا بالموضوع ؟

ـ ان هـذا هو الموضوع •

ـ وبعد معك يا سهير •• أما تريدين أن تساعدينى فى شىء ؟

ـ واللـه أنا كرامتى لا تسمح لى بأن أزور ابن عمى متظاهـرة بالتهنئة ، بينما أنا أريد منـه شيئا آخر ؟

ـ يا ستى ما لكرامتك وهـذا ؟ !

ـ ان الكرامة هى هـذا •

ثم تنهدت سهير ، وكأنما أفاقت الى أنهـا تحدث شخصا لا شأن له بموضوع الحديث ، فقالت :

ـ وعلى كل حال أنت تعرف أننى لا أقابله •

ـ نعم أعـرف ، ولو أنى غـير موافق على هـذا الحجاب • على كل حال اصعدى أنت الى زوجته ، وأقابله أنا •

ـ يا أخى ، أتريـدنى واسطة إلى زوجتـه •• لا يا سـيدى •• اذهب أنت وهنئه ، ولن أذهب أنا الى زوجته •

ـ ولمـاذا ؟ •• انك لا تزورينها أبدا •

ـ انها ست غريبة عن العائلة ، وزيارتى لهـا لا تـكون الا ردا على زيارتها هى •

ـ لقـد زارتك عندما ولدت هناء ، ولم تردى الزيارة •

ـ لم تأت المناسـبة ، ولو زرت كـل اللواتى زرننى فى الولادة لمـا انتهيت •

— ها هى ذى المناسبة •• اذهبى اليها وهنئيها ••
— سليمان •
— نعـم •
— لن أذهب •
— أمرك •

وخـرج سليمان غـير غاضب وان كان آسـفا ، فقـد كان يأمل أن تتوطد الصلة بين عائلتـه وعائلة وصفى ، فهـو يطمع أن يكون وصفى سـندا له فى وظيفته ، فقـد رأى وصفى واسـع النفوذ ، مسموع الكلمة عنـد الوزراء وعند وزيره هو بالذات ، ذلك الوزير الذى لـم يجرؤ هـو يوما على طلب مقابلته ؛ ذلك الوزير صـديق لوصفى ، والعجيب أن الوزير هـو الذى يسعى الى توطيـد هـذه الصـداقة وتثبيت دعائمها ، يريد من وصفى أن يكون عـونا له فى الحزب وفى المجلس •• ومـع ذلك تأبى سهير أن تذهب لوصفى •• أو لزوجة وصفى •• هو غـير غاضب لأن الغضب لم يكن فى طبيعته فان الغضب صديق للكرامة والعياذ بالله ، وهو رجل ألف ألا يغضب كما ألف البعد عن الـكرامة •• هو غـير غاضب ، ولكنه آسف •• آسف كما تعـود أن يأسف دائما حـين تأمره سهير فيأتمر ، وهل كان له الا أن يأتمر ، انهـا الزاد والمأوى ، وانهـا المـال والقصر والضياع ، حين هو لا شئ •• لا شئ الا أن يتلقى أوامرها فيطيع ، والا أن تريد هى فييسير ، غـير غاضب أن أستقبل أمرا لا يريده ، ولكنه يأسف •• يأسف وينفذ • وهل كان بيده الا التنفيذ •

ولـكنه اليـوم يريد أن يصل ما بينـه وبين وصفى ، وان يكن قـد أهمل فى شـكره على هـداياه ، وان يكن قـد تأخر فى تهنئته

بمولوده الأول ، الا أنه اليوم سيمحو هـذا التقصير الذى كانت له أسبابه ودواعيه ، فهـو ان كان قد ذهب للتهنئة بميلاد جعفر كان لا بد له أن يحمل معـه هدية ؛ ان لم تـكن مماثلة لهـدية وصفى ، فهى على كل حال ستحمله مالا وهـو يحب أن يبـذل مالا • وهـو أيضا كان لا يريد أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، بعـد ما كان يشاع من أن وصفى سيخطب سهير • وهـو أيضا لا يحب أن يجتمع ووصفى فى مجلس ؛ فوصفى رجـل من رجالات الدولة ، فى حـين لم يستطع هـو أن يصبح رجلا من رجال البيت ، وهـو لا يحب أن تجرى المقـارنة بينهما ، وخصوصا اذا جرت هـذه المقارنة فى ذهن سهير • ثم هـو أيضا لا يحب وصفى هـذا الذى يتسلق الى المجد فى كبر وخيـلاء ، بينما لا يستطيع هـو أن يتسلق درجة •• درجة واحـدة فى سلك الوظيفة ؛ ولو أن الأمور جرت فى سبيلها السوى ، لكان هو الأجدر بالرفعة . فوصفى لا يملك الا لسانا وقلما ؛ أما هو فمهنـدس درس فى جامعات أوربا ؛ وهـو رجل عملى ؛ ما الـكلام عنده الا شقشقة عاجز ، وتهويم من لا يستطيع عملا •

ولو أن وصفى ارتفع بجهده وحده ، لقبل ارتفاعه هـذا ، ولكنه ارتفع بغناه الذى خلفـه له أبوه ، وبجاه أبيـه أيضا الذى خلفه له فى الناحيـة ، فأصبح به عضـوا بمجلس النواب ، أما هو فلم يترك له أبوه الا أوشالا من المـال ، استطاع بهـا أن يذهب الى أوربا ، وأن يصبح مهندسا •

لهـذا جميعـه ، كان سليمان حريصـا على ألا يوطد صداقتـه بوصفى ، ولكنه اليوم حريص على هـذه الصلة ، فهو اليـوم فجأة ابن عم وصفى ، وصديقه الأوفى ، وليس لهذه الأسباب مكان •

فهو لا يحتاج الى اهدائه شيئا ، لأنه ليس من المألوف أن يتهادى القوم فى التهنئات بالمناصب ، وهذا فى ذاته أقوى سبب كان يقف به عن التهنئة فى ميلاد جعفر •

وهو اليوم لا يرى بأسا أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، فقد مر على الشائعات التى كانت تربطه بسهير زمن بعيد ، والزمن قادر على ابتلاع الشائعات ومحوها من أذهان الناس ، وهو اليوم أيضا لا يرى بأسا أن تجرى سهير المقارنة بينه وبين وصفى ، فقد أصبح لها منه ولد وبنت تحبهما الحب كله ، فما تملك الا أن تظل الى جانبهما ، وهو أيضا مطمئن الى أن زوجته لا تكن له الاحترام ، لأنها من ذلك النوع الساذج الذى يقدر الكرامة ولا يقدر الحياة ، ويهيم فى الخيال ، ولا يفكر فى الواقع ، حتى انها تأبى عليه الا أن يؤدى حق سميحة فى أرضها كاملا اليها ، وان امرأة تبلغ بها السذاجة الحد الذى تأبى عنده أن تأكل أموال أختها خليقة بألا يقيم لرأيها وزنا • أما أن يتسلق وصفى الى أعناق المجد ، فالواقع الذى لم يكن يفكر فيه من قبل أن وصفى كان يجاهد الانجليز ويهاجمهم بمقالات مشتعلة ، حتى لقد قبضوا عليه مرات ، وسجنوه ، وسليمان لا يرى بأسا أن يصيب هذا المتهور المجنون الذى يرمى بنفسه الى التهلكة مجدا ، ما دام لم يصب التهلكة ، ثم ان هذا المجد الذى بلغه وصفى مجد للعائلة كلها ، وما دام هو — سليمان شكرى — أحد أفراد هذه العائلة ، فمن حقه أن يحظى بنصيبه فيما أصابه ابن عمه •• ومن ثم فهو يستحق الدرجة •

هــكذا كان يفكر سليمان حين وجــد نفسه واقفــا الى باب ابن عمه وصفى ، وقبــل أن ينزل من السيارة سأل البواب عن وصفى ، فحين علم أنه بالمنزل ترجل وهــو يطلب الى البــواب أن يبلغ سيده بمجيئه •

كان وصفى اذ ذاك جالسا الى زوجتــه وابنــه جعفر ، وقــد راح يداعبــه فى حنــان ، والطفل يبتسم لأبيــه ، ويحرك لسانه بكلمات لم تكتمل ، فيستقبلها الأب بفــرح ونشوة ، ولــكن هند لم تشارك زوجها فيما هو فيــه من غبطة ، فهو يسألها :

ــ مالك يا هنــد ؟

ــ واللــه يا وصفى مشغولة بأمى •

ــ مالها ، لا قــدر اللــه ؟

ــ منذ مات أبى وصحتها تزداد سوءا فى كل يوم •

ــ يا ستى ، طالمــا رجوناها أن تترك العــزبة وتأتى هنــا ليراها الأطبــاء •

ــ وماذا نعمــل ، انها ترفض أن تترك العــزبة وترى فى بقائهــا هنــاك ما يسليها ، ولكنها لا تسلو •

ــ وهل سمعت شيئا جــيدا ؟

ــ كلمتها اليوم فى التليفون ، فلم يعجبنى صوتها •

ــ يا ستى لعلك واهمــة •• وعلى كل حال اطلبيهــا ثانيــة الليلة أو غــدا •• واذا شئت سافرى اليها •

ــ وكيف أسافر ؟

ــ ولم لا ؟

ـ وجعفـر ؟

ـ خذيه معك إذا اقتضى الأمر ••

ـ الولد صحته لا تحتمل السفر •• على كل حال سأكلمها ثانية •,

ـ لا تشغلى نفسك بلا سبب •• لعلهـا كانت نائمـة وأيقظتهـا بالتليفون ••

ودخلت الخـادم تنبىء وصفى أن سليمان فى انتظاره ، فتعجب بعض الشىء ، ثم قام للخادم :

ـ سأنزل اليـه •

وانصرفت الخادم . وعاد وصفى الى مداعبـة ولـده ، وطمأنة زوجه ، ثم قام الى سليمان •

وبينما هو فى طريقـه الى الدور الأسفل ، لقيتـه أم وديدة على السلم . فقال لهـا فى لهفـة :

ـ هيـه •

فهزت أم وديدة رأسهـا نفيـا ، فلم يزد ، ونزل الى سليمان •

لقى سليمان وصـفى بترحاب كبـير ، فأدرك وصفى أنه يريـد منـه أمـرا ، ولـكن أخفى ادراكه هـذا ، وراح يجيب الترحاب بترحاب •

ـ واللـه يا وصفى أنت لا تعـرف كم فرحت بانتخابك سكرتيرا للمجلس •

ـ يا أخى المسألة لا تستحق فرحا •

ـ كيف •• ثقـة زملائك بك ، وبلوغك الى هـذا المنصب ، وأنت فى سنك هـذه لا تستحق فرحا •

ــ لا تكبر المسألة يا سى سليمان . المهم عندنا أن تستطيع الحكومة عمل شيء مع الانجليز . أما أن أكون سكرتير المجلس أو لا أكون ، فوحياتك ما اهتممت بهذا ؛ ولقد اعتذرت وبالغت فى الاعتذار ، ولكن اخوانى ألحوا فقبلت .. على كل حال أشكرك على زيارتك .. كأنما كان لا بد لك أن تجد سببا لتزورونى .. أين أنت يا أخى ، ولماذا تختفى هكذا عنا ؟

ــ والله الوظيفة يا وصفى تبتلع وقتى كله .

ــ وكيف رضاك عن الوظيفة ؟

ــ وهل رأيت صاحب حق ينال حقه فى هذا البلد ؟

ــ لماذا كفى الله الشر ؟

ــ يا سيدى الوزارة تأبى ألا أن تساوينى بزملائى الذين عينوا معى .

ــ وما البأس فى ذلك ؟

ــ ما البأس ؟ ! يا أخى أنا سافرت لأوربا ، ونلت شهادات من أعظم الجامعات هناك .

ــ آه .. من هذه الناحية أظن أنك محق .

ــ بالله يا وصفى ــ ان كنت لا ترى بأسا ــ كلم الوزير ، فهو صديقك ، وما أظن أنه سيخيب لك رجاء .

ــ أكلمه بكل سرور .

ــ أشكرك .. ومتى تتناول الغذاء عندى .

ــ وما المناسبة ؟

ــ المناسبة ؟ ! وهل لا بد من مناسبة ؟

ـ لا .. أبدا .. فى أى وقت .. ؟

ـ بعد غـد .

ـ وهو كذلك .. نقبل هـذه الرشـوة يا سى سليمان من أجـل خاطرك .

ـ يا أخى العفـو .. يا ليتـك كنت ممن يرشـون ، اذن لأرحت قـوما كثـيرين .

ـ نعم .. وتعبت أنا .

ـ أبدا وحياتك ، الرشـوة تتعب فى المـرة الأولى تعبـا بسيطا ، ما تلبث الرشـوة الثانيـة أن تمحـوه ، أما الرشـوة الثالثة ، فهى الراحة والهنـاء والمـال والسعادة .

ـ اللـه .. اللـه يا سى سليمان ، تتكلم كأنك خبير !

ـ خبير بماذا ؟ .. وظيفتى ليس فيها ما أرتشى عليه .

ـ فاذا كانت ؟

ـ فيهـا نظر .

ـ احـذر يا سليمان .. الرشوة كالقتيل ، تختفى يوما أو بعض يوم ، ثم ما تلبث الرائحة النتنة أن تفـوح منها .

ـ يا عم صل على النبى .

ـ عليه الصلاة والسلام .. ولكن هـذا هو الحق .

ـ المرتشون يملأون المناصب الكبيرة .

ـ ولكن لا يحترمهم أحـد .

– بل ويحترمهم الجميع وحياتك •

– لأنهم يرجون منهم خيرا . فهم يظهرون لهم الاحترام ، ولكن لا يكنون لهم الا الاحتقار •

– وماذا يعرف الناس عن ضمائر الناس •• المهم ما ظهر ، وأما ما خفى فالله به عليم •

– الاحترام •• أعظم الاحترام •• أن يحترم الانسان نفسه ، ويعلم أن الناس يحترمونه فى دخيلة نفوسهم ، كما يحترمونه فى ظاهرأمرهم • ولا تصدق أن انسانا يكبر وسمعته ملوثة •• ولا تصدق أن انسانا يكبر بغير احترام •

– نعم •• نعم •• أعرف مثلك العليا •

– هذه ليست مثلا عليا •• انها المستوى الطبيعى للأخلاق وما أقل منها سفالة •• المثل العليا سمو عن طبيعة الأخلاق •• ليست الأمانة مثلا أعلى : وانما هى طبيعة • انتشار الفساد جعل هذه المعانى العادية مثلا عليا •• لا تعتقد أنك حين تكون أمينا تستحق المديح ، فهذا هو المفروض •

– فما المثل العليا اذن ؟

– أن أترفع بالمستوى العادى للأخلاق •• أن أعطى كل ما معى لفقير مثلا ، وأظل بلا مال ، أن أضحى بحياتى فى سبيل الصالح العام •

– هذا تهور •

– بل هذه هى المثل العليا •• لا عليك ان لم تبلغ اليها ، ولكن عليك ألا تسفل •

– يا أخى أنت لا تعرف شيئا عن الدنيا •

— لكل دنياه يا سى سليمان •• تلك هى الدنيا التى أعرفها •• النهاية ، لقد جعلتنى ألقى خطبة طويلة وأنت لا تحب الكلام ، أنت رجل مهندس تضع القالب على القالب فتبنى بيتا •

— أما تزال تذكر •• يا أخى •• يا أخى ارحم الناس من لسانك • النهاية • لا تنس الغداء عندى بعد غد •

— وهو كذلك •

واستأذن سليمان وانصرف ، وفى الطريق راح يفكر فى هذا النجاح الذى أصابه من زيارته تلك ، فهو قد ضمن أن وصفى سيكلم الوزير بشأنه فى غد ، لأنه من غير المعقول أن يأتى للغداء عنده دون أن ينبئه بما تم عند الوزير ، وقد قصد سليمان أن يكون الغداء بعد غد ، حتى يترك له الغد ليلقى فيه الوزير ، وسليمان يعلم أن مثل هذا لا يخفى على ذكاء وصفى ، وسليمان مسرور بنجاحه هذا أيضا ، لأنه لن يخسر فى هذه الدعوة شيئا ، فزوجه هى التى ستقوم باعداد الغداء •• وسليمان مسرور أيضا ، لأن هذه الدعوة ستوطد الصداقة بينه وبين وصفى ، وهى صداقة يرى أنه أصبح محتاجا لها دائما • نجاح باهر اذن الذى أصابه فى زيارته تلك • وهو مصمم على تمكين هذا الانتصار والمحافظة عليه • وبلغ سليمان القصر ، فوجد زوجه كما تركها ، لم يزد عليها الا ابنتها هناء ، وقد تركت لها صدرها تقبلها فيه هذه القبلة الطويلة التى تثير الغيرة فى نفس أحمد •

— يا ستى ، وصفى سيتناول الغداء عندنا بعد غد •

ونظرت اليه سهير نظرة طويلة لم يرها هو ، ولو كان رآها لما فهم منها شيئا •• وكيف له أن يفهم • انه لا يفكر فى شىء الا أن

يبلغ من نجاحه اقصاه . والا ان يمكن هـذا النجاح فيستقر به العلم ، وترسخ أقدامه فى أعماق مستقبله • لا شىء الا هـذا . وهل الحياة الا هـذا •• ينظر الى سهير ويقول :

ــ سهـير ••

فتجيبه سهير بعض مفيقة :

ــ نعـم •

ــ ما المـانع أن تقابلى وصفى ؟

وأفاقت سهير الى زوجها افاقة تامة :

ــ ماذا ؟

ــ وما المـانع ؟ انه ابن عمك •

وقالت سهير فى لهجة من لم يسمع ، وفى غير استنكار :

ــ ماذا ؟

ــ أقول انه ابن عمك •• وأنا رجل درست فى أوربا ، ولا أوافـق مطلقا على هـذه الرجعية •

ــ ولكن رأيك هـذا لم تبده الا اليوم •

ــ نعم لأنه سيتغدى معنـا ، ولا أرى معنى أن يأتى ابن عمـك الى هنـا ، وتقفلى أنت البـاب فى حجرتك ، وأظل أنا وابن عمـك وحـدنا •

ــ لا أرى فى ذلك بأسا ، الا إذا كنت ترى فى مقـابلتى له فائدة •

ــ الحقيقة نعم ، أرى فى ذلك فائدة •• فأنا لا أجيـد الكلام ••
ولن تمر دقيقتان حتى أجد نفسى عاجزا عن الحديث معـه •

ــ من هـذه الناحية •• اطمئن ، فهو الذى سيتكلم ••

ثم استدركت قائلة :

ــ فانهم يقولون انه كثـير الكلام •

وأصـــابت نفسها غصـــة أن أضطرت الى مهاجمـــة وصفى لتعمى على زوجهـــا فقالت :

ـــ ويقولون ان حديثه جميل •

ـــ نعم ولـــكن بماذا أجيب حديثه •• انه يتكلم فى أمور لا أفهمها ولعلك أنت أن تفهميها •• فانك منـــذ تزوجنـــا وأنت لا تـــكفين عن القراءة •• أنت تقرئين الجرائد ، وهـــو يكتب فيهـــا ، وأنت تقرئين كتب الأدب • هو يهـــوى الأدب ، ولن يخرج حـــديثه عن سياســـة وأدب •• وأما أنا فلا أحب السياسة ولا الأدب •

ـــ وماذا يقول الناس يا سليمان ؟

ـــ الناس •• وهل تنتهى أقوال الناس •• الناس عنـــدك هم أنا • وما دامت أنا موافقا فلا شأن لك بالناس •

ـــ أخشى أن يقولوا انك جعلتنى أقابله ، لأنك تريد الدرجة •

ـــ بل جعلتك تقابلينه ، لأنه ابن عمك ، وأنا لا أوافق على الحجاب •

ـــ ولـــكن تعلم أنه هـــو رجعى ، ولن يسمح لزوجتـــه بمقابلتك •

ـــ لـــكل رأيه يا ستى ، هـــو من أنصار الحجاب ، وأنا من أنصار السفور •

ـــ هـــذا رأيك ، ولـــكنك تنسى العائلة وكثرة كلامها ، وتنسى أن رأيك هـــذا لم يظهر الا مع ظهور رغبتك فى الدرجة •

ـــ سهير •• الحقيقة أننى لا أريـــد لك هـــذا الحجاب اطلاقا •• ولن تقتصر مقابلتك على وصفى وحـــده ، بل اننى أحب أن تقـــابلى الجميع •• اننى رجـــل متعلم فى أوربا ، ولا أحب هـــذه الهمجية • لا يا ستى انك ستقابلين الجميع •• الجميع !

وارتفـــع صـــوت سليمان كأنه رجـــل ، وأحبت سهير أن يظهـــر سليمان حماسته فى هـــذا الأمر بالذات ، فقـــد كانت تريد أن تقابل وصفى ، بل انها كانت تتوق الى هـــذا اللقاء ، ولكنها تريد أن تدفع اليه دفعا عنيفا يهيىء لها أن تقول لنفسها انها لا قبل لها بالنكوص ، كانت تريد أن تعتذر لكبريائها عن هـــذا اللقاء ، وها هو ذا زوجهـــا يدفعها ، وانه زوجها ، فماذا يمكن أن تقول له •• انها ستلقى وصفى وأمرها الى اللـــه ••

وصمت سهـــير ، وأدرك زوجهـــا أن صمتهـــا موافقـــة ، وارتاح خاطره ، وهـــدأ الى مستقبل زاهـــر تلوح له بشائره ، فهو يعلم أن وصفى اذا لقى سهـــير سيطيب له أن يـــكثر من الزيارة ، وهـــو يعلم أن زوجته شريفة ، ويعلم أن وصفى أمين الضمير ، فهـــو لا يخشى من اللقاء مغبة ، ولو كان يخشى ما أصر على هـــذا اللقـــاء ، ولكنه يعلم أن سهـــير تحب الأدب والسياسة ، وتستطيـــع أن تـــكون طـــرفا فى الحديث يلقيـــه وصفى ، ويعلم أنه بهذا يحبب بيته الى وصفى ، وهو يأمل أن يحب وصفى بيته ••

وقامت سهير الى حجرتها ذاهلة النظرة ، شـــاردة الفكر ، أحقـــا ستلقى وصفى •• وصفى •• هـــذا الخائن الذى ألقى بها الى أعماق هـــذه الحياة التى تحياها وتصلاها ، ويلتهب سعيرها فى كـــل أيامها ، وصفى •• ستلقاه •• انها ستنتقم •• ستنتقم •• ولكن ما الذى يكفى لانتقامها •• أتقتله •• وصرخت نفسهـــا •• لا •• ثـــم سخرت منها نفسها •• وهل أستطيع •• إذن •• اذن ماذا ؟ •• ماذا ماذا ؟ •• كيف أنتقم •• أتجاهله •• وكيف أستطيع ؟ سيكون ثانى اثنين : أحـــدهما أبكم فكيف أستطيع أن أتجاهله ؟ وماذا ســـيقول زوجى ، انه ليس

غبيـــا . ألا يجوز أن يدرك من تجاهلى ما كان بينى وبـــين وصفى ؟ ربمـــا ظن اننى أتجاهل وصفى ؛ لأننى غاضـــبة لزواجه من غيرى .. اذن .. إذن لا سبيل لى الا أن أترك نفسى على سجيتها .. سجيتها .. سجية نفسى .. أأخادع نفسى ، اننى لو تركتها على سجيتها لظهـــر ما تخفيه من .. من حب .. حب عميق ، زاده عمقا هـــذا الألم الذى أقاسيه فى ظلال رجل قاتم ، مظلم ، أصم الفؤاد .. على سجيتها .. ويلى من نفسى .. ويلى من حبى .. أبدا لن تكون نفسى على سجيتها فى هـــذا اللقـــاء .. أبدا لن تكون ، وكيف لها أن تكون ، وأنا مـــع اثنين ، أحدهما أضـــاع آمال شبابى وحياتى ، وأضاع الآخر شبابى وحياتى جميعا ، وكيف لهـــا أن تـــكون . وأنا أجلس الى اثنـــين ، أحـــدهما ألقى بى الى السعير ، والآخر هـــو الســـعير ذاته ، أألقى وصفى .. سألقاه ، فما هذا الليل الطويل الذى يفصلنى عن لقائه ، بل هناك نهار آخر وليل آخر ثم القاه ، لمـــاذا لا يستمر هـــذا الليل ليلا أنامه ، فلا أصحو الا على لقـــائه ، أو لمـــاذا لا يظل النهار نهارا ألهو فيـــه عن شوقى بأطفالى حتى ألقاه .. لمـــاذا ؟ .. لمـــاذا ؟ انها الحياة .. لذتها أن تسير هى طريقها المرسوم ، بسرعتها المرموقة ، بليل يخلف نهارا ، ونهارا يخلف ليلا ، ونتمنى نحن وننتظر ، نتحرق شوقا وننال ونمنح ونمنع .. وتظل الحياة سائرة ، لا شأن لهـــا بما نريد أو ما نأمل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٢)

تسير الأمور فى الطريق الذى أراده لها سليمان ، فقد جاء وصفى فى موعد الغداء ، وقصد الى حجرة الجلوس التى يعرف الطريق اليها تمام المعرفة ، وبعد هنيهة فتح الباب وفى انفراجته رأى وصفى •• من ؟ ! سهير ؟ ! سهير •• ومن ورائها سليمان •• ماذا فعلت بى يا سليمان •• حملق وصفى دهشا . حتى كاد لدهشته ألا يستطيع قياما عن كرسيه !

وأقبلت سهير جامدة الوجه لا تبين نأماتها عن خلجة تشف عما يصطرع بنفسها من حب ، وغيظ ، وشوق . واقبال ، واحجام ، وتساؤل ، واستسلام ، وتقدم سليمان فى بلاهة ومحاولة مقيتة للتظرف :

— أقدم اليك ابنة عمك التى لم ترها طول حياتك •

وجمع وصفى على شفتيه « أهلا وسهلا » مترددة حائرة ، لا تكاد تبين ، وجلس ثلاثتهم ، وسليمان أثبتهم جأشا ، وأروحهم نفسا ، لا يدرى ما يمور فى نفسيهما من تيارات ان اختلفت فى مجراها ، فهى مندفعة عن معين واحد ، نابعة من خلجات متشابهة ، وراح سليمان يثرثر بحديث لم يع واحد منهما شيئا منه ، حتى اذا فرغ عقله من أى حديث ، لم يجد شيئا يقوله ، صمت ، فانتبه كلاهما الى الصمت الذى ران عليهم ، وانتفض وصفى متمالكا أمر نفسه فى دربة ، وقال لسليمان :

ـ مبروك يا سليمان •• ذهبت الى الوزير وسيمنحك الدرجـة ، ان لم يكن قـد منحك اياها فعلا •

ـ يا سـيدى متشكر •

ـ وهل بيننا شـكر ؟

ـ سأكلم أحـد أصدقائى فى المستخدمين لعلى أجد عنده خبرا •

وقام سليمان فى فرحـة غامرة وخلت الحجرة بالمحبـين ، وفى عينى سهير تساؤل ، وفى وجـه وصفى حـيرة ، ولم يجد وصفى شيئـا يقـوله الا :

ـ كيف أنت يا سهير ؟

وجاهدت سهير نفسها حتى تقـول :

ـ الحمد للـه يا وصفى •

ثم جذبت شهقة من أعماق نفسها لتقول ثانية :

ـ الحمد للـه •• وأنت كيف حالك ؟

ـ الحمد للـه •

ـ وكيف حال هنـد وجعفر ؟

ـ بخير •• وأولادك ؟

ـ الحمد للـه •

وران الصمت عليهما •• لم تستطع سهير أن تسأل •• لـماذا فعلت ما فعلت ، ولم يستطع هو أن يبيـن •• ضمت كلاهما ، وصفى يعلم ما يدور بنفسها ، وهى لا تعلم الا أنه يدرك ما يدور بنفسها ، ثـم لا تعرف جوابا على هـذا السؤال الذى ظل أعواما يلح عليها فلا تجد له جوابا شافيا •• أو لعلها تعرف الجواب ، ولـكنها أيضا تعـرف أن وصفى لن يستطيع أن يطالعها بهـذا الجواب الذى تعـرفه ••

ماذا تراه قائلا •• أيقــول لهــا انه لم يعجبه منها أن تلتقى به قبل الزواج •• ماذا تراه قائلا •• انها تريد أن تسأله •• تريد أن تبلو لباقته الى درب عليهــا فى ميــادين الأدب والسياسة والمجتمــع •• كيف سيفسر لهــا هــذا الشقاء الذى ألقى بها اليه ••

وفجأ قال وصفى :

ــ سهير أريد أن ألقــاك ••

وذهلت سهير لحظة ثم قالت فى تخابث وعدم مبالاة :

ــ هأنتذا تلقــانى •

ــ وحدنا •• فى مكاننا •• هناك عنــد القارب •• اليوم • الساعة السادسة من مساء اليوم •

وقبل أن تقــول « لا » دخل سليمان فراح وصفى يتكلم . وكأنه يكمل حديثا لم يقطعه دخول سليمان •

ــ بل ان الشاعر الذى يقول :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كــل الظن ألا تلاقيا

أحب الى من الشعراء المتشائمين •• فالأدب عنــدى متعــة •• والتفاؤل أجــدر بالشعراء •

وقال سليمان :

ــ ماذا ؟ ! فتحتم باب الشعر •• لا مكان لى اذن •

وقال وصفى :

ــ هيه ؟ ماذا قالوا لك فى المستخدمين ؟

ــ يا سيدى ألف شكر •• لقــد أمر الوزير بترقيتى •

ونظــرت سهير الى سليمان ، ثم نظرت الى وصفى وكأنما تشهده على ما فعله بهــا ، ثم قامت من الحجرة •

وحين أقبلت سهير لتدعو الضيف وزوجها الى الغـداء ، لم يلحظ سليمان بينما لحظ وصـفى جفـونها المخضلة ووجهها الشـاحب لقد سكبت بعض دمـوع مكنتها من أن تتمالك نفسها وتجلس الى ضيفها الحبيب ، فتجرى الحديث فى بساطة ورقـة ، حببت الجلسة اليه ، تحادثا فى كل شىء .. فى السياسة وفى الدور الذى يلعبه فيها ، ووجدها على علم دقيـق بكل خطواته فى هـذه السنوات التى غابها عنها .. هيـه يا حبى الأول الـكبير . ان زوجتى التى لا تفرقنى يوما لا تعـرف عنى ما تعرفين .. رحمتك فى بلواك فمن يرحمنى فى بلواى .. انى أعيش فى بركة هادئة ، صافية هـذه البركة ، ولكنها راكدة ليس فيها تيار ، ولا هى مشوبة بقـذى ، وهذا الهدوء فيهـا وهـذا الصفاء هـو أتعس ما ألاقيه فى حيـاتى ، ركود يصدر عن الغبـاء ، وصفاء لا يبتعثه الا الجمود . وأشـد ما أعانى فى حياتى أنى لا أجد شيئا أذمه فأشكو وأستريح .. ان زوجتى سـدت على منـافذ الشـكوى بطاعة عمياء ، وأدب بالـغ أقصى المـدى ، فمم أشكو ؟ وماذا أقول .. رحمتك يا سهير فمن يرحمنى .. هى الحياة فى بيتى أقطعها رتيبة النغمة لا تتغير ، ان دخلت بيتى قطعت ما بينى وبين الحياة ، وأصبحت لا شىء الا زوج هند وأبا جعفر ، فلا هنـد تعرف عن شأنى فى الحياة شأنا ، ولا جعفر يفهـم ما أبوه صـانع ان هنـد فى البيت شأنها شأن جعفـر ، كلاهما طفل .. مطيع كلاهما هادىء ، ولـكن طفل .. أما أنت .. أنت فحياة .. أنت التى كنت جـديرة أن تهبى للنصر معناه حـين انتصر فى المعترك ، وأنت التى تشفين جـراح الفشل حـين الفشل .. أنت معنى النصر ، وبلسم الجراح تخلفت عن الصراع ، وحيـاة الحياة التى أحياها ، والنغمة العذبة فى كل معنى يطالعنى ان يكن فرحا ، فأنت النغمة الفرحانة ،

أو حزنا فأنت النغمة الآسية •• وأدركت سهير ما بنفسه •• قرأته فى عينيه •• عينيه الحلوتين . هاتين اللتــين تستطيع فيهما أن تقــرأ ما وراءهما •• فيهما شفافية حبيبة وطالما افتقدت الشفافية فى عينى زوجها فلم تجدها •• طالما نظرت الى عــين سليمان وأنعمت النظر ، فما زادها الانعام الا عجبا •• كيف يرى سليمان بهاتين العينين •• انهما مطفأتان •• لا نور فيهما ولا حياة •• بل ان وجهه جميعا جامد صلب لولا أن صاحبه يسير جيئة وذهوبا ، لمــا عرفت ان كان ميتــا أم حيا •• ويلى •• لماذا يحيا وجه سليمان كما يحيا وجه وصفى •• الحياة كلها هنا فى هــذا الوجه •• انها طالمــا أنعمت النظر فى وجه وصفى وعجبت كيف لهــذه الحياة جميعها أن تموج فى وجه واحــد فقط ، حتى ليخيل اليها انه ليس هناك حياة الا فى هــذا الوجه •• على ثناياه فرحها وغضبها واقبالها وادبارها •• المعــانى كلها هنــا فى هذا الوجه •• لمــاذا أيها الوجه •• لماذا فعلت بى هذا •• ما الذى جنيت ؟ •• لم أجن ــ علم الله ــ الا حبك ، وانه لجناية أنا وحدى من صليت أخلافها وعواقبها •

وتقاربت الساعة الخامسة . وقام وصفى ، ولولا موعــد تهفو له نفسه ما قام ••

انه ذاهب الى موعده لا يدرى ان كان سيلتقى هنــاك مــع نفسه وحدها ، أم أنه سيلتقى أيضا مع هواه القــديم الجديد •• ولــكن بحسبه أن يلتقى مــع نفسه هناك •• بحسبه ذاك ، فهو ذاهب •• أما هى ••

ركب وصفى ســيارته . وأمر سائقه أن يسير دون أن يبــين له عن هدفه ، حتى إذا اقترب من مكان يستطيع منه أن يستأجر قاربا ،

نـــزل وأمر الســـائق أن ينصرف الى البيت ، وذهب الى النيـــل ، واستأجر قاربا وأمر صاحبه أن يسير به فى اتجاه القصر •• انه الحب يعود •• يعود بجميعه حتى بهذه الأفعال الطفلة التى لم يقدم عليها يوما وان يكن قد سمع بهـــا سماعا •• لقد نسى فى غمرة من أمواج حبه من هو •• نسى أنه النائب الخطير الذى يهتز الوزراء من نقده ، ويرجف أعـــداؤه من هجومه ، ونسى أنه أحـــد هاته الرموز القليلة التى يتمثل فيها جهاد شعبه ضد الاحتلال ، نسى هذا جميعه ولم يعد يذكر من أمر نفسه الا هـــذا الخافق الذى عاد اليه الوجيب أعنف ما تـــكون العودة ، فهو فى طريقه الى هواه •• الى ماضيه ، بل انه فى طريقه الى الحاضر •• الحاضر الذى كثـــيرا ما تمنى لو أنه حققه لنفسه •• لقلبه •

حاذى القـــارب قارب عمـــه الراسى هنـــاك ، ونزل الى المرسى وطلب الى صاحب القارب أن يعـــود اليه بعد حين •

جلس وصفى فى مكانه المعهـــود والبيت الذى ألقاه عفو الصدفة يطن فى خاطره فى اصرار عنيف لا يبتغى عنـــه حولا •

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن ألا تلاقيـــا

وفى البيت يدور فى ذهنـــه كنغمة تعودتها الأذن فما تحس بهـــا ، وراح وصفى يفكر فيما كان من الأيام التى تفصل بين هـــذه اللحظة التى هو فيها وبين آخر مرة كان فيها هنا •

وفى القصر جلست سهير وحدها •• أتذهب •• أتلتقى به هناك •• لا •• لن تذهب •• ماذا أفادت من هذا المكان ، ومن هاته اللقاءات التى كانت فيه ، لا شىء الا الحسرة والألم والحزن •• ولـــكن أكان



الحزن نابتا من اللقاء أم من انقطاع اللقاء •• طريق واحدة •• اللقاء أسلم الى عدم اللقاء الى الحزن •• الحزن منتهاه والألم والحسرة •

ما الجديد ؟ أهى المـرة الأولى التى يدعوك فيها الى اللقاء بعـد زواجك •• ليست الأولى ، لقد طالما جاءت اليك أم وديدة بموعد له فرددتها •• نعم انك لم تطرديها ولكنك رفضت موعدها •• لم تمنعيها من دخول البيت . لأنه كان يطيب لك أن تعرفى أنه يفـكر فيك وأنه يريد لقاءك •• ولكنك كنت ترفضين اللقاء •• فلماذا تريدين هـذا اللقـاء اليـوم ؟

ماذا تريدين من الذهاب •• مـكانك •• لا تـذهبى •• مـكانك فكبرياؤك أعظم من هـذا اللقـاء ، وكرامتك أغلى من هذا الحب •• فهو للحب اذن •• نعم وأدريه •• فلأذهب اذن •• انه الحب يدعونى وهو كل شىء •• حب أبتر لا يلاقيك فيه •• حب بلا أمل •• بلا أمل ؟ من يعرف المستقبل ؟ من هـذا الذى يستطيع أن يؤكد أن لا أمل ؟ وأين لى بالأمل •• مكانك •• فقد مرت السنون ، وأخشى أن ينفض القلب أغلفة الأيام ، ويصبو الى هـواه الأول •• ويحك ! ان الأيام لم تغلف قلبك . انه ما زال الى حبـه الأول يرنو عصى الجمحات ، واله الخفق . ملتهب الحنين • مكانك فلن تريدى قلبـك الا جموحا وخفقا وحنينا ، وهل ثمـة زيادة للمستزيد •• مكانك فلا أمل ثمـة الا سراب ، ولا شىء هناك الا ألم •• لا •• لن أذهب •• ونظرت الى السـاعة ، فاذا هى السادسـة والنصف ، فحـزمت أمـرها على ألا تذهب •• ولكنها لم تـر بأسا أن تنزل الى الحديقة وتسـير فى طرقاتها تحـاول ما وسعها الجهد ألا تعـود الى ذلك النقاش مـع نفسها •• وسارت تفكر فى ألاتفكر فى موعدها •• وعصيت الخطى

تفكيرها ، فاذا هى عند السلم ••وإذا هى دون وعى تنفض الحديقة بعينها ؛ ثم تسلم الى السلم أقدامها ••

ــ سهـيـر •

ــ وصفى •

واتمت على المقعـد الحجرى ، وألقت برأسهـا الى راحتيهـا ، وانطلقت فى بكاء ، يعلو نشيجه فى صدرها ، حتى إذا أراد أن ينفجر كتمه حذر وكبر •

وارتمى وصفى إلى جانبها حائرا تسيل الدموع على وجهه فياضة السكب ، صامتا مُلقيا برأسه إلى قبضته ؛ ناظرا إلى الأرض لم يجد غيرها يحتمل نظراته •

وطال بهما الصمت والبكاء لم يفيقا إلا على صـوت يأتيهما من النيـل :

ــ يا بك •

ولم يجب أحدهما ، ولكن الصوت ألح :

ــ يا بك •• القارب يا بك ••

وقام وصفى إلى حافة المرسى ، فوجد القارب وبه صاحبه ، فنفحه مبلغا من المـال ، وطلب إليه أن يعود بعـد حين آخر •• وعاد إلى سهير ، فوجدها ترقأ دمعها وهى تقـول :

ــ لمـاذا ؟ لمـاذا يا وصفى ؟

ــ ماذا تريدين أن أقول !!

ــ لمـاذا ؟

ــ حمق وجهل وطفولة ورعونة •

ــ ولكنك أضعت حياتنا •• ألقيت بى إلى الشقاء والبؤس والألم

والحسرة •• حياتى كلها أضعتها •• لمــاذا لقيتنى ما دمت كنت تنوى آن تفعل بى ما فعلت •

ــ سهير •• إننى أحاسب نفسى حســابا أشــد عسرا ؛ فدعينى وما بى ، ولا تريدنى ألمــا وحسرة •

ــ ماذا تريدنى أن أقول •• ماذا تنتظر منى أن أقول •

ــ سنوات مررن لم نلتق ، ألا تجدين شيئا تقولينه ؟

ــ سنوات مررن •• لا •• لم تحسها أنت •• لقد شغلتك الحياة عن السنوات تمر ؛ أما أنا فقد أمضنى كل يوم من هذه الســنوات ، بل لقد شقيت بكل لحظة فى كل يوم من هــذه السنوات •• حرمت فرحة الزواج ؛ بل شقيت بهذه الفرحة ، وحرمت فرحــة الأمومة ، وأنا أم لطفلين ، كلاهما جميل •• أحبهما ولكنى لم أفرح بمجيئهما •• حرمتكل شىء جميل ، وكل شىء حولى كان حريا أن يكون جميــلا لولاك •• لولاك الذى تجىء اليوم نتقول لى فى ســهولة ويسر حمق ورعونة ، ولتقــول لى سنوات مررن ! ماذا تدرى أنت عن هــذه السنوات ؟

ــ أدرى الكثير ، أدرى الألم كلما خلوت إلى نفسى أو إلى بيتى ، أدرى أننى لم أستطع أهوى زوجتى أو أرى فيها غير زوجة بلا حب جامح عرفته لك ولم أجده لها •• ظننت الحب يأتى هونا مع الأيام ، فاذا المــودة هى التى تأتى لا الحب •• عرفت الليــالى الطويلة ، تصطرع حولى الأحداث ، وأجاهد ما وسعنى الجهد ثم أعدم فى بيتى اليد المؤاســية والعقل الذى يعى جهادى ؛ والأحداث والصراع •• أحسست السنوات بطيئة ، وانية الخطو ثقيلة الليالى •

ــ عرفت الليالى !؟ •• لعلك عرفت ساعة من ليلة أو ســاعتين ،

أما أنا فالأيام والليالى والدقائق واللحظات •• سوداء كلها بلا صراع ولا أمل ولا حيـــاة ولا شيء •• ماذا عرفت أنت ؟

ــ بعض هذا يا سهير •• بعض هذا •• كلانا شقى ببيته •

ــ وماذا تريدنا أن نفعل ؟

ــ أما أنا فبيدى أن أفعل ، فهل تستطيعين أنت ؟

ــ ماذا •• إلى أى هدف ترمى ؟

ــ أنا فى حياة لا أطيق المضى فيها •

ــ وأنا فى حياة لم أطق العيش فيها •

ــ سليمان سهل •

ــ لا •• ليس سهلا •

ــ تعرفين ضعفه •

ــ المـــال والبنون •

ــ والبنـــون ؟ !

ــ إذا كانوا لا يكلفون مالا •

ــ قولى له لا أحبك •

ــ إنه يعرف •

ــ قولى له لا أطيق العيش معك •

ــ أتظننى أستطيع ؟

ــ ألا يستطيع حبك لى وكرهك له ؟

ــ لا أدرى •

ــ اجعلى له من المـــال ما يريد •

ــ يرضى •

ــ إذن •

ــ وأنت ؟

— أطلق زوجتى ••

— إذن •

— فالليلة تخبرين زوجك •

— أدع لى أن أستطيع •

— حبنا أقوى من الخوف ومن الاشفاق •

— أطلبنى غدا فى التليفون •

— فإلى الغــد •

وقامت سهير إلى القصر ، وظل وصفى فى مكانه ينتظر القــارب ، وهو شارد الذهن حيران اللب ، يجمع أمره على أمر ويخشى عواقبه فيمحو عنه الخشية حب جامح وملالة من حياة يقطعها وأمل فى جديد من الحيــاة •

ويصل وصفى إلى منزله ، فيجد البيت خاليا •• ماذا ؟ وكأنمــا خشى أن كون زوجته قد أدركت ماكان من أمره • ثم ما يلبث أن يعرف أن أم زوجته تعــانى أزمة مريرة ، فــلم تجد زوجته بدا من السفر دون اذنه • فقد أدركت من ارساله للسيارة أنه سيطول به الســهر خارج المنزل ، فركبت السيارة ، وسافرت لم تنتظر •

خلا به البيت •• انقطعت الرتابة التى كان يشــكوها •• طابت نفسه بعض الحين بفراغ البيت •• إنه يستطيع أن يفكر •• وهــل يحتــاج إلى تفكير •• لقد اســتقر إلى الرأى •• ولكن •• ولكنى مشوق لجعفر •• بل إننى أريد أن أرى زوجتى •• لمــاذا ؟ أتحبها •• لا أدرى •• لا تدرى ففيم كل هذا ؟ •• ففيم تريد أن تفصــل أما عن أولادها •• لقد جنيت عليها فى أول طريقها إلى الحياة ، فجاءت

بهم . وتريد أن تجنى عليها ثانية بالانفصال عنهم من أجل فـكرة لا تدرى إن كانت قائمة فى نفسك أم غير قائمة .. لا أدرى .. ولكنى أريد أن أرى زوجتى .. أهى لهو هـذه الوشائج التى تقطعهـا ، وهذه الآمال التى تمزقها .. أهى عبث أطفال .. إنها الحيـاة .. إنها آمال قوم ، ومستقبل أطفال سيطالعهم غدا بحديث أم تركتهم من أجل رجل آخر ، ومستقبل طفل هو طفلك سيلقاه الزمان وهـو مجـرد من حنان الأبوة الذى نعمت أنت به والذى صرت بفضـله إلى ما صرت . ألا تدرى .. ألا تدرى ؟

ومد وصفى يده إلى التليفون ، وأدار القرص ، دورة واحـدة ، وطلب من الترنك أن يصله بعزبة زوجته .

(١٣)

دلفت سهير إلى القصر فوجدت القصر مائجا ، فالخادمات رائحات غاديات فى شغل عنها شاغل ، فمنهن من تحمل زجاجة وتهرول بها ، وأخرى منهن تقف إلى جانب التليفون فى ذعر لا تكف يد لها عن إدارة القرص ، بينما انهمكت اليد الأخرى فى وضع السماعة ورفعها فى حركة آلية ليس فيها من فهم أو عقل •• ووقفت سهير فى البهو حائرة تلاحق كل سائرة ، أو مشغولة بعينيها ذاهلة النظرة ، مفتوحة الفم ، لا تملك أن تضم شفتيها لتكون سؤالا واحدا يشرح لها الجواب عليه هذا الذعر الذى يسود القصر •

واستطاعت إحدى الخدم أخيرا أن تجمع شتات نفسها وتراها وكأنما انتشلت الخادمة من وهدة عميقة الحيرة :

— ستى •
— خير يا نبوية !
— سيدى أحمد يا ستى •

ولم تزد الفتاة ، وما كانت بحاجة إلى زيادة ، فقد اندفعت سهير فى ثورة مجنونة إلى حجرة ولدها :

— ابنى •• ابنى •

ووجدت ولدها شاحب الوجه ملقى لا حراك به على الفراش ، وقد تفتحت عيناه لا تريان شيئا ، يجتذب أنفاسه وكأنما ينازعه

عليها خصم عنيف قوى الأسر . فما يكاد صدره يخرج إلا حشرجة مجهودة متقطعة غير مكتملة . وارتمت أمه بجانبه :

ــ أحمد .. مالك يا أحمد ؟

ولو كان أحمد يستطيع نطقا لما كان هذا الذعر الذى انقض على القصر . وقالت الأم :

ــ دكتور .. أين الدكتور ؟

وجاءت الخادمة التى كانت بجانب التليفون وهى تقول لاهثة :

ــ طلبته يا ستى ، سيأتى حالا .

وفزعت الأم إليها :

ــ طلبته ! ألم يذهب أحد إليه .. أين السيارة ؟ .. أين عم دهب .. لماذا لم يذهب إلى أى دكتور فى الجوار ؟ دكتور ؟ .. أما زلتن واقفات ..

وانتبهت الخادمات إلى صراخ سيدتهن ، فتسارعن إلى السلم يدعون عم دهب .

وجلست الأم إلى جانب ولدها .. ولدى .. إياك أن تتركنى .. إنك كل شىء لى .. إنك أنت .. أنت وحدك الذى أحيا له وبه .. ولدى .. إياك أن تتركنى .. إننى الوحيدة بين الأمهات التى منحت وليدها ما منحت .. لقد تلقى الأخريات أولادهن وحب آبائهم يكلأ الجميع .. أما أنا فعانيت من أجلك يوم حملتك ، وعانيت من أجلك سنوات طوالا عشتها إلى جانب أبيك من أجلك .. لم أترك أباك فى كل هذه السنين من أجلك أنت .. حياتى الماضية أنت والمستقبل وما بعد الممات ، فالى أين تاركى .. أحمد .. لولاك

لكنت تركت أباك من زمن بعيد •• أحمد •• أنت لا تدرى ما أنت لى • الأمهات حياتهن موزعة بين أزواجـهن وأولادهن •• أما أنا •• أنا وحدى بين كل الأمهات التى تتمثل حياتها فى ولديها برغم أبيهما •• أنت جهادى لنفسى السنوات الطوال ، أنت الشيء الذى قلبت من أجله أبهى سـنوات حياتى إلى أنكدها ، إن أحب الأمهات أبناءهن لأنهم أبناؤهن ، فأنا أحبك أنت وأختك ، لأنكما أبنـائى ، ولأننى قاسيت من أجلكما المرارة والبؤس والشقاء والألم ، قاسيت أن أحيا مع زوج أكرهه وأبذل له نفسى ، أحتقره ولا أتركه أمقته وأظل إلى جانبه زوجه •• أحمد •• لى فيك ولى عليك حق الأمومة ، ولى فيك ولى عليك حق الشقاء الذى ألقـاه ، والشباب الذى يمر والسنين التى مضت •• سعادة الأمهات بأبنائهن مجـرد سعادة ، أما أنت فجزائى عن الشـقاء بأبيك ، فأنت كل شيء •• فإن يكن لحيـاتى معنى •• فأنت •• أنت وأختك •• أحمد •• لا تتركنى •• ارحمنى يا رب •• دع هـذا الطفل لى يا رب •• فمـا الحيـاة بغـيره •• أرحم يا رب •

ويدخل سليمان هالعا :

— خير ماذا به يا سهير ؟

— سليمان •• ماذا تنتظر ؟ •• دكتور يا سليمان •• أسرع •

وخرج سليمان من فـوره حائرا لا يدرى أين يذهب ، لم يعـد يذكر طبيبا واحدا ممن يعرفهم ، فهو يذهب إلى التليفون ، ثم يبحث عن المذكرة التى بها الأرقام التى يحتاجون إليها ، ثم يترك هـذا جميعه ويهرول إلى السلم ، فمـا إن يبلغ منتصفه حتى يصعد مرة أخرى إلى التليفون ، ثم يتركه ويهم بأن يقصد إلى حجرة ولده ،

متخيلا أنه قـد صنع شيئا ، واهما أن طفله قد أفاد شيئا من هذه الهرولة التى ذرع بها البهو والسلم ، وقبل أن يصل إلى الحجرة يسمع صوتا من أسفل يقول •

ـ الدكتور •• جاء الدكتور •

ويسرع سليمان إلى السلم ، ويلقى الطبيب فيرجوه أن يسرع ولا يجد الطبيب فرصة يسأل فيها عما دعى له ، وإنما هو يقاد إلى حجرة أحمد • ويفتح الطبيب حقيبته ويخرج حقنة صغيرة يملؤها دواء ، ثم ما يلبث أن يغرس ابرتها فى فخذ الطفل ، ثم يوالى اسعافاته وهو لا يكف عن ترديد :

ـ خير يا ستى إن شاء الله •• بسيطة إن شاء الله ، لا شىء يا ستى •• مجرد إغماء بسيط •

وما لبثت أنفاس الطفل أن هدأت شيئا فشيئا ، حتى انتظمت ، وغمغم :

ـ نينة •

وصاحت الأم :

ـ أحمد •• نعم يا أحمد •• أنا هنا •• الحمد لله على سلامتك يا أحمد •

ونام الطفل هادىء الأنفاس ، وطلب الطبيب أن يتركوه ليستريح ، ولكن الأم أصرت على البقاء ، وخرج سليمان مع الطبيب •

وما إن خلت الحجرة بالأم وطفلها ، حتى ألقت رأسها على سرير الطفل ، وانطلقت تبكى فى نشيج يمنعه خوف الأم من إيقاظ ابنها أن يعلو ، وإنما هو بكاء حار مكتم النشيج ، دفاق العبرات ،

ولكنها تمالكت أمر نفسـها فجأة ، وقامت إلى البهـو ، فأحضرت التليفون ، وعلى الضوء الخافت أدارت القرص ، ولم تلبث أن وضعت السماعة ، فقـد حمل إليها أزيز الرقم مشـغولا عن طلبهـا ، وبعد دقائق رفعت السماعة مرة أخرى ، وأدارت القرص نفس الدورات ولم تلبث أن قالت :

ـ وصفى •

ـ نعم •

ـ أأستطيع أن أكلمك ؟

ـ أنا وحدى •

ـ لا يمكن يا وصفى •• لا أستطيع •

ـ نعم أعرف •

ـ فلتكن صداقة •

ـ صداقة عميقة ودائمة يا سهير •

ـ إلى اللقـاء يا وصفى •

ـ إلى اللقاء يا سهير •

(١٤)

كانت الصلاة جماعة فى المسجد الكبير بقرية العواسجة ، ولم يكن وراء الشيخ إلا قلة من الفلاحين ، وقفوا وماء الوضوء يقطر من وجوههم ، وكان يتقدم هؤلاء الفلاحين نفر من الطلبة ارتدوا الجلاليب الأفرنجية ، وغطوا رؤوسهم بالمناديل ، وألقوا بعيونهم الى الأرض فى تخشع • وكان ضوء المصباح المرتعش ينسكب على وجه جامد النأمات ، مسبل العينين ، تقوم من تحته بنية قوية التركيب ، ثبتة القوام ، وقد ارتدى صاحبه جلبابا أبيض موشعا بالخطوط الحمراء ، وأحكم على رأسه منديلا كان ناسجه يريد له اللون الأبيض لونا ، ولكن عدا على ارادته أيد كثيرة العبث قليلة العناية نزرة النظافة ، ذلك هو السيد أفندى عبد البديع النجل الأكبر لعبد البديع أفندى الدكر وزوجه محبوبة • حصل فى عامه هذا على شهادة التوجيهية ، وعاد الى القرية ليهنأ بين أمه وأبيه وآله بلذة النجاح •

انتهت الصلاة ، وخرج بعض المصلين من الجامع ، وبقى فيه السيد والتلاميذ الآخرون وقلة ضئيلة من الفلاحين لم يتركوا الجامع ، بل ان منهم من استقر على الجلسة التى كان يقرأ بها التحيات ، ومنهم من أخرج قدمه من تحت حسمه وأدارها ، فأصبحت مثنية أمامه ، ثم ألقى ذقنه الى يده ومد بصره فى تشوف الى السيد • واتخذ السيد جلسة مستقرة بعد أن أدار ظهره الى

القبلة وراح يبسمل ويحوقل متهيأ لالقاء درسه لدينى ، وقـد خـلا له الجو ، وانفـرد فى الجامع بالفلاحين ، ومن يصغرونه من الطلبة ، منتهزا فرصة جهلهم جميعا ، وفرصة علمه الضئيل الملىء بالخزعبلات والأحاجى • وراح الفلاحون — قبـل أن يبدأ — يمصون شفاههم ، كأنهم يختبرون الصوت الذى يصدر عنهـا ، أشبه ما يكونون بأفراد تخت موسيقى يجربون آلاتهـم قبـل البـدء فى عزف الدور الذى سيعزفون •

وبين أصـوات الشفاه يمصها الفلاحون ، وأسئلة صغـار الطلبة يطلقونها لاثبات وجودهم ، بدأ الدرس وانتهى •

وخرج سـيد منتفـخ الأوداج ، مزهوا أن ألقى الـدرس على هؤلاء القـوم المساكين ، وزاده كبرا وزهوا اثنـان من مريديه لحقا به ، وراحا يسألانه فى اكبار واجلال :

— منـذ متى يا سـيد وأنت منضم الى الشعبـة الرئيسيـة فى المديرية ؟

— من زمان •

— ولم تخبرنا يا أخى ونحن معك كل يوم ؟

— لا بد أن أثق بكما أولا لأخبركما •

— وهل لك فئة خاصة تتفرع من هذه الشعبة ؟

— نعـم •

— وما اسمها ؟ •• أهى الأسرة التى يقولون عنها ؟

— هـذا سر •

— ومن رئيسها ؟

— لا أستطيع أن أقـول •• هذا أيضا سر لا أستطيع البوح به ••

ـ لا بد أنك أنت الرئيس ••

وعلى خيــوط القمــر الزرقاء رأى الصاحبان شبح ابتسامة تلوح مخايلها على شفاه السيد ، فصاح أحدهما قائلا :.

ـ نعم انه هو •• انه هو يا حسين •

وقال السيد نافيا فى فى لهجة تزيد ظن الصاحبين اثباتا :

ـ لا يا شيخ •• لا يا محمد •• هــذه أسرار يا رجل •• أستغفر اللــه العظيم •

وسأل حسين :

ـ ولكنك يا سيد لا لحية لك •

وقال السيد مغيظا :

ـ أنا بلا لحية •• ألا ترى لحيتى ؟

وقال حسين فى بلاهة :

ـ لا ••

وقال السيد فى حــدة :

ـ هات يدك •• هات •

واجتذب يد حسين المسكين وحك بها ذقنه فقال ذاهلا :

ـ آه صحيح !

ـ لقــد بدأت فى اطلاقها قريبا •

وكانت يــد حسين لا تزال على لحية السيد حين انغــرز كــوع محمد فى بطنه ، وهو يهمس :

ـ أنظــر •

ونظـــر حسين الى حيث يشير محمد فرآها ، فاذا هو بغير وعى منه • يضرب محمد بكوعه ويضع سبابته أمام شفتيه ويهمس :

ـــ أسكت •• أجننت ؟

وكانت أنظار ســيد كلهــا ناشبة فى الفتاة التى تمر منهــم على مقــربة ، تمشى رهوا فى خفـــة واصرار ، ولكن آذنه كانت صاغيـــة الى همس صاحبيه ، فهو يقـــول :

ـــ ماذا يا محمد •• ؟

وسارع حسين قائلا فى لعثمة :

ـــ لا شىء •• لا شىء يا سيد •• لا شىء واللـــه •

فقـــال ســيد :

ـــ يا أخى أنا لا أسألك •• أنا أسأل محمد •

وقبـــل أن يلفظ حسين مجموعة أخرى من اللاشىء ، قال محمد فى صوت تبين فيـــه الرغبة اللاهبة فى أن يلقى ما يزدحم فى نفســـه من أسرار :

ـــ لا •• لا شىء •

وقال ســـيد :

ـــ وأنت أيضـــا تقـــول لا شىء •• يخيـــل الى أن هنـــاك علاقة بين ناعسة وبين حسين •

واذا محمد يقول فى فرحة غامرة :

ـــ شفت يا عم •• أنا لم أقل له •• عرفها هو وحده •

وقال ســـيد :

ـــ أى علاقة بينكما يا حسين ؟

وتلعثم حسين ، بينما استطرد سيد قائلا :

ـ قل يا أخى •

وازدادت لعثمة حسين ، واشتعلت رغبة السيد فى أن يعرف تفاصيل هذه العلاقة •• كان يريد أن يعرف تفصيل كل وشيجة من هذه العلاقة ، ولم يجد غير مركزه الدينى يركبه ، ليصل الى ما يريد ، قال السيد ضائقا :

ـ قل يا أخى •• فكل انسان عرضة للخطأ ، ولكن الاصرار على الخطأ هو الشرك والكفران •

قال حسين فى تردد :

ـ لا شئ يا سيد •• لا شئ الا ••

ـ هيه •• الا ماذا ؟

ـ بوسة •

وقال سيد وقد اتسعت عيناه ، وجف ريقه ، وسرت فى دمائه نشوة ثائرة :

ـ بوسة ؟ •• أين ؟

وتمالك حسين أمر نفسه بعض الشئ وهو يقول :

ـ فى خدها •

ـ لا ! أنا أقصد أين كنتما حينذاك ؟

ـ أتعتقد ان لمكان وجودنا شأنا كبيرا من الناحية الدينية ؟

وآن السيد أن يتلعثم بعض الشئ وهو يقول :

ـ لا •• لا طبعا •• وانما •• أحب أن أعرف المكان ، وسأخبرك لماذا •

— فى الذرة •

وقال محمد :

— وقعت يا بطل •

وصاح سيد فى لهجة ظافرة :

— آه •• أرأيته ! لـم تـكن قبلة على الخد اذن •• لقـد كانت قبلة فى الفم •• فى صميم الفم يا أستاذ •• الذرة لا يذهب اليها من يريد قبلة على الخد •• هيـه ما قولك ؟ !

— واللـه يا سـيد مـرة واحـدة فقط ، وتبت بعـدها ورجعت الى اللـه •

— هـذا حرام يا حسين •• لا بد أن تتوب الى اللـه •• وترجع الى الله •• لا حول ولا قوة الا بالله •• انا لله وانا اليه راجعون •• لمـاذا يا حسين •• لمـاذا •• وماذا فعلت معها ؟

— ماذا ؟

— مـاذا فعلت معهـا • • لعلك ان شرحت لى ، اسـتطعت أن أطمأنك انك لم ترتـكب الا اللمم ، وحسابه عنـد اللـه يسير •• اشرح لى يا حسين •• اشرح لى بالتفصيل •

وراح حسين يشرح ، وكلما أغفـل هنـة نبهـه اليهـا السيد فى يقظة صاحية ، لا ينى عن القـول كلمـا توقف حسين ليلتقط أنفاسه « يا سـلام » ودون أن يحس حسـين يجيبه فى ذهـول نشـوان « واللـه » •

وأتم حسـين القصة وصمت ، وظل ناظـرا الى السيد ، منتظرا منه أن يقول شيئا ، وظل السيد ناظرا الى حسين ، متوهما أو متمنيا

أن تــكون للقصة بقية ، وظل الاثنان يحملق كل منهما الى الآخــر فترة لم يدريا أطالت أم قصرت ، حتى تنبــه حسين أخــيرا وتلفت حــوله :

ــ الله •• محمد مشى •• أنا أعرف أين ذهب •• مسكين سيمرض من كثرة اختلائه بنفسه •

وقال السيد :

ــ مــاذا ؟

ــ لا شيء •

ــ هيــه •• وبعــد ؟

ــ وبعــد فيم ؟

ــ فى حكايتك •

ــ حكايتى ! ؟ حكايتى انتهت من زمان •

ــ وكم دفعت لهــا ؟

ــ ربع جنيــه •

وهمس السيد لنفسه : ربع جنيه بنت الكلب •• النهاية •

ثم عاد الى حسين :

ــ هيــه •• وبعــد ؟

ــ وبعــد فيم ؟

ــ فى حكايتك •

ــ أقول لك انتهت •

ــ انتهت ؟

ــ نعــم •

ولــكن السيد لم يقتنع بهــذه الاجابة ، بل انه راح يسأل مــرة

أخرى عن تفاصيل معينة ، فى اهتمام شديد ، وانصات واع الى أن استعاد القصة جميعها على طريقة سقراط من أسئلة وأجوبة •• حتى اذا فرغت أسئلته ، ظل محملقا فى وجه حسين ، وظل حسين محملقا فى وجهه هنيهة هو الآخر ، ثم قال :

ــ هيه •

وقال السيد وهو فى غمرة من الأفكار :

ــ هيه ماذا ؟

ــ أحرام ما فعلت ؟

وانتفض السيد متذكرا السبب الذى أبداه ليستدرج القصة الى المخرج ••

ــ آه •• آه •• حرام طبعا •• حرام يا بنى والله •• حرام •• ولكن الله غفور رحيم •• اذهب الى البيت وصل •• وارج الله أن يغفر لك •

وانصرف حسين خجلا يتعثر فى مشيته ، مزمعا فى نفسه توبة لا يعود بعدها الى هذا الاثم •

واقترب السيد من الطريق الذى عبرته ناعسة ، وأقام مستخفيا يرصد الطريق من حيث ذهبت ، فهو يعلم أنها عائدة ، فما كانت وجهتها الى بيتها ، ولا بد لها أن تعود وانه لمنتظر •

كانت ناعسة فتاة ريانة العود ، مليحة القسمات ، وكان أبوها قد زوجها الى رجل عجوز ، طامعا أن يعوض الرجل ابنته عن شبابه بالمال الوفير • ولكن الرجل خيب ظن حميه ، فهو وان ملك مالا ،

الا أنه لا يملك الجرأة على اخراج المـــال ، ففقدت ناعسة فى زوجها الحسنيين من شباب ومال • ولم تجد ناعسة خيرا من بيـــع محاسنها لتكسب بذلك كل ما خسرته فى زواجها •

ولم يعـــرف ســـيد هـــذه التجارة التى افتتحتها ناعسة الا حين عاد الى القرية ، وقـــد تقبل هـــذه الأنباء فى تأفف ظاهر ، وفى رغبة مختفية أن يكون زبونا لهـــا • ولـــكن عاقه عن ذلك أمران : أولهمـــا تظاهره بالتقى ، تظاهرا يسد عليـــه المسالك أو يـــكاد ، وثانيهما قلة المـــال فى يده ، ولو كانت ناعسة قـــد بدأت تجارتها قبـــل أن ينحاز سيد الى ناحية الدين ، لأصبح شأنه غير هـــذا الشأن ، ولاحتـــال على المـــال ، وبلغ به من ناعسة ما يريد ، ولـــكنها تأخرت ، واتخـــذ هو مظهره هذا الذى يضيق به غاية الضيق • فما كان مؤمنا بما يقول أو يفعل ، وانما انضم الى فئة الدين حين أعجزته الحيلة أن ينضم الى فئـــة الفجرة ، وان كان الى هـــذه الفئة الثانية أشد ميلا وأكثر شـــوقا • على أن هـــذا لم يفت فى عضده ، فقـــد وعد نفسه خيرا ، وطلب اليها الصبر الى أن تحين فرصة فى طريق خال •

وها هو ذا الطريق خلا ، وناعسة تقترب منـــه •

ـــ مساء الخير يا ناعسة •

ـــ مساء الخير يا سى سيد أفنـــدى •

ـــ الى أين ؟

ـــ الى البيت •

ـــ وفيم العجلة ؟

ـــ تأخرت •

ــ أريدك فى كلمتين •

ــ وأى كلام بيننا يا شيخ سـيد •

ــ كلام مهم واللـه •

ــ تفضل • قله •

ــ لا •• لا ينفع الكلام هكذا •

ــ وما الذى ينفـع ؟

ــ تعـالى •

ــ الى أين ؟

ــ الى الذرة •

ــ اللـه •• شيخ سيد !

ــ ماذا ؟

ــ شيخ سيد •• حتى أنت يا شيخ سيد ؟

ــ لا والله ، وانما كنت أريد أن أكلمك •

ــ تـكلم •• المكان الذين نحن فيـه يصلح للـكلام ، أما الذرة يا شـيخ سيد ••

ــ شيخ سـيذ •• شيخ سـيد •• هـل شفتنى ألبس العمامة والجبـة ؟

ــ لا ، ولكن شفتك فى الوعظ يا شيخ سيد !!

ــ يا شيخة •• تعالى •

ــ عيب يا شيخ •

ــ العيب ما فعلته مـع حسين •

ـ أقال لك ؟

ـ نعـم •

ـ طيب •• هل معك المبلغ ؟

ـ والله ليس حاضرا معى •• أعطيك غـدا •

ـ غـدا لا ينفع يا شيء •• يا سيد أفندى •• كيف أستطيع أن أطالبك غـدا •• الدفع مقدما يا سيد أفندى •

ـ وان كنت مفلسا ؟

ـ فلا أعطلك •

ـ ولكنى أريد أن تعطلينى •

ـ هات كيلة ذرة •

ـ كيلة ؟ !

ـ نعم •• كيلة •

ـ فانتظرينى حتى أحضرها •

ـ أين ؟

ـ فى ذرة أبى •• على طرف الغيط من ناحية الترعة •

ـ لا تتأخر •

ـ حالا •

وانصرف سـيد الى بيتهم مسرع الخطو ، فمـا ان بلغـه حتى خلع حذاءه وتسلل على أطـراف أصابعه الى الحجرة التى يعلم أن بهـا الذرة ، وملأ طرف جلبابه ذرة تزيد على الكيلة ، فما راجعهـا فى الكمية الا حبـا فى المراجعة ، وخرج سيد متلصصا كمـا دخل ، ونفض المكان بعينيه ، وخيل اليه أنه لم ير أحـدا ، ومشى سبيله الى المكان ، وما ان بلغه حتى همس :

ـــ ناعسة •• ناعسة أين أ ••

ولم يكمل الكلمة ، فقــد انصبت على قفـــاه يد حديدية صاحبها صوت أبيه مغيظا صارخا فى حنق ، دون أن ترتفع نبراته :

ـــ أهى ناعسة يا ابن الكلب •• وعامل لى شيخا تتقصك العمامة يا ضال يا زانى يا ابن الـــكلب •• قدامى الى البيت •• قدامى أنت وذقنك •• واللـــه لتسافرن غـــدا الى مصر •

ـــ أبى ؟

ـــ اخرس وامش •• امش •

ـــ انهـــا •• انهـــا ••

ـــ اخرس قلت لك •

ومشى ســـيد يتعثر فى خطاه ، ومن ورائه أبوه ، حتى اذا بلغـــا البيت قاد الوالـــد ولده الى المخـــزن ، وأعاد الذرة الى مـــكانها ، ولم يستطع أن ينتظر حتى يخـــرجا من الحجرة ، بل هو يقفل الباب ويحكم رتاجه ، ويمسك بتلابيب ولده ، ويخلع النعل من قدمه ••

(١٥)

كان أحمد جالسا الى أمه فى احـــدى غرف القصر حين دخل اليهما حسام الذى حيا خالته وقبلها ثم جلس •• وقالت سهير :

ـــ كيف حال سميحة وأختك نوال ؟

ـــ بخير والحمد للـــه •

ـــ لقـــد قالت لى أمك اليوم انها ستأتى •

ـــ والله لا أعرف ، فأنا لم أقل لها انى قادم اليكم •

وسكتت سهير ، وران الصمت عليهـــم بعض الحـــين ، ثـــم قطعه حسام متسائلا ، وهو يظهر عدم الاهتمام ، فيخيب تظاهره :

ـــ أين هنـــاء اذن ؟

وقالت الأم :

ـــ يا ســـيد صممت أن تشترى هى لأخيهـــا ما يلزمه من أقمشة الحلل والقمصان ليدخل بهـــا الكلية •

ـــ ولمـــاذا لم تذهب أنت يا أحمـــد ؟

ـــ يا أخى •• أنا لا تهمنى الأناقة ، ولـــكن نينــــه هى التى تريد أن تشترى لى ثيـــابا جـــديدة ، وقد صممت هنـــاء أن تختار هى الملابس •

وقال حسام :

ـــ وهل نزل معها عمى سليمان ؟

فقال أحمد فى شبه سخرية :

ــ وما شأن عمك سليمان بهــذا ؟

فقال حسام متلعثما :

ــ لا •• لا شيء •• ولكن هناء وحدها ؟

وابتسمت سهير فى فرح وهى تقــول :

ــ لا تخش شيئا يا سى حســام •• لقــد خرجت فى السيارة مع السائق ، ولن تذهب الا الى محل واحــد ، وتعــود فى السيارة •• اطمئن يا حبيبى ، واللــه لولا مرضى لخرجت معها •

وازدادت لعثمة حسام ، وقد أحس أنه قد كشف خبيئة نفسه :

ــ لا •• لا شيء •• لا شيء ولكن ••

وحينئذ جاء الخادم ليعلن الى أحمد مجيء فوزى عبــد المجيد ، ووجد حسام طريقا آخر يسلك فيــه بحديث جديد ، فقال :

ــ يا أخى فوزى •• هــذا لا أطيقه أبدا •

فقال أحمــد :

ــ ولمــاذا يا سيدى •• ألأنه يقول الحق ؟

ــ أكان حقا هذا النقد الذى راح يكيله لعمى وصفى باشــا •

فقالت سهير فى اهتمام :

ــ ينتقد وصفى باشــا •• وأمامك يا أحمــد ، كيف تسمح له ؟

فقال أحمد فى لعثمة :

ــ انهــا مرة واحــدة ، وقــد رددته فى خشونة ، وأخبرته أننى لا أحب أن يذكر أمامى عمى وصفى باشا الا بالخير •

وتدخل حسام ثانية قائلا :

ــ ليس هــذا فقط ، ولــكنه كثــير الانتقاد للأغنيــاء ، وكثــير الكلام عن الغنى ، فهــو لا ينسى مرة أن يقــول : ان الغنى لا بد أن تصاحبه الميوعة والجمود ، وعــدم الاحساس بالفقراء ، وكدحهــم وشقائهــم •

وسارع أحمد قائلا :

ــ أليس هــذا صحيحا ؟

ودهشت الأم من كلام أحمــد ، فسارعت تقــول :

ــ لا يقول هــذا الا حاقد •• انما الغنى والفقر بيد الله ، والغنى رجل كد واجتهد حتى أصبح غنيا •

فقــال أحمد :

ــ أنا لا أرى أبى قــد كد واجتهد •

وأرتج على سهير هنيهة ، ثم قالت :

ــ بل انك تعلم أن أباك قــد نال دبلوم الهندسة ••

فقاطعها أحمد قائلا فى سخرية خبيثة :

ــ من أوربا •

وأحسست الأم تهكم الابن ، ولكنها تجاهلته ، وقالت :

ــ وهل ترى أباك غنيــا ؟

ــ هو غنى بلا شك •• انه يعيش عيشة الأغنياء •

ــ أنت تعلم أنه ليس غنيــا •

ــ اذن فأنت الغنية •• كم اجتهدت أنت وكم كدحت ؟

ـ أبى كد واجتهد ، حتى يوفر لى السعادة •

ـ أبوك اجتهد ، فلماذا تستفيدين أنت ؟

ـ انه لولاى ما اجتهد •• أى غريبة فى ذلك ، انهـا سنة الكون الأبناء يخلقون الطموح فى نفـوس الآباء ، انك غـدا حـين تنجب أطفالا ستعلم كيف يكون الطموح ، وحينئذ تسعى الى أن تجعـل أولادك أغنى الأولاد • تلك يا بنى حكمة اللـه وسنته ، وبهـا تدور عجلة الحياة •

ـ نعم أعرف •• فكلما أريد لنـا أن نسكت فلا نفكر ذكر الله •• فلماذا لا يعطل اللـه تفكيرنا حتى لا نفكر فى عـدله وحكمته وسنته وكل هذه الأشياء التى تبدو لنا ، وغيوم الشك تغشاها •

وصاح حسام :

ـ رأيت يا خالتى هذه أقوال فوزى •

فقال أحمـد :

ـ وانهـا حـق •

وأصبح وجه الأم باسرا قلقـا :

ـ ما هـذا الكلام يا أحمـد •• ما هـذا الذى تقـول ؟

ـ رأيى •

ـ لا تظن أنك بهـذا الرأى تبـدأ طريقا جـديدا •• انها طريق سبقك فيها الكثيرون ، وعادوا عن رأيهم •

ـ انهـم سجناء •• جبناء لا يقوون على فك قيودهم •• انهـم سجناء العادة والوهم والتقاليد ، لو أمعنوا التفكير وفـكوا قيودهم لمـا عادوا • انهم القطيع •

ورأى حسام ان النقاش سحتدم ، ورأى وجــه خالته يحتقن ، وخشى أن تصاب بالنوبة القلبية التى تعاودها ، فسارع قائلا :

ــ قم •• قم يا عبقرى انزل الى صاحبك العبقرى الآخر ••

وفهمت سهــير ما أراد اليــه ابن أختهــا ، فســكت مذعنــة ، فما كانت تطيق أن تغضب ابنهــا ، وقال أحمد :

ــ وأنت •• ألا تنزل معى ؟

ــ نعم سأنزل معك ، وأمرى الى اللــه •

وصاحت سهير بالخادمة :

ــ يا نبوية •• هات سجادة الصلاة •

ونزل الشابان ، وأقامت سهــير الصــلاة • وبينما هى تصلى دق جرس التليفون وأجابت نبوية فسمعتها سهير وهى تقول :

ــ لا يا سعادة الباشا •• انه ليس هنــا •

ثم سمعتها تقــول :

ــ انهــا تصلى •

ثم قالت :

ــ لا •• لن تتأخــر •

وتركت السماعة الى جانب التليفــون ، وسرعان ما أنهت سهــير الصلاة ، وانتقلت الى التليفون ليقول لهــا وصفى :

ــ أين سليمان ؟

ــ خــرج •

ــ أنا فى البيت ، بمجرد مجيئه أخبريه انى منتظره •

ـ هل حصل شيء يا وصفى ؟

ـ لا أبدا •• ولكن أريد أن أراه فى مسألة تهمه •

ـ طيب •

وبـدت هنـاء صاعدة من السلم ، حتى اذا بلغت مجلس أمهـا رأت على شفتيها مخايل ابتسامة يحيط بهـا شيء من الفرح ، فقالت لأمهـا :

ـ خير •• ما هـذه الابتسامة ؟

ـ لا •• لا شيء ، ولـكن ابن خالتـك حسام كان هنـا ، وزعل لأنك خرجت وحـدك •

فتجهمت هنـاء قائلة :

ـ وما شأنه هـو ؟

ـ شأنه •• ان له شأنا ليس لأحد •• انه يحبك •

ـ وأنا أحبـه أيضا •• أحبه كما أحب أحمد •• لقـد ربى معى ولا أستطيع أن أنظر له الا كأخ •

فقالت الأم فى جـد :

ـ اسمعى يا هنـاء •• مسألة الأخوة هذه عذر فقط ••

ثم تنهدت من أعماق ذكرياتها ، وقالت :

ـ من قال ان القـريب لا يحب • هنـاء •• هـذا عـذر فقط فاذكرى لى الحقيقة •

ـ الحقيقة انى غير معجبة به ••

ـ ولمـاذا ؟ انه شاب غنى متقدم فى دروسه •

ـ عقليته يا نينا •

ـ مالهـا ؟ !

ـ عادية •• انسان عادى جدا •

ـ ألا يشفع له غنـاه ؟

ــ على العكس •• أنا أريد انسانا فقــيرا ، يغنى بعمله واجتهاده ونكبر معــا •

ــ هذا هراء يا بنتى •• فأنت غنية ، وإذا تزوجت فقيرا ، فسوف يركن الى غنائك ، ولا يسعى للغنى •

ــ يا نينــا لا أستطيع أن أفــكر فيــه كزوج •• انه ابن خالتى مثــل أخى تمــاما •

ــ عدنا الى هــذا •• وأنا ألست متزوجة من ابن عمى ؟

وترددت هنــاء هنيهــة ، ونظــرت الى حيث لا تلتقى عينــاها بعينى أمهــا :

ــ وهل أنت سعيدة يا نينــا ؟

وأرتج على سهير ، فمــا تدرى بمــاذا تجيب ابنتها ، وقبــل أن تصوغ جوابا ، سمعت أقدام سليمان صاعدة على السلم فنادت :

ــ سليمان •

ــ نعــم •

ــ وصفى منتظرك فى بيته ، ويريدك أن تذهب اليــه الآن •

ــ الآن ؟

ــ نعــم •

وعاد سليمان طريقــه الى الباب الخارجى ، وما كاد يتركه حــتى دخل البيت عبد البديع ووراءه السيد حاملا حقائبه •

وأرسل عبد البــديع الى سهــير يستأذنها أن يلقــاها فأذنت ، وصعد اليهــا ينبئها أنه جاء بسيد ليقيم لديهم ، فرحبت به وطلبت الى عم دهب أن يعــد حجرة للسيد ، وينصرف عبــد البديع داعيــا لسهير وأولادها بطــول العمر والرفاهيــة ، ولا ينسى عبــد البديع الا يدعو لسليمان بأى خير ، فما كان يرجو له خيرا •

(١٦)

كان وصفى جالسا فى بيتــه ثائر الأعصاب يفــكر فى هــذا الأمر الذى لقيــه به وزير الأشغال فى يومه هــذا •• أى مخجلة تلك التى يطالعه بها أقاربه •• وأى قريب •• انه زوج سهير ، لا يطيق وصفى أن يروع حيــاة سهير وأولادها بأكثر مما روعهــا •• انه يشعر أنه المسئول عن هــذا الزواج الذى ألقيت اليــه سهير •

ولم يشأ جعفر أن يترك أباه فى زحمة من ضيقه هــذا ، بــل هــو يدخل اليــه يطلب بعض المــال ليشترى كتبا جديدة ظهرت ، وقــد تعود وصفى ألا يرد لابنــه طلبا مثل هــذا ، ولكنه فى ضيقه هــذا يوشك ألا يحفل أمر ابنــه ، ثم ما يلبث أن يعطيه ما طلب ، ويخرج جعفر ، وما هى الا بعض دقائق حتى يدخل سليمان :

ـــ خير يا باشا ؟

ـــ أى خير يا سى سليمان ؟

ـــ ماذا •• ماذا حصل ؟

ـــ يا سليمان أنت تعلم كــم جاهــدت من أجلك ، حــتى تصــل إلى مركزك هــذا •

ـــ نعــم أعلم •

ـــ أيليق بك بعــد هــذا أن تلوث سمعتنا ، ونحن نعتمــد على الشرف فى حياتنا ، ونحارب أعــداءنا بنزاهتنا ، ماذا يقــول الناس عنــا •• ؟

وأحس سليمان أن وصفى عـرف ما ارتـكبه ، وأوشك أن يمارى الحق . ولكنه عـدل عن ذاك وارتأى أن يستمر فى تغابيه :

ـ ماذا ؟

ـ احسان بك عبد الفتاح •

وأرتج على سليمان لحظة ، ثم قال :

ـ ما شأنه ؟

ـ ماذا جرى يا سليمان ؟ •• أتراني فارغا لهـذا التغابى ؟ •• لقـد كنت عند وزير الأشغال الآن وهو الذى أخبرنى ••

ـ أخبرك بماذا ؟

ـ بأنك أخـذت رشوة من احسان •

ـ أنا ؟ •• أنا ؟

ـ نعـم أنت •

ـ لمـاذا ؟

ـ لتحفر له ترعة فى أرضه التى اشتراها حديثا بعقد عـرفى •

ـ انه لم يقـل انها رشـوة •

ـ فماذا قال ؟ •• هـدية ! ؟

ـ أبدا ، وانما قال انه يتبرع بهـا •

وقال وصفى ساخرا :

ـ يتبرع بهـا •• ! ؟ لمـاذا •• ؟ هل أصبحت جمعية خيرية على آخر الزمن ؟

ـ لا ولـكن كنت أفـكر أن أشترك فى جمعيـة العميان ، وكان الحديث معى فى ذلك الشأن يجرى أمام احسان بك فتبرع بالمبلغ •

ـ بخمسمائة جنيه ؟ ! أهـذا تبرع ؟ •• انها رشوة يا باشمهندس رشـوة ••

وحاول سليمان أن يفتعل ثورة :

ـ لا •• أنا لا أقبـل الرشوة •• لا أبدا ••

وقطع وصفى افتعاله فى جمـود :

ـ اسمع •• هات الفلوس •

وامتقـع وجه سليمان :

ـ ماذا ؟

ـ أقول هات المبلغ •

ـ ولكنه ليس معى •

ـ انه معى أنا •

ـ لا أفهـم •

ـ لقـد دعـوت احسان ، وهو قادم الآن ، وقـد أعـددت له المبلغ ، وسأعطيه له الآن ، فاكتب أنت لى شيكا بالمبلغ •• الآن •

ـ أكتب شيكا ؟ !

ـ نعـم •

ـ ولكن ليس معى دفتر الشيكات •

فقال وصفى فى حزم صارم تمور فيـه ثورة وتهديد :

ـ سليمان اكتب الشيك على ورقة بيضاء •

وفهم سليمان كل المعانى التى تصاحب هـذا الأمر فسارع يكتب الشيك مذعنا ، وما ان فرغ من كتابته ، حتى جاء الخادم يعلن قدوم

احسان بك ، فأذن له وصفى ودخــل ، وما كاد يجلس حتى أخــرج وصفى من جيبه ظــرفا وأعطاه لاحسان قائلا :

خــذ هــذا •

ــ ما هــذا يا باشا ؟

ــ الرشوة التى دفعتها لسليمان •

وتلاقت عيــون احســان وسليمان ، ثم أطــرق احسان خجــلا قائلا :

ــ ولكنها ليست رشوة يا باشا •

ــ اسمع •• اما أن تأخــذ المبلغ ، فأعتبر المسألة كأن لم تــكن ، وأجعل طلب الترعة الذى تقدمت به يسير فى طريقه الطبيعى بلا عرقلة ولا محاباة ، واما أن ترفض قبــوله فأعلم أن الترعة لن تشق أرضك ما دمت أنا على وجه الحياة •

ووضع احسان المبلغ فى جيبه فى تخاذل ، وهو يقول :

ــ أمرك يا باشــا •

ــ على ألا تعــود الى هــذا يا احسان بك •

ــ أمرك يا باشــا •

ــ شــكرا •

ــ تسمح بالانصراف ؟

ــ لا مانــع •

وخرج احســان دون أن يدعوه وصفى ليشرب القهــوة ، فقــد رأى فيــه صــورة بشعة تشبه المرأة الداعرة التى تغــرى الشباب

بالخطيئـــة • وحـين أراد سليمان أن ينصرف استبقـــاه وصـــفى ليقول له :

ـ أتذكر حديثا بيننا منـــذ سنوات بعيـــدة •• بعيدة جـــدا حين جئت لتطلب أول درجة ارتقيتها فى سلك الحكومة •

ونكس سليمان رأسه قائلا :

ـ نعـــم أذكر •

وقال وصفى فى حزم :

ـ حسنا ، فأنا لا أحب أن أعيـــد هـــذا الحديث ثانية ، وبطبيعة الحال لا لزوم أن تعـــرف سهير شيئا من هـــذا ، فمرض القلب الذى تعانيه لا يحتمل هذه الأزمات ، قل لها إذا سألتك عما أردتك فيـــه •• قل لهـــا اننى •• اننى ••

وداخل صوته شيء من السخرية وهو يقول :

ـ قللهـــا اننى أردت أن أبلغك رضاء الوزير عنك •

وأطرق سليمان ، لأنه لم يعرف أين يولى وجهـــه ، وقال وهـــو خارج :

ـ نعـــم •• نعـــم هـــذا ما سأقول •

وخـــرج •

(١٧)

شهور مضت تليها شهور وأنا هنا حبيس فى هــذا البيت أو القصر أو أى شىء كبير ، لا أملك أنا فيها شيئا إلا هذه الملابس التى أتلقفها من أحمد بك • شهور مضت وتلتها شهور ، وأنا حبيس لا أصنع شيئا إلا أن أجلس مع أحمد بك ومع صديقه ، هــذا المتذاكى الذى لا يكف عن الانتقاد والسخط •• شهور وأنا أرى هنـــاء •• هناء هانم تأتى إلينا فى حجرة المكتب ثم تتركنا بعد أن تسمع الحديث الطويل الذى برع فيه السيد الحكيم ، العــالم النابه فوزى عبد المجيــد ؛ ذلك الحديث الذى يلقيه فلا يجد أحدا يرده ، فالجميع به معجب ، وأى جميع ! إنهم أو إنهما أحمــد وهناء ؟ ألا تكفى هنـــاء حتى أقــول الجميع ، إنها الجميع لا شك ! إنها كل شىء حين أنا لديهـــا لا شىء • وماذا أكون أنا ، وأنا لا أتحدث فى أى موضــوع ، إننى حتى حين حاولت أن أظهر علمى الدينى لقيت من الجميع سخرية وهزؤا ، فمـــا الدين عند ثلاثتهم بالأمر الخطير ، الدين جميعه لا يهمهم فى شىء ، فكيف أحادثهم عن أركان الوضوء واقامة الصـــلاة وغير ذلك ممـــا كنت أنال به فى العواسجة التبجيل والتوقير والاحترام • إن هــذا الفوزى لا يترك مجالا لأحد أن يتكلم إلا إذا جاء جعفر بن وصــفى باشا فهو وحده الذى يقف له بالمرصاد ، ويرده فى عنف حينا وفى لطف أحيانا ، أما حسام فلا شأن له بأى موضوع يتكلم فيه أحــد • كل ما يعرفه أن يظل رانيا إلى هنـــاء ، نظرات تحسها هى ، ثم ما تلبث أن تنفضها عن نفسها فى زهو وخيلاء إنها كعبة أنظار ، ثم لا تفعل

بعد ذلك شيئا إلا أن تعجب بفوزى عبد المجيد وحديثه الطويل عن الغنى والفقـــر والظلم والعــدل والديمقراطية والاشتراكية •• أين يجد هــذا الكلام •

وأنا ماذا ألم بى •• لمـــاذا لا أخرج •• لقد ضرب على عم دهب حصارا عنيفا ، فأنا لا أخـــرج الا وهو على علم بكل مكان أقصـــد إليه ، وأنا لا أنال من النقود إلا صبابة لا تغنى ، وكنت فرحا أننى آت إلى مصر أعوض فيهـــا ما فوته على أبى حين أمسك بى عنـــد الذرة ، فاذا بيده التى انصبت على قفاى لا تزال تلاحقنى هنا بقبض المـــال عنى ، وبعيون عم دهب الرواصد على • وأحببت هذا الحبس أول الأمر ، فرحان أن أكون إلى جانب هناء ، فاذا هناء لا تحس بى ، وكيف لها أن تحس ، وأنا مهما أكن طالبا فى الجامعة فلن أزيد على ابن عبد البديع ، فان احترمتنى فأنا ابن عبد البديع أفندى ولا زيادة• شهور مضت وتلتها شهور ، أفأظل هنـــا قابعا إلى فتاة ما أظن أنها ستحس بى يوما ، أما آن لى أن أخرج إلى الحياة •• لقد رفضت أن أشترك فى أى نشاط فى الكلية ، حتى تظل فترة المســـاء كلها خالصة لهنـــاء ، ولكن ماذا جنيت من كل هذا ؟ لا شىء •• ضياع فى مجالات الهوى ، وضياع فى مجالات المجـــد ، لقد رفضت حتى أن أشـــترك فى نشاط الجماعة فى الكلية •• والله لن يكون هذا منذ اليوم ، إننى إلى الحياة خارج •• فافتحى لى صدرك أيتها الحياة •• إلى أين •• أين يمكن أن ألتقى بالحياة ؟ •• على أولا أن أحدد الجهة •• إنهـــا شارع فؤاد لا شك فى ذلك ، فالحيـــاة تمور فيه مورا ، والنســـوة لا ينقطعن عنه ذهابا وجيئة •

ولكن أى منطقة فى شارع فؤاد خليقة أن أجعلها مرقبى •• إنهـــا

تلك التى يقع فيها محل الأمريكين •• إن هناك اتفاقا غير مكتوب بين الفتيات والفتيان أن يلتقوا فى هذا المكان ، فاليه ••

دارت هذه الأفكار فى ذهن سيد ، وهو يختار أجمل ملابسه ، ويضعها على نفسه ، حتى اذا أتم زينته ، خرج من باب حجرته ، وصعد بضع درجات ، فأصبح على سطح الأرض •• أرض الحديقة•• وتلفت حواليه فاطمأن إلى أن عم دهب غير موجود ، فعبر الحديقة مسرعا يتحسس الجنيه الذى أوهم عمه دهب أنه سيشترى به كتابا لابد منه للكلية • وبعد حين كان سيد عبد البديع يلوب فى مكانه حول باب الأمريكين ، والنساء يتهادين أمامه ، يرى الواحدة منهن فيوشك أن يتقدم منها ، ثم يثنيه عن الأقدام خوف راعد يملأ نفسه ، وطال به الأمر وهو حائر لا يدرى كيف يبدأ حديثه ، وأخيرا رأى إلى جانبه فتى شديد الأناقة يقف فى مكانه متحفز النظرات ، لا تستقر قدماه على حال ، ولا يستقر رأسه إلى جهة ، فهو دائم التلفت ، يتربص بالشارع جميعا ، حتى مرت به أخيرا فتاة غيداء ، أنيقة غاية الأناقة ، ما كان سيد ليجرؤ أن يرفع إليها نظره ، فهى حلوة المشية ، متعالية رفيعة النظرات ، لا تذكره إلا بهناء فى ترفعها وكبرياء تصرفاتها •

اقتربت الفتاة منه ومن هذا الفتى الذى يقف إلى جانبه ، وكان الفتى إليها أقرب ، فسارع إليها قائلا :

— مساء الخير •

وذهل سيد حين سمعها تقول فى هدوء :

مساء الخير •

ماذا •• مساء الخير •• دون أن تضربه أو تدفعه عنها ، أو حتى

تسير ولا تلتفت إليه •• أهى مسألة ميسورة سهلة إلى هذا الحد ••
مساء الخير ، ثم أضع ذراعى فى ذراعها ونمضى • وأنا هنا واقف منذ
ساعات أقدم رجلا وأؤخر ستين رجلا •• ما أغبانى !!

وتربص سيد بالطريق ، وما هى إلا دقائق حتى مرت فتاة
أخرى ، إن تكن أقل أناقة من سابقتها ، إلا أنها لا بأس بها ، ولو
أنها كانت أقل من هذا بكثير لما تورع عنها •• وأين أولئك النسوة ،
أين هن جميعا من أجمل فتاة بقرية العواسجة ، أين هذه الملابس
المهفهفة ، والنحور العارية ، والأثداء المشرئبة ؟ أين هذا جميعا من
ذلك الثوب الأسود الذى ترتديه فتيات العواسجة ، خيبة الله
عليهن •• واقتربت الفتاة من مكانه ، فسارع إليها قائلا :

ـ مساء الخير •

ونظرت إليه الفتاة فى سخرية ، وسارت فى طريقها دون أن تجيبه
أو تشعره أنها أحست به • ولكنه وقد بدأ الحديث ، أبى أن يترك
الفرصة ، فهو يترك مرصده ويسير خلفها :

ـ مساء الخير •

ولم تلتفت إليه الفتاة ، بل ظلت سائرة فى طريقها ، وأعاد هو
التحية مرات ومرات ، والفتاة على حالها من الجمود والتجاهل ،
وظن سيد أنها ما دامت لم تزجره ، لن تلبث أن تجيب تحيته ، وعلى
هذه الأمنية سار خلفها •• دقائق •• وسمعها تقول شيئا :

ـ يا شاويش •• ابعد هذا الأفندى عنى •

وسمع السيد ما قالت ، فثبت مكانه كالتمثال المنصوب ، ولم
يفق من ذهوله إلا على الشاويش ساعيا إليه ، فاذا هو ينفض

الجمود الذى أمسك بأقدامه ويروح يعدو عائدا ، حتى إذا وجد الطوار مزدحما بالمارة ، وخشى أن يلحق به لشرطى ، قطع عرض الشارع غير آبه بالسيارات التى تسعى فيه ، ولولا أنه كان يعدو كالصيد يروغ من صائده ، ولولا لطف الله لما وصل السيد إلى الشارع الجانبى سالما •

ووقف سيد يلتقط أنفاسه •• ويفكر فى هذه المصيبة التى كانت موشكة أن تصب عليه •• لن أعود لهذا •• لن أعود أبدا •• وفى خطوات حازمة مشى السيد إلى هدف آخر ، وقد تحدد مقصده ، وتبين له الطريق •

وقف السيد أمام شاب وقور السمت ، نامى اللحية ، فى وجهه عزم واصرار ، وفى عينه ثورة يخفيها هدوء يغشى ملامحه جميعا • وكان يجلس إلى مكتب متواضع ، وقف أمامه سيد يقول :

ــ أريد طلب انضمام •

ــ وأين تحية الاسلام ؟

ــ السلام عليكم •• السلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته •• ما اسمك ؟

ــ السيد عبد البديع الدكر •

ــ تشرفنا ، أنا عبد العاطى بسيونى •

والتقت يدان فى مصافحة قوية •

(١٨)

كان أحمد جالسا إلى فوزى فى حجرة المكتب التى خصصت لأحمد فى القصر •• إنها حجرة جده ذاتهـا ، وكان فوزى جالسا فى عظمة ، وقد وضع ساقا فوق ساق ، حين قال له أحمد فى مرارة :

ـ أرأيت ! لقد رفضت المجلة نشر مقالتى الأخيرة أيضا •

ـ طبعا يا أخى • إن كتابتك تقدمية لا تقبلها هـذه المجـلات البروجوازية •

ـ إن جعفر ينشر مقالاته بانتظام بها •

ـ وفيم يكتب جعفر ؟ •• مقالات تافهة لا أفكار فيها ولا جرأة •

ـ نعم ولكنه ينشرها •

ـ لابد أن أباه أوصى به رئيس التحرير •

ـ أبدا يا أخى ، عمى وصفى لا يتدخل فى هذه الأمور أبدا ة .

ـ إذن فرئيس التحرير يجامله من أجل أبيه •

ـ فلماذا لا يجاملنى أنا من أجل عمى ؟

ـ مقالاتك لا تصلح لمثل هذه المجلات التافهة •

ـ فأين أنشر إذن ؟

ـ سيأتى اليوم الذى تكون لنا فيـه مجلة ، وسأنشر أنا لك فيها ، ولكن اسمع ••

ـ ماذا ؟

ـ الليلة اجتماع الخلية ، وستلتقى هنـاك بفؤاد زين العابدين قبل سفره إلى موسكو ، فقد عين فى السفارة المصرية بها .

ـ يا أخى دائما تخطىء ، إن اسمه زكى .

ـ هذا اسمه الحركى .

ـ والمفروض أننا لا نعرف إلا اسمه الحركى .

ـ طيب يا سيدى .. علمنى .. علم .

ـ وأين الاجتماع ؟

ـ فى مكانهـا .

ـ ألم يتغير بعد ؟

ـ لا .. لم تصدر الأوامر بالتغيير .

ـ يا أخى أنا غير مرتاح لهذا المكان .

ـ أنت محق .

ـ وبعـد ؟

ـ لا شأن لنا .. علينا أن ننفذ الأوامر .

ـ الأوامر .. الأوامر .. أليس لنا رأى ؟

ـ الرأى رأى المحترف يا أحمد ، ماذا ؟ أنسيت ؟

ـ لا .. لم أنس ، ولكنى أخشى .

ـ المفروض أننا لا نعرف الخشية .

ـ أعرف .

ـ موعدنا الليلة الساعة التاسعة مساء .

وطرق باب الغرفة ، ودخل سيد :

ـ السلام عليكم ورحمة الله •

ـ أهلا أبا السيد •• ذقنك •

ـ مالها ياسى أحمد •• دع ذقنى فى حالها •• يكفينى ما بى •

ـ خير يا سيد •

ـ من أين يأتى الخير ؟

ـ من ذقنك يا أخى •

ـ يا أخى صل على النبى ••

ـ لا •• لا لزوم لذلك •

ـ أنت حر •• الليلة اجتماع الأسرة •

فقال فوزى مسرعا :

ـ أين ؟

ـ لا شأن لك ياسى فوزى •• نحن أيضا لنا أسرارنا •

ـ طيب وماذا يضايقك فى هذا •

ـ يضايقنى أننى لم أذاكر منذ أسبوع ، والعوض على الله فى هذه السنة •

فقال أحمد :

ـ الملحق يا أبا السيد •• البركة فى الملحق •

ـ كل عام ملحق •• أنت لا تعرف الذل الذى أراه من أبى حين يعرف أن عندى ملحقا •

فقال فوزى :

ـ لا عليك •• الملحق فى سبيل الله •• فى سبيل الحق •

فقال سيد :

ـ ماذا جرى ياسى فوزى ؟ •• على كل حال أحسن من الملحق فى سبيل الرفيق •• فى سبيل الشيطان •

وقال أحمد مغيظا دون أن يبين عن غيظه :

ـ أى شيطان ياسى سيد ؟

وقال السيد متخاذلا :

ـ الشيطان الرجيم يا سيدى •• الشيطان الرجيم •

وفتح باب الحجرة ودخلت هناء :

ـ مساء الخير يا جماعة •

فسارع فوزى قائلا :

ـ إن تحيتك هذه للسيد وحده •• فهو الجماعة •

فقال سيد فى هدوء :

ـ لا يا سيدى ، فسيد وحده هو المستثنى من التحية •

فقالت هناء :

ـ مساء الخير يا أولاد •

فقال فوزى :

ـ عظيم •• أصبحت التحية لنا جميعا •

والتفتت هناء إلى أحمد تقول له :

ـ أقرأت خطبة عمى وصفى فى البرلمان ؟

ـ لا ••

ـ انها •• رائعة ••

وقال فوزى فى تعاظم :

ـ أما تزالون تهتمون بهذه التفاهات ؟

فقالت هناء فى تعجب :

ـ خطبة وصفى باشا فى البرلمـــان تفاهة •

ـ طبعـــا •

ـ الجرائد كلها تعلق عليها ، والناس لا حديث لهم إلا الخطبة •

ـ الجرائد عبـــارة عن كتاب مأجـــورين ، والنـــاس ما هم إلا ببغاوات •• لا أعتقد أن فتاة لها عقليتك الواعية الذكية تهتم بآراء الجرائد أو قطيع الناس •

وقال سيد مغيظا :

ـ الناس ببغاوات وقطيع ، والجرائد مأجورة ، ومجلس النواب تفاهات ، فما الذى يعجبك فى مصر ؟

فقال فوزى فى كبر :

ـ أنا •

وقال سيد فى ثورة يحاول جهده أن يكتمها :

ـ فقط ! •

ـ ومن يرى رأيى •

ـ ومن يخالفك ؟ •

ـ لا يخالفنى إلا مغرض جبان مقيد بالتقاليد العفنة وبالرغبات الحقـــيرة •

وتلعثم ســـيد ، وحاول أن يجمع إجابة ترد فـــوزى إلى بعض تواضع ، ولكن قبل أن يتكلم دخل جعفر وحسام ، وقبل أن يتبادل

الداخلان التحية مع الجالسين ، سارع سيد قائلا ، وكأنما هو غريق يجد منقذه :

ــ الله أكبر •• جعفر بك جاء •• سيريحنا أو سيريحنى أنا شخصيا من الرد عليك •• أنقذنا يا جعفر بك ــ أنا فى عرضك ــ فوزى يا جعفر بك •• فوزى يا أخى سيقتلنى بغروره •

ــ أولا وقبل الكلام عن فوزى ، ما هذه البك التى عادت إلى الظهور فى كلامك ؟

ــ والله تعودت ، سمعت أبى يقولها •• تعودت يا بك •• يا جعفر •

ــ نحن زملاء ، ولا أحب مطلقا هذه الطريقة •• والآن فلنعد إلى فوزى •• ماله •• فيم يتعبك ؟

ــ لا يعجبه أحد فى البلد إلا نفسه •

ــ هذا من حقه يا أخى •• ومن يعرف ؟ لعلنا جميعا نعجب بنفوسنا هذا الاعجاب •

فقال فوزى :

ــ أنا أتكلم عن الجرائد والناس ، وأرى أن الجرائد كلها مأجورة ، والناس قطيع وببغاوات وجهلة •

فقال جعفر :

أى ناس ؟

ــ الشعب •

ــ الشعب ؟! الشعب الذى تريد له المساواة قطيع وببغاوات •

ــ وما دخل هذا فيما أريده له ؟

ـ سبحان الخلاق العظيم •• إن مذهبك يرمى إلى جعل الشعب على درجة متساوية فى الغنى ، ومستوى المعيشة •

ـ لا يا سيدى ، ليس هذا فقط ما أريد ، وإنما أريد أن أثقفه •

ـ من هذا الذى يريد ؟

ـ المذهب الذى أراه •

ـ وهل المذهب سيثقف الشعب من تلقاء نفسه ؟

ـ لا •• سيقوم بذلك زعماؤه •

ـ ومن سينتخب هؤلاء الزعماء •• هل الشعب هو الذى سينتخبهم ؟

ـ نعـم •

ـ أهذا ما يحدث ؟

ـ إنهم الآن فى فترة انتقال ، ولابد أن يفرض الزعماء لفترة معينة، ثم ينتخبهم الشعب •

ـ ومن الذى يفرضهم ؟

ـ هم يفرضون أنفسهم •

ـ ومن يعطيهم هذا الحق ؟ •• كيف لهم أن يعرفوا أنهم أصلح الناس للحكم ؟

ـ لابد ممن يحكم ، وهم يملكون الجرأة •

ـ الجرأة وحدها ؟!

ـ لا أفهـم •

ـ بأى قوة يفرضون أنفسهم ؟

ـ بقوة السلاح •

ـ إذن فأنتم ترغمون الشـــعب أن يقبل حــكاما لا يريدهم ، وترغمون الشعب أن يرضى بلون من الحكم لا تعرفون رأيه فيــه ، وترغمون الشعب على أن يقبل نوعا من الحياة لم يتعودها ، ثم تتغنون بالحرية التى يجب أن يتمتع بهــا الشعب وبحق الشعب فى الحياة ، ولا تخجلون مع هذا أن ترموا الشعب بالجهل وبأنه قطيع •

ـ إنها فترة انتقال •

ـ إن فترة الانتقال فى ظل الدكتاتورية لا تنتهى •• لأن الحاكم حين يصل إلى كرسى الحكم ، يعلم أنه وصل إليه على غير حق ؛ فهو يحيط نفسه بالحرس ، ويفرض أوامره ، فاذا هى قوانين ، وينهب الأمــوال ، ويعيش عيشة رغــدة بلا رقيب ولا حســيب ، فالذين حــوله جميعا يتمتعون بما يتمتع به من رغد ، وتنشأ طبقــة حكام أغنياء ، وطبقة محكومين فقــراء ، وبنــاء على نظريتكم ، لابد أن تقوم ثورة أخرى لتتم المساواة فى الرزق ومستوى المعيشة ، ويسقط هؤلاء الحكام ، ويتولى الحــكم حكام آخرون ، وتتكرر المأســاة ، وكل حكم جديد يحتــاج إلى فترة انتقال •• فان سألت : انتقــال إلى ماذا ؟ وإلى أى مدى يدوم هذا الانتقال ؟ فلن تجد جــوابا ، ولكننا نحن نعرف الجواب •• إنه انتقال إلى الآخرة •

ـ نحن •• عن أى نحن تتكلم ؟•

ـ نحن أعداءكم الذين نحب الديمقراطية •• الشــعب يختــار حكامه ، ويختار من يمثله ليحاسبهم ، وتقف مهمته عند هذا ليفرغ إلى حياته •

ـ تقف مهمته !•• والذين يمثلون الشــعب هؤلاء •• أيقف عملهم

عند محاسبة الحاكمين ؟ أم أن عملهم الأساسى الرجاء لدى الحاكمين ، والسعى لانجاز الخدمات والمصالح ؟

ـ أولا أنا أحادثك عن النظام الديمقراطى فى عمومه ، وأنت تحادثنى عن النظـام الديمقراطى فى مصر •• وعلى كل حال الذين يسعون لدى الحاكمين يريدون أن يصنعوا خيرا لأفـراد من الطبقة التى لا تستطيع الوصـول إلى هؤلاء الحاكمين ، وما أرى فى ذلك بأسـا •

ـ والرشاوى التى يدفعها هؤلاء الفقراء ؟

ـ ذلك هو الفساد ، وهو فساد أشخاص ، وفساد الأشـخاص لا يعنى فساد نظام •

ـ نظام متعفن •• رأسمالى اقطاعى يقوم على النهب ، واستلاب أموال الناس ، قلة ضئيلة تبتلع أموال أمة •

ـ إذا بدأت الشتيمة فى النقـاش ، فمعناها أن الحجة ضاعت ، وعلى كل حال أنت تجور فى حكمك ، لأن هؤلاء الذين تقول عنهم أنهم يأكلون أموال الأمة هم الذين يدفعون الضرائب ، وهم الذين يعولون من حولهم من الفقراء ، ويمدونهم بالعون •

ـ يعتقدون أنهم متفضلون •• إنهم يعطون الفقراء من حقهم •

ـ لا يا سيدى •• إن الله قـد شرع نظاما للزكاة ، وإن كثيرا من الأغنياء يطبقون هذا النظام ، وإن الضرائب التى تفرضها الحكومة هى نوع من الزكاة التى شرعها الله •

وتدخل أحمد فى الحديث :

ـ الله •• الأفيـون •• المخـدر الذى تسكنون به القطيـع من أبنـاء الشعب •

ـ أحمد •• أنت فى أشد الحاجة إلى هذا المخدر •• لن أناقشك فى الله •• فاننا نحسه أولا ، ونؤمن به ، ثم نفكر فيه •• فحين تؤمن به وتحسه ، سأناقشك •

ـ تهرب من النقاش ؟

ـ لا ، وإنما أكبر الله أن يكون محل نقاش تافه كهذا •• سبحانه ، إننا نؤمن به ، ونحب أنفسنا ، لأنها تؤمن به ••

وقفز سيد واقفا :

ـ يسلم فمك يا جـعفر بك •• بك واحدة •• يا جـعفر باشـا يا جعفر ملك •

وقال أحمد ضائقا :

ـ هرج يا أخى هرج •• يا أخى آلا تتوقر من أجل ذقنك هذه ؟

وقال حسام فى ضحكة عريضة :

ـ هرج يا أبا سيد هرج ، ولا تهمك الذقن ، فو الله لا يعجبنى فيك إلا قلبك الأخضر مع ذقنك الوقور هذه •

وخرج فوزى من الحجرة جادا ، وترك من فيها يضحكون من سيد ، وما لبث أن عاد وهو يقول :

ـ أستأذن أنا •

وقبل أن يتكلم أحد ، مد يده مضمومة إلى هنـاء ، فمدت يدها إليه لتستقبل تحيته ، فاذا أنامله تنفرج فى يدها عن ورقة صـغيرة

محكمة اللف ، وذهلت هناء هنيهة ثم ما لبثت أن تمالكت أمر نفسها ، وسحبت يدها من يده ، وقد أصبحت الورقة فيها •

وكان أحمد مشغولا باثارة جعفر ، وحسام مشغولا بالسخرية من السيد ، ولم يكن منتبها إلى هناء إلا السيد الذى رأى كل شئ ، فانعقد لسانه واجما فى ذهول حيران ، يهم أن يمسك بتلابيب فوزى ويقتله ، ولكن يرده عن ذلك خشية أن يذيع ما ينبغى له أن يخفى لا سبيل أمامه غير الصمت ، فيصمه على ثورة فى نفسه تغتلى ، فما أسباب الحياة • وينشغل القوم فى توديع فوزى ، ويجد السيد أن وكبر المحب ، ووفاء المعترف بالفضل لهؤلاء القوم الذين يمهدون له من أمر هناء ، ويرد نفسه إلى الصمت فتثور عليه فى عزة الفلاح ، يهدأ لها أوار •

وما يكاد فوزى يخرج حتى يقول حسام :

ــ هناء •• هل رأيت سيارتنا الجديدة ؟

فما يند عن هناء غير « هيه » ذاهلة ، فيقول حسام :

ــ هوه •• أين أنت •• أقول لك هل رأيت سيارتنا الجديدة •

ويقول السيد فى نفسه : « يا خيبتك الكبيرة •• أتسألها أين هى سارحة •• اعلم يا خائب أنها سارحة فى شئ قريب جدا منك ومنها •• فى جيبها يا خائب •• مد يدك إلى جيبها •• ولكن لا •• لا تفعل ، فأنا أخشى عليها أن تفجع فى سرها •• وقاها الله السوء • •ولكن التنوء كله فى جيبها هذا •• أدركنى برحمتك يا رب •• ألهمنى الرشاد •• ماذا أفعل ؟ •• أترانى أفكر فى أمرها من أجل وفائى لأهلها ، أم من أجل حبى لها •• سؤال عجيب ، لماذا لا يكون للسببين كليهما ••

المهم الا أترك ابن الضـائعة هـذا يأخذ الفتاة من أهلهـا •• وهل أستطيع •• نعم إنى أستطيع •• إنى سأرقب هذا الفتى ، فمـا أجعله يغيب عنى لحظة •• وكيف •• إنى ذاهب الآن إلى اجتماع الأسرة •• لن أذهب •• طيب ، وكيف أستطيع أن أراقبه إذا ركب سيارة أحمد •• ما أظن أنى فى حاجة للمراقبة عندئذ ، فانه لن يذهب فى صحبته إلى لقاء غرامى مع أخته •• وما البأس على إذا أنا راقبت هنـاء •• هذا أجدى •• أم تراه أمتع •• يا أخى فكر فى هذه المصيبة أولا ، ثم فكر فى حبك اليائس •• على كل حال أنا هنا •• رقيب عليك يا ست هناء •• أينما ذهبت ، فأنا حيثما تذهبين » •

وصحا السيد من غمرته ليجد النقاش لا يزال يدور حول سـيارة حسام ، فجعفر يقول :

ـ عجيب أنت يا أحمد •• تركب سيارة فاخرة وتعيش فى قصر باذخ ، ثم تأخذ على الناس أن يركبوا ما تركب ، ويسكنوا فى مثـل ما تسكن •

ـ هذه ليست سيارتى ، ولا هو بيتى •

ـ يا أخى •• بع السيارة وتصدق بثمنها على الفقراء •

ـ هذه مشكلة تافهـة ، فما ثمن سيارة وسـط مستنقع الفساد •• النظام جميعـه فاسد ، رأسـمالى برجوازى •• إننى بسـيارتى أخدم الهـدف الذى أسـعى إليه ، ولو أن هـذا سر ما كان لى أن أبوح به •

ـ والله إن لم تبح به لمـا أحسست بالمتعة التى تحسها فيـه •• إنك لا تمشى خلف مذهبك هذا إلا من أجل ما تتوهم أنه أسرار •• تهاويل وطقوس ومراسم هى التى تغريك •

ـ هذا كلام الانحلاليين •

وقفز حسام عن كرسيه فى غضب :

ـ ليست هـــذه عيشة •• إن واحدا منـــا لا ينطق بكلمة حتى تنقلب إلى مناقشة وبرجوازية وانحلالية وديمقراطية وزفتية وبعد ، ألا نرتاح من هذه المصائب لحظة •• قل لى يا حبيبى يا أحمد •• قل لى يا أخى •• أتعتقد أن الرفيق الأعلى ، أقصد ستالين بالطبع •• أتعتقد أنه لا يضحك أبدا •• أتعتقد أنه لا يتكلم فى شىء آخر غـــير هذا الهذاء الذى تقوله •• إذن فعيشته سوداء •• أنا خارج يا أخى• واستمروا أنتم فى نقاشكم ••

وضحك جعفر ، وهو يقول :

ـ اقعد •• اقعد •• ولن نتكلم فى هـــذا •• اقعد وهرج كمـــا تشـــاء •

ـ لا يا أخى لن أقعد •• أنا ذاهب يا أخى إلى أصدقاء حمـــير مثلى •• يتكلمون عن •• النهاية •• هنـــاء معنا •• يتكلمون يا أخى كخلق الله الآخرين •• نضحك يا أخى نتمتع بحياتنا ولا ننكدها ، السلام عليكم •• يا هناء قولى لخالتك إننى خرجت ، وسأرجع متأخرا بعـــد السينما ••

وقالت هنـــاء :

ـ خالتى هنا •

فقال حسام وهو واقف بالباب :

ـ نعم إنها فى الدور الأعلى مع خالتى ومعها نوال •

وخرج حسام ، وقامت هناء وهى تقول :

ـ سأصعد إلى خالتى فانى من زمن لم أرها •

وقال جعفر :

ـ وأنا أيضا سأصـــعد معـــك لأرى عماتى •• آلا تأتى معنـــا يا أحمد ؟•

وقام أحمد متثاقلا وهو يقول :

ـ آتى •

وخلت الغرفة بالسيد ، فأبقى بابها مفتوحا ، واتخذ لنفسه كرسيا مواجها للباب ، ليرى هناء إن هى حاولت الخروج •

صــعد الثلاثة الى الدور الأعلى وتبــادلوا التحيــات ، وجــرى الحديث بين الجميع ، والتقط جعفر طرفا منــه وراح يتحدث ، ورأى أحمد الجميع ينصتون الى الحديث ، يضحكون أو يبــدون اهتماما يرتاح اليــه المتكلم •• وراح يسائل نفسه •• لمــاذا لا يستطيع هو أن يتكلم •• بل لمــاذا لا يستطيع أن يفعــل شيئا على الاطلاق •• جعفر يكتب فى المجلات ، وأنا أكتب ولا أستطيع أن أنشر شيئــا •• بل اننى لو خلصت الى ضــميرى لحــكمت على ما أكتب بأنه غــير صالح •• ولقــد لجأت الى الكتابة بعد أن حاولت الرسم فلم أفلح فيه •• ولن أنسى يوم أحضرت لى أمى هذه الكمنجة الفخمة ، ثم لم أستطع أن أعزف عليها شيئا •• لا شىء أنا •• لا شىء على الاطلاق •• اللهم الا المذاكرة والنجاح • المصيبة أن جعفر والرسامين من اخوانى والموسيقيين ، أغلبهــم يذاكر وينجح ، فبماذا أمتــاز عليهم • اننى فى هــذا البيت اله •• ان أحــدا لا يتمتع فى بيته أو فى ملــكه كمــا أتمتع أنا ، اشارتى أمر ، وكلمتى تقديس ، وأوامرى تنزيل من حكيم عليم ، على حــد احترامهم للحكيم العليم •• ولكنى إذا تركت هــذا

البيت فمـا أنا •• أنا لست شيئا الا منـذ انضممت الى اخـوانى هؤلاء •• أحسست أنى أفـكر للـكون جميعـه ، وأرسم الخطـة للعالم أن يسير عليها •• أنا فى ذلك المكان شىء خارج عن قطيع الناس ولكنى أريد أن أكون فيـه ذا سلاح •• نعم لم يبق لى الا القلم •• انه أسهل الفنـون ، فمـا يحتـاج الأمر فى الكتابة الا أن أخط على الورق •• ولـكن هؤلاء الصحفيين لا يعترفون بى •• يقـول جعفر «اقرأ» فهل قرأ هو •• نعم •• أظنه فعل •• ولكن جعفر آسن العقل ، لا حرية فى تفكيره ، ولا فى اتجاهه •• مقيـد بالتقاليد الآسـنة •• الحمد لله أنه كذلك •• والا انضم الى جماعتى •• وحينئذ لن أكون أنا شيئا •• بينما أنا الآن بينهم كاتبهم الأوحد •• لأن أحدا منهم لم يحاول الكتابة •• ولكن ماذا أكتب لهم ؟ ! •• بحسبى أنهم يطلقون على لقب كاتبهم •• وما هو بالشىء الهزيل •

ونظر أحمد فى ساعته ثم قال :

ـ سأترككم أنا فانى على موعد •

وقالت أمـه :

ـ أى موعـد ؟

فأخطأ أحمد عن عمد وهو يقـول :

ـ اجتماع •

ثم قال وكأنه يستدرك :

ـ اجتماع مـع بعض أصـدقائى •• سـنذهب الى السينما •• سلام عليكـم •

وكان جعفر مـدركا لـكل التصنع الذى افتعله أحمـد ، ولـكنه

سكت •• بينما تعلقت عينا هنــاء بأخيها هنيهة ، حتى اذا خرج من باب الغــرفة لحقت بــه ، وقبــل أن يهبط الدرجة الأولى من السلم قالت له :

ــ أحمــد •

ووقف أحمــد :

ــ نعــم •

ــ تأكــد من خلو المــكان من الجــواسيس يا أحمــد • • واذا شككت فى شىء فارجع يا أحمد •

فقال أحمــد فى تعاظم :

ــ لا تخاف •

ثــم راح يهبط السلم وهو يحس بعينى أختــه وهما ترقبــانه ، فزاده هــذا شعورا بالكبر والأهمية • وما لبث أن نفض عن ذهنــه كل ما فكر فيــه حين كان جعفر يتكلم •• فهــو الآن واثق •• واثق كل الثقة أنه شىء •• بل انه كل شىء •

(١٩)

قصد حسام الى بار الشباب حيث تعـود أن يقصد ، كلما ضـاق باعرض هناء عنـه ، أو كلما شقى بهـذه الأحاديث الطـويلة التى يسود بهـا جعفر وأحمد وفوزى الحياة فى وجهه .

الى هـذا المـكان يقصد ، وفيـه أصدقاؤه الذين نبتوا معـه من مغرس واحد وفى هواء واحـد ، تنفسوا الطفولة معا وها هم أولاء يتنفسون شبابهم فى اقبـال عليـه وتقـدير له والتذاذ بل احتفاء تجمعهم حول شبابهم هـذا المرح الطليق .

انهـم أبنـاء الحى ، جمعهم السكن ، وأحاطت بهـم جـدران الأفنيـة وأسـوار الحدائق منـذ هم أطفال يحملون ، أو منـذ هم أطفال يتعثرون ، ثم ما لبثت أن ضمتهم جـدران الفصول وأسـوار المدارس ، فأصبحوا وهم متلازمون قل أن يتفرقوا ، ثـم اتجهـوا الى الجامعة وقد مال أغلب جمعهم الى اختيار كلية واحدة ، لا عن رغبـة فى هـذه الـكلية ، وانمـا كان شأنهم فى ذلك شأن القطيع ، يسير خلف واحـد من أجزائه ليس بأحسنه ولا هو بأحكمه ، وانمـا سار طريقا معينا بلا سبب ولا باعث ، وسار القطيع من خلفه ليعفى نفسه من التفكير فى طريق آخر .

وكان أصـحاب حسـام يأخـذون حيـاتهم فى يسر كما يحب أن يأخـذها هـو .



آباؤهم يقومون عنهم بما يحتاجون اليه ، وهم الى الدرس وعنه رائحون غادون بياض النهار ، ثم هم مجتمعون على لعب حين كانوا أطفالا ، وقد راح هذا اللعب يتطور مع أعمارهم ، فبعد أن كان جريا بلا هدف ، شب قليلا ، وأصبحت الكرة تحدد أهدافه ، ثم شب مرة أخرى فأصبحت المرأة هي التى تحدد الأهداف والمتجهات • وقد يتخلف في مرحلة من مراحل اللعب فرد من القطيع ، ولكنه لا يني عن ملاحقة اخوانه في مراقي حياتهم ، فان أحب واحد من الصحاب الكرة وظل يلعبها ، فما يثنيه ذلك عن أن يحب المرأة ، بل لعله أحب الكرة ليغري بها المرأة ، أو لعله أحبها كبقية من ذكرى الطفولة ، وأخلاف من عمر حبيب ، وهكذا سار القطيع ، ان تخلف فرد تخلف بفلذة من كيانه ، ولكنه هو بجميعه يظل سائرا حيث يسيرون •

وكان « بار الشباب » أحدث مكان تواضعوا على الالتقاء فيه ، فهو حجرة قابعة في حي العباسية ، لا تكاد تتسع لغيرهم ، وأمامها رحبة بدائية الاعداد ، ويتنقلون هم بين الرحبة والحجرة حسبما يكون الجو ، ويتصدرهم أينما يجلسون سعد الصاحب أعظمهم جسما ، وأطولهم لسانا ، وأكثرهم حديثا عن مغامراته مع النساء • وقد حلت النساء عنده محل الكرة التي كان يروي لهم أيام غرامهم بها ، كيف هو قدير على التحكم فيها واصابة الهدف بها ، فان سألوه كيف وهو على هذا السمن المفرط ، ضحك وأخبرهم أن سمنه هو الذي يسهل الأمر له ، فما على زملائه في الفريق الا أن يسلموا الكرة الى قدمه ، وقدمه — من بعد — كفيلة بأن تصيب بها الاصابات جميعا ، وما عليه هو الا أن ينقل قدميه في هدوء وعظمة ، حتى يصل الى الهدف ، فما يجرؤ واحد من الفريق الآخر

أن يتقدم منه ، وكان اخوانه لا يحاولون أن يختبروا هــذه العظمة فيــه ، فهــم يعرفون قدرها تمام المعرفة • وكبرت الكرة وأصبحت امرأة ، وأصبح يقص على اخوانه تجاربه مــع النساء •• مــع جمع كبير من النساء ، كما كان يكتفى بغير الكثيرات منهن • وقــد كانت قصصه عن النساء أمتع ، وكان اخوانه يحبون منه هــذا الحديث ، لأنه خفيف الظل حــين يسوقه ، ولأن هــذا الحديث بالذات يدغدغ فيهم كوامن رغبات لاهبــة •

على أنهــم كانوا يعرفون طريقهم الى النساء ، وكان سبيلهم الى ذلك عبد الجواد أفنــدى الذى يبيع لهم السجائر فى « بار الشباب » وكانوا اذا شاءوا ، طلبوا اليه امرأة أو امرأتين حسبما يكون عددهم يوم يطلبون ، وكان عبد الجواد أفنــدى يهيىء لهــم كل ما يحتاج اليه الأمر من غرفة الى غير الغرفة ، وكان سعد دائمــا يشاركهم فى هــذه الاجتماعات ، فمــا يفت ذلك فى عضــده ، أو يثنيــه عن ذلك القصص الذى يرويه عن النساء •

وكان حسام من أهم أعضاء النــدوة ، وما كان حبــه لهناء ليمنعه عن شىء مما يفعلون ، فقــد كان الأمران فى ذهنــه مختلفين كــل الاختلاف ، وقد كانت هذه الطريقة فى التفــكير مسيطرة على أذهان اخوانه جميعا • فهناء حب وزواج وبيت وأولاد وصلاح وتقــوى ، وأما بار الشباب وعبد الجواد أفنــدى فضحك ومزاح وسخرية من كل شىء واقبــال على كل شىء ، واستقبال للحياة كأروع ما تستقبل الحياة ، فما عــرف هؤلاء الأصــدقاء أحلى من هــذه اللحظات التى كانت تجمعهم مهما يكن سبب اجتماعهم هــذا •

وقـــد كان حسام لا يجرى وراء امرأة ، ولا يستخدم سيارته فى تصـــيد محبـــات السيارات ، فما كان يحب من النساء الا هنـــاء •• والا ما يحضره عبد الجواد أفنـــدى وبتوصية من الاخوان ، وبحيث يشارك هـــو فى الموضـــوع بالمقدار الذى يشاركون به • ثم لا يهتم بأمر من النساء بعـــد ذلك أبدا •

ولم يكن « بار الشباب » مكانا لا تقـــدم فيـــه الا الخمر ، بل ان الصحاب قليلا ما تناولوا الخمر ، فان فـــكروا فيها فالمـــامة العازف عن الشيء لا يوغـــل فيـــه • وكذلك كان شأن حســـام ، فمـــا أحب الخمر يوما ، وما شربهـــا الا مـــكرها ليجارى الرفاق ، ولا يتخلف عن شيء يفعلون ، ولـــكنه لم يزد ، لأنهـــم هم لم يزيدوا الى الدرجة التى تتحول بهم من حساة الى سكار ى •

قصد حسام الى بار الشباب فى يومه هـــذا ، فوجد الجميع قـــد سبقوه ، ووجـــدهم واجمين بعض شيء ، وســـعد بينهـــم ، وأمامه كأس مترعة ، وعلى وجهـــه أمارات ألم يحاول أن يخفيها ، فتنحسر حينا عن وجهه لتبدو على وجوه اخوانه جميعا ، ثم يختطف الـــكأس فيفرغها فى جـــوفه سريعا ، ويطلب أخرى ويتكلم فى محاولة هزيلة للمرح لا تلبث أن تعيد الألم متنقلا بين وجهـــه ووجوه اخوانه ماثلا دائما فى الجو المحيط بهـــم •

وقعـــد حسام باهتـــا دون أن يدرى ما هم فيـــه ، ولا ما يرويه عليهم سعد ، فما تعـــود من سعد أن يروى غير ما يزيل كربهم ويروح عنهم ، وسمعه يقـــول :

ـــ أراكـــم متألمـــين •• أيهمـــكم شـــأن هـــذه البنت •• ما أكثر

البنات اللواتى وقعن فى حبى •• ألم يبق الا هــذه القبيحة ، أنا لم يضايقنى الا قولها يا « سمين » •• وكنت طول هذه السنوات أحبها •• وكنت أظنهــا تحبنى •• هات كأســا أخــرى يا بنى ••و المصيبة أن أباها • عمى هذا الجلف يطردنى من البيت • أنا لم أصنع شيئا حتى يطردنى •• لم أصنع شيئا على الاطلاق ، ولكن كيف لم أصنع ! •• ان أبى فقير •• فقير كأبيها يا ناس ، ولكن جاءها الولد ومعه العربة فأنا سمين وأبى فقير بنت الـ • النهاية •• ولكن أبوها عمى •• يطردنى وأنا لم أقل شيئا ، طردنى واللـــه ، لأنى أنتقد أن تخرج بنت عمى وحدها مع شخص غريب • كفرت •• ؟ ! هات كأسا يا بنى •

وقال حسام :

ـ لا تحضر شيئا يا بنى • ما دخل بنى فى هذا الذى ترويه ؟

وسالت الدموع على خدى سعد الكبيرين :

ـ تصـــور يا حسام ، من أجل سيارة •• سيارة أقل من سيارتك بكثير •• يطردنى الرجل من بيته ، وتقول هى ما شأنك يا سمين •• أين الكأس يا بنى ؟

ـ يا أخى اترك بنى •• وقـــم •• قـــوموا يا أولاد •• سنركب سيارتى ونمر بها عند بيتها ، وسأجعلك أنت تقـــود السيارة •

ويقـــول سعد ثائرا :

ـ أنا •• أنا أذهب الى بيتها •• أو فى شارع بيتها ثانية •• أبدا أين الـــكأس يا بنى •• أنت عارف يا حســـام كم امـــرأة وقعت فى غرامى ، ولكنى كنت أحبها • أحبها هى •• مالـــكم هكذا ؟ اضحكوا ماذا ؟ أهى مصيبة ؟

وأحضر ينى الكأس أخيرا ، وحاول حسام أن يمنعه من تقديمها ، ولكن سميح مال الى أذنه وقال له :

ــ اتركه يشرب ، فان الخمر تريح فى مثل هــذه الأحوال •

وترك حسام الــكأس تأخذ طريقها الى سعد ، وقال هو لسعد :

ــ فى رجلك •• والله ان « زعلت » تكن امرأة •• أى امرأة تلك التى تبكى من أجلها •• نصف نساء البلد يحببنك •

ودارت أنظــار الصحاب الى حســام يعجبــون من جــرأته فى الكذب ، وزاد عجبهم من سعد أن صــدق هــذا الكذب وهو يقول فى بعض راحة :

ــ أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟

وقال حسام :

ــ وكلنا يعــرفه •• أين عبد الجواد أفندى •• أين عبــد الجواد يا سميح ؟ ألم تره اليوم ؟

وانصرفت الجماعة الى البحث عن عبــد الجواد أفنــدى ، حتى اذا ما عثرت عليــه راحوا يهيئون معه سهرة الليلة ، فانشغل معهــم سعد ناسيا أمر عمتــه وحبــه الضائع ، ولم يعــد يذكر شيئــا الا عبد الجواد أفندى وما يعــده لهــم •

(٢٠)

كانت هنـــاء قــد اختلست التليفون الى حجرتها ، وأقفلت رتاجها فأمنت أن يعتدى أحــد على خلوتها وأقامت تنتظر •• ولم يطل بها الانتظار ، فقــد دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، ولــكنها لم تسمع من الطرف الآخر صوتا حتى قالت هى :

ـ نعــم •

وتكلم الصوت همسا كمن يريد أن يخفى حقيقة نبراته !

ـ هنـــاء •

وقالت هناء :

ـ نعــم •

ـ كيف أنت ؟

ـ الحمد للــه •

ـ هل أقلقتك ؟

ـ لا أبدأ •• ما أخبارك ؟

ـ لا أخبــار •• لم يطلع الفجر بعــد ، ولكنه سيطلع حتما على هذا المجتمع الآسن ، وعلى هذه العقول الرجعية الجامدة •

ـ قل لى يا فــوزى ، أنا أعــرف أنك ذكى ، ولــكن ألا يعجبك أحد آخر فى هــذه الدنيا ؟

ـ أنت •

ـ فقط ؟

ـ فقط •• الآخرون كلهـم يتبعوننى فى إفهامهم • انهم يخشون الحقيقة •• انهم مقيدون برجعيتهم ••

ـ كلهـم ؟ !

ـ كلهم الا أ نت •• أنت •• أنا معجب بك •• معجب بعقلك !! أنت غير الناسُ الذين أراهم فى بيتك جميعا ، ان أفكارك تقدمية واعية ، وتقبلين الآراء الحرة فى جرأة •

ـ أفكارى أحسن من جميع الذين تراهم •

ـ جميعا •

ـ حتى جعفر •

ـ أغرك هـذا التافه بحديثه المنمق •• أم لعله يعجبك لأنه غنى وابن باشا •• طبعا هـذه مسائل أخرى لا طاقة لنا بها •

ـ على العكس •• أنا أرى أنه لا عيب به الا غناه •

وقال فوزى :

ـ أترى هـذا رأيك حقا ؟ أم أنك تجاملينني ؟

ـ بل أنت تعرف أنه رأيى •

ـ أنت أعظم الناس •• ولكن لمـاذا •• لمـاذا يا هنـاء •• لماذا تكرهين الغنى ؟

ـ أكـره المـال •• أكرهه لأنه •• أكرهه والسلام •• ما يهمك أنت •• ؟

ـ متى أراك ؟

ـ غـدا •

ـ الساعة السادسة ؟

ـ الساعة السادسة •

ـ فى نفس المكان ؟

ـ ولم لا ؟

ـ واللــه لا أعرف •• أخاف أن يرانا أحــد •

ـ أنا لا أراك تخاف أحــدا •

ـ أنا لا يهمنى أحــد الا أنت •• أنت وحدك التى أهتم بهــا •• وأحيالها ••• أنت •

ـ على مهلك •• إن كلامك هذا يناقض أفكارك واتجاهاتك •

ـ وما هى أفكارى واتجاهاتى ؟

ـ أنت تقــول : إنك تحب أن ترانى لأنك معجب بعقليتى ، وتحب أن يلتقى عقلانا بعيدا عن أعين الناس وعن تفاهاتهم •

ـ وهل يمنع هذا من الحب •• ؟

ـ ولكن الحب ضعف وتخاذل وإبعاد عن التفكير العملى السليم ، ووقف لميكانيكية الحيــاة ، والحب عاطفة ، والعاطفة تفسد الأعمال الكبرى التى يجب أن نضطلع بها فى هذه الفترة •

ـ ولكن ماذا يمكن أن نفعل •• كيف نتحكم فى قلوبنا ؟

ـ عجيبة •• أتسألنى يا أستاذ •• أنا أعيد ما أسمعه منك ••

ـ حين نلتقى نبحث فى هذا •

ـ أمرك يا أستاذ •

ـ فى نفس المكان ؟

ـ فى نفس المكان •

(٢١)

كانت الأضواء المتهافتة تنبعث من المصابيح فى خوف ، فما يستطيع نورها أن يفســح لنفســه مكانا وســط الظــلام ، فالمكان مرتعش الضــياء ، تتبين فيــه الهيــاكل والشــخوص ، ولا تتبين الملامح أو القسمات .

وكان فوزى جالسا مع بعض شباب آخرين تبدو على وجــوههم سيماء الاهتمام الكبير .. منهم من يصطنع هــذا الاهتمام ، ومنهم من لا يستطيع أن يضع على وجهه تعبيرا آخر غير هــذا ، لأن وجهه جاد بطبيعته ، فما يملك أن يكسبه غير ما يكسوه من حزم وصرامة ، ويبدو بعض منهم آخر مهتما غاية الاهتمام بما يتخــذه من هيئــة وأردية ، فالقميص أسود ، ورباط العنق أحمر ، وشــعر رأسه كث غزير ، وعيناه تستتران وراء منظار ، وهو لا ينسى بين هنيهة وأخرى أن يرفع إحدى يديه إلى شىء من هــذا المهرجان الذى يتخــذه .. فقد يصلح شأن رباطا رقبته ، أو قــد يمسك بطرف نظارته فى وقار شديد ، أو يمر براحته على شعره ، وهو يأتى جميع هــذا متظاهرا بأنه لا يهتم بشأن شىء مما يتفقده ، ولكن هــذه اللمسة الصــغيرة تبين لمن يراه أنه لا يهتم إلا بشعره وقميصه ورباطه ونظارته .

وكان المكان زاخرا بالهمس ، يتجمع فيصبح ضجيجا لا ترتاح إليه الأذن . وكان فوزى منهمكا فى حديث مع بعض إخــوانه حين أحس بهذه الضجة ، فلم يلبث أن نظر فى ساعته ثم قال :

ـــ أيها الرفاق ، اجتماعنا اليوم مهم غاية الأهمية ، فالرفيق زكى قد عاد من موسكو ، وسيروى علينا ما شـــاهده هنـــاك ، وما يجب علينا أن نفعله حتى نصل إلى الكمال المذهبى •• ولكن ينقصنا واحد ، هو الرفيق صالح •

وحينئذ قال أحد الرفاق فى جد :

ـــ طالمـــا قلنا إن الرفيق صالح لا يصلح لنا ، ونحن حين نقبله نخالف تعاليم أحد فلاسفتنا ، وأظنه انجلز الذى يعتقـــد إن ضم الأغنيـــاء إلى حظيرتنا خطأ كبير ، لأنهم يضـــطرون إلى معارضـــة مصالحهم الشخصية ، ولأن العدالة التى نهدف إليها لا بد أن تصيبهم هم إصابة بالغة •

ورد فوزى فى إصرار مدافعا عن صـــديقه أحمد •• فلم يكن صالح هذا الغائب إلا أحمد فى اسمه الحركى ، قال فوزى :

ـــ إن الرفيق صالح معنا منـــذ وقت طويل ، وقد أثبت جـــدارته فى أشياء كثيرة ولا ننسى أنه كان يمدنا بالمـــال ، حين كان المال يتأخر عنا ، ثم أنت تنسى أن مولوتوف من الأغنياء •

ـــ هذا خطأ لا بد أنه سيصحح •

ـــ أظن أننا لم نصل إلى درجة انتقاد الحزب •

وقبل أن يتمادى بهم النقاش ، دخل أحمد وهو يقول :

ـــ أنا آسف أيها الرفاق تأخرت مرغما •

وسارع فوزى قائلا :

ـــ لا بأس يا أحمد •• يا رفيق صالح ، آن لنا أن نسمع إلى الرفيق زكى •• أيسمح حضرة المسئول بأن يطلب إليه الكلام •

ووقف فى صدر القاعة شاب قصير القامة ، يضع على عينيه نظارة سوداء قاتمة ، وتكاد النظارة تخفى خديه الغائرين اللذين يحيطان بفم دقيق ، فيه صرامة ، وفيه احتقار لكل شىء ، وفيه حقد على كل شىء •

ذاك هو المسئول ، وهو رئيس هذه الخلية •• وقف فلم يزد على أن قال :

ـ الرفيق زكى يتفضل •

ولكن أحدا لم يتقدم •

فقال المسئول مرة أخرى :

ـ الرفيق زكى •

فامتدت أيد كثيرة إلى ذراع شاب طويل القامة ، أشهب اللون ، مشدود جلد الوجه ، جامد القسمات ، فقال فى تؤدة قائلا :

ـ أيها الاخوان ، إن اسمى فؤاد زين العابدين •

فثارت فى القاعة ضجة كبيرة ، ودق المسئول النضد الذى أمامه بعنف وقال :

ـ ننبه الرفيق زكى إنه يفشى سرا ما كان له أن يبوح به •

فاستأنف فؤاد حديثه وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ إن إسمى هو فؤاد زين العابدين ، وكلكم يعرف ذلك ، وقد قصدت أن أجىء اليوم إليكم لأكشف عن عيونكم عصابة من الجهل •• أنتم فى خطر ••

وثارت الضجة مرة أخرى ، وقال المسئول بعد أن دق النضد :

ـ إذا كانت السلطات الغاشمة تبحث عنا ، فليس للرفيق أن يفضى بهذا للرفاق ، وإنما كان عليـه أن يبلغنى أنا لأبلغ المحترف ونتلقى منه الأوامر .

وقال فؤاد دون أن يلتفت إلى المسئول :

ـ إن الخطر فى أنفسكم .. لقد جئت منذ أيام قليلة ، ولا أعرف شيئا عن السلطات هنا .. أيها الاخوان ، من شاء منـكم أن يتخلى عن انسانيته ، ومن يشأ منكم أن يصبح قطعة حقيرة من جماد ، ليس فيها من مشاعر الانسانية إلا شعور الخوف الراعد ، والفزع والقلق . ومن يشأ منكم أن يصبح شيئا بلا حرية ولا شـعور ولا تفكير ، شيئا ليس فيه بقيـة من آدمية إلا أن يسمع فيطمع ، وإلا أن يظل مرتعشا أن يكون قـد أخطأ السمع ، أو أخطأ الطـاعة ، من يشـأ أن يفقد انسانيته جميعا .. من يشـأ أن يصبح كذلك ، فليظل على هـذا المذهب الذى تعتنقون .

وثارت الأصـوات بالقـاعة ، فمن قائل « مـروق » ومن قائل « خيانة » ومن قائل « برجوازية » ومن قائل « انحلال » ومن قائل « رجعيـة » .

وثار بالقاعة أيضا جو قاتم عقد ألسنة كثيرة من الخوف ، وعقـد ألسنة أخرى من الدهشة .. حتى المسئول ظل فترة طويلة لا يملك زمام نفسه ، ثم انتبه آخر الأمر إلى موقفه هـذا ، فدق النضـد بيده ، ثم قال :

ـ نعتقد أن الرفيق .. آسف أن فؤاد زين العابدين قـد أصبح برجوازيا ، وأنه اتصل بأصحاب المذاهب الرجعية ، وبهـذا أصبح خارجا عن خليتيا ، وإنى أعلن فصله عنا .

واكمل فؤاد حديثه :

— الادميون هناك لا قيمـة لهم •• لقد قال لى بعضـهم : إنهم يحيون شعور الخوف ويغذونه فى أنفسهم ، لأنه الشعور الوحيد الذى يربطهم بالآدميـة ، وهم لا يريدون أن يتخلوا عن آدميتهـم •• لا يريدون برغم اصرار السلطات على افقـادهم لهـذه الآدمية •• الانسانية التى يتغنى بها المذهب لا وجـود لها على الاطلاق •• هناك كل شىء إلا الانسانية •• الانسان قطعة من المهمل •• السلطة تهتم بمسمار فى آلة أكثر من اهتمامها بحيـاة انسان •• الفقر مدقع ، والحكام يعيشون فى بذخ دونه بذخ القياصرة •• كل ما يتغنون به من حقوق الانسان كلام أجـوف لا تطبيق له •• الأفـراد والأسر يعيشون عيشة الحيوانات المذعورة التى تعلم أن الصـياد وراءها دائما ، والصياد لا يرتاح ، والحيوانات لا تستقر •• الخوف والرعب هما كل الحياة ، المقدسات لا وجود لها •• أيها الاخوان ، لو لم أر هنـاك إلا الخوف والرعب اللذين يحيا فيهما القوم لكان هذا كافيا لأن أعتزل مذهبهم •• أيها الاخوان ، سأترككم بعد أن ألقى عليكم تحية الاسلام دين المشـورة ، ودين الأمن والاستقرار وأرجو أن تجيبـوا تحيتى وتتبعونى إلى الهـواء الطلق •• السـلام عليكم ورحمة الله •

وبهـذه الجملة الخطابية خرج فؤاد من القاعة فى هـدوء ، وكأنه لم يستثر كل هذه المشاعر •• وران الصمت على القـوم •• صمت حائر لا يدرون أيصدقون هذا الوافد عليهم من مصـدر مذهبهم ، أم لا يحفلون بما قال •• تزعزعت الثقة فى النفوس ، ولكن المسـئول سارع قائلا :

ـ لا شك أنـكم تعـرفون أننا نحارب بكل الوسائل والطرق ، ولا شك أنكم قد سمعتم هذا الكلام قبل اليوم ، فهو كلام أعدائنا ، ولقد انضممنا إلى هـذا المذهب بعد أن وثقنا به كل الثقة . فاذا كان لهذا الحديث الذى سمعناه الآن أى أثر فى نفوسنا فمعنى ذلك أننا نستهين بعقولنا ، ونستهين بكرامتنا ، وبمبادئنا .. ولا أظن أننـا ضعاف العقيدة لدرجة أن حديثا كهذا يجعلنا نشك فى المبـدأ الذى ضحينا فى سبيله بكل شىء .

والتمعت ابتسامة على شفتى فوزى ، فهو يعلم أن المسـئول لم يضح بشىء إلا بتوقيع شهرى يقبض فى مقابله مبلغا من المال ضخما ، ولكن هذا لم يمنعه أن يقول :

ـ بطبيعـة الحال أيهـا الرفيق ، هذا كلام انحـلالى ، رجعى ، برجوازى ، وإننا نسمعه كل يوم ، فنرجو منك أن تعتبر الأمر كأن لم يكن ، وتدخل فى جدول الأعمال .

وكالقطيع التائه راح الآخرون يرفعـون ثغاءهم مؤيدين قـول فوزى ، وأخذ المسـئول فى حديث آخر .. حديث متخبط ، فما كان يدرى ماذا يقول ، بعد أن أفسد عليه فؤاد برنامج الليلة .

وانتهى الاجتماع ،وخرج أحمد ، مسرعا متجاهلا نظرات فوزى إليه ، التى كانت تدعوه لينتظره ، لم يكن يريد أحدا ليسير معـه .. كان يريد أن يخلو لنفسه .

يبدو على فؤاد زين العابدين أنه صادق فيما قال ، ولكن كيف يترك الخلية .. ماذا يصبح إذن ؟ .. إنها كل شىء له .. كيف يترك هـذا العمل الكبير .. أهو العمل الكبير الذى يجذبه إليها ، أم تلك التهاويم

والطقوس ، أهو العمل الكبير ما يجذبه إليها ، أم أنه أصبح وله اسم آخر ، وأنه يتخفى من العيون ، وأن عيــون السلطات تتابعه ، وأنه ذو أهمية بالغة فى دوائر الحكومة والأمن العــام . إنه يهرب إلى هذا المذهب من الفراغ الذى يعانيه فى حيــاته ، إنه يهرب إلى الرفاق من فشله فى كل شىء حاوله ، وهو الذى لم يعرف فى بيته الفشـــل أبدا ، لم يسمع كلمة « لا » فى بيته أبدا ، ولكنه سمعها حين أراد أن يكون موسيقيا ، وسمعها حين أراد أن يكون رساما ، وسمعها حين أراد أن يكون كاتبا .. سمع «لا» صارمة ليس فيها رقة ولا مجاملة.. لقــد رفضه الفن .. ولم تقبله من جنبات الحياة إلا هذه الخلية التى يستخفى فيها من حقيقة فشله ، ومن حقيقة الحيــاة التى أبت أن تعطيه إلا مالا ضخما هو أمه ، دون حتى أن تكمل هبتها بأب يستطيع أن يحترمه .. ويله من أبيه .. إنه هو من جر عليه كل هــذا البلاء الذى يعانيه .. إنه أب بلا ضــمير ، بلا كرامة .. بلا تقــدير لأى معنى كريم .. لمــاذا تعطى الطبيعة لجعفر أبا مثل وصفى باشا ، وتبخل عليه بأب شبيه .. لقد كان يريد أى أب يحترمه .. لا ضرورة أن يكون باشا ، ليكن مثل عمه سامى زوج خالته.. إنه رجل محترم .. ولكن هذا الأب الذى رماه به الزمان والذى يأبى أن يحترم نفسه فى أى مكان .. حتى فى وظيفته حقــير .. إنه أوشك أن يلوث وصفى باشا .. بل إن جريدة معارضة لوصفى باشا عرضت برشوة معينة .. أخزاه الله .. لقد كفرت بالله من أجله .. لم أتصور أن يقول الله العالم بعباده إن الرجال قوامون على النساء .. أمثل هذا يكون قواما على أمى .. فى أى شريعة يكون ذلك .. لا .. أنا كافر بهذا الدين ، وكافر بهذا الله الذى يقول إن أبى قــوام على أمى .. والذى يقول واخفض لهما جناح الذل من الرحمة .. أخفضه لأمى .. نعم ، ولكن

لأبى هذا •• كيف ••؟ ألا أقول له أف •• أقسم •• أقسم بماذا !••
أقسم بشرفى أننى أقول أف كلما ذكرت أبى •• أقولها فى نفسى ولو
كانت لى بعض جرأة لواجهته بها •• بل إنى كثيرا ما أجيب حديثه
بشىء من الكبر •• لا •• لا أستطيع أن أحترمه •• ولا أن أحترم دينا
يحترمه •• كيف أترك مذهبى إذن ؟ •• وإلى أين مصيرى إن تركته ••
فى أى ناحية من نواحى الحياة يكون تفوقى •• الشهادة الجامعية
فى يد الآلاف ، لا بد أن أكون شيئا غير هذه الشهادة ، وأى شىء يمكن
أن أكون ؟ لا مكان لى إلا هذه الخلية •• هى مجدى •• وهى
مجالى •• وليقل فؤاد ما يشاء أن يقول ، فما أستطيع أن أطيعه ••
لا •• لا أستطيع •

(٢٢)

على المقاعد الحجرية •• فى مرفأ القارب •• جلس فـوزى مطرقا مفكرا •• أيستطيع ان يصل ؟! وكيف !؟ أتصبح هنـاء ابنة سـهير هانم ابنة أحمد باشا شكرى لى ؟•• أيمكن هذا ؟•• ولم لا ؟ وإلا فما مجيئها إلى ، وما اهتمامها بى ؟ وحرصها على حديثى ••؟ نعم ، ولكن أيمكن هذا ؟ أنسيت من أنا ؟ وكيف تلتقى بأمى وأبى ؟ كيف ؟ أبى !! أبى ذلك الرجل الذى لم أعرف فى يوم من الأيام نوع تفصيل الحلة التى يلبسها ، ذلك الموظف الصغير •• الصغير جدا بوزارة الأوقاف ، والكبير •• الكبير جداً فى العمر يصبح حما هنـاء •• وأمى •• ماذا هى قائلة لها ؟•• أمى تصبح حماتها ؟ أمى التى لم أسمعها يوما تتحدث إلا عن مهارتها فى صنع الملوخية •• كيف أصل بينها وبين هناء ، وفى أى موضوع يمكن أن يدور الحديث بينهما ، وكيف ستحس أمى بالراحة وهى تتحدث إلى هناء •• وأبى •• نعم عودة إلى أبى •• ذلك الرجل الذى لا يزال كل بضعة أيام يدخل إلينا شاحب الوجه ، مضـطرب الحديث ، راعش الأوصال ، فنعـرف أن رئيس القلم — نعم رئيس القلم فقط — قد استدعاه ، وكلفه ببضعة أعمال •• أبى هذا يصبح حماها •• كيف سـيحادثها ، كيف سيكون الحـال بينهما •• كيف سيعاملها •• ؟! ما شأنى أنا بكيف سيعاملها ، وكيف ستعامله •• إنها ستصبح لى •• هى بكل أمجادها •• ومالى أخشى أن أقـول •• هى بكل ثروتها •• أليس هـذا التفكير برجوازيا •• نعم •• إنه يصبح

برجوازيا لو أفصحت عنه ، ولكن ما دام فى نفسى لا تعرف به إلا نفسى ، فهو بعيــد عن البرجوازية كل البعــد •• أظن أننى كنت موفقا كل التوفيق فى التأثير عليها ، وما أظن إلا أنهــا ستقبلنى ••

ولكن ماذا هى قائلة لأبيها •• أقصد لأمها ، فما أبوها بذى شأن •• لا أدرى •• ولكن أترضى بى ؟ •• ولم لا ؟•• إنها خيالية فى تفكيرها ، وقد تقبل الزواج لتحقق آمالها من الزواج بفقير •• ما الذى يدعوها إلى هذا •• لعله زواج أمها الفاشــل ، ولكن أباها نفسه فقير بالنسبة لأمها فيما أعلم ، لا أدرى •• إن للأغنياء جنونا •• وما أحب هــذا الجنون إلى •• فبــه أستطيع أن أصل إلى الأمل المنشود •• وما لى ولأمى حينذاك ولأبى •• على أن أشــق طريقى فى الحيــاة •• فإذا تزوجتها فطريقى رغد وهنــاء ••

وقطعت هنــاء تتفكيره بقدومها :

ـــ هنــاء •

ـــ تأخرت عليك ؟

ـــ نعــم •

ـــ دقائق •

ـــ هى عندى سنوات •

ـــ لا •• كنت أنتظر تعبيرا جديدا •

ـــ وأى جديد تريدين ؟

ـــ لا أدرى ، ولكن هذا التعبير استعمل كثيرا •

ـــ وما أدراك ؟

ـــ اقــرأ •

ـ آه •• صحيح •• نسيت أنك تكثرين من القراءة •• فأنت من قراءتك فى أحلام لا تنتهى •

ـ وأنت ، ألا تقرأ ؟

ـ بالقدر اللازم •• فالقراءة البرجوازية تفسد الأفكار •

ـ أهناك قراءة برجوازية ؟

ـ نعم قراءة القصص •

ـ كل القصص ؟

ـ لا بالطبع •• القصص التى لا تتحدث إلا عن الحب والعشـق والهيـام •• هذه قصص لا فائدة منها •

ـ أرأيت ؟! ومع ذلك تحدثنى عن الحب ؟

ـ نعـم •

ـ كيف ؟

ـ هذه مشاعر لا يمكن التحكم فيها •

ـ ولكن هذا يخالف مبدأك ؟

ـ لا أبدا •• أنا أقصد الحب غير عملى •• أما حبى لك فعـملى واضح •• ولولا أننى أخشى من أشياء كثيرة لطلبت يدك •

وأطرقت هناء فى خجل ، وأكمل هو حديثه :

ـ إن ذكاءك أعظم من الخجل •

وظلت هناء على خجلها ، واستطرد هو :

ـ طبعا يا ستى •• وأين أنا من حسام ، أو من جـعفر ، أو من هؤلاء الأغنيـاء الذين يتمنون رضاك •• أنا رجل فقير ، أبى موظف صغير ، وسيظل صغيرا إلى أن يخرج إلى المعـاش ، وأمى امرأة



بسيطة ، وكل ثروتنا لا تتعــدى نصف البيت الذى نعيش فيه ومرتب أبى ، أين أنا •• ؟

وأحس فوزى أنه يمسك بالخيط البالغ إلى قلبها ، فلم يترك هذا الحديث ، واندفع فيه فى اسهاب وقدرة واستغراق ، حتى لم يحس بســيد ، وهو يطل عليهما منا لحــديقة ، ولم يحس به وهو ينصرف عنهما •• لم يحس شيئا من ذلك ، ولم يسكته إلا حين رفعت هنـــاء وجهها عن الأرض ، والتقت العيون •

* * *

كانت سهير جالسة بالدور الأعلى حين أقبل عليها عم دهب ، فعجبت من صعوده ، فما تعود ذلك إلا إذا كان يريد أمرا هاما •

ــ خير يا عم دهب •

ــ والله يا ست لا أدرى •

ــ وكيف لا تدرى ؟

ــ السيد بن عبدا لبديع أفندى •

ــ ماله ؟

ــ يريد أن يقابل سعادتك •

ــ يقابلنى أنا ؟!

ــ نعــم •

ــ لمــاذا ؟

ــ والله لقد رفض أن يقول لى •• رفض رفضا باتا لم أتعوده منه طول عمره •

ـ عجيبة •• دعه يصعد •

ولم يتكلف عم دهب أكثر من أن نادى :

ـ يا سيد أفندى •

ورجع صدى صوته بسيد ، وحيا السيد سهير فى أدب ، ثم نظر إلى عم دهب الذى انصرف متعجبا ، وأقفل السيد باب الحجرة ؛ ووقف فى اضطراب ، وقد أخذت لحيته ترتعش مع شفته ، حتى استطاع أخيرا أن يقول :

ـ يا ستى سهير ، أنا وأبى وجدى نشأنا فى بيتكم ، فان لم نحفظ لكم الفضل ، فنحن كفار •

ـ قل يا سيد ما تريد •

ـ ستى هناء ••

وفرجت سهير فاها ، وأنعمت فيه النظر فى دهش ، واستطاعت بصعوبة أن تقول :

ـ مالها ؟

ـ والله يا ستى أنا حائر لا أدرى ماذا أقول ، ولكنى أيضا لا أستطيع أن أسكت •

وقالت سهير وهى واجفة لا تزال :

ـ قل مالها •

ـ إنها تلتقى منذ زمن بعيد بفوزى صديق أحمد بك •

ـ ماذا ؟

ـ وفوزى هذا ولد ضائع •• وقد رأيتهما الآن معا •• يا ستى أنا آسف ، ولكنى لم أستطع أن أسكت •

وقالت سهير ذاهلة :

ـ أشكرك يا سيد •

ـ أستأذن يا ست هانم •

واستدار السيد يريد أن ينصرف ، فاذا الباب يفتح ، وتدخل منه هنـــاء ، فيتنحى السيد عن فرجة الباب ويطرق برأسه إلى الأرض ، وتنظر إليه هنـــاء بدهشة بالغة ، وتظل رانية إليه لحظات ، ثم يبين على وجهها كأنها فهمت ، فتصرف عنه عينها وتدخل الحجرة ، ويخرج هو متعثرا مطرقا لم يرفع رأسه •

ونظرت هنـــاء إلى أمها ، فوثقت أن ما فهمته هـــو الحقيقـــة •• ووجدت هنـــاء نفسها مضطربة ، فقد كانت تعد نفسها لأن تقول هى لأمها ما انتوت •• أما أن يسبقها النبأ •• وتلاقيها أمهـــا بهـــذا الوجه المكفهر • فهـــذا ما لم تكن تتوقع •• ولكن ما يهم •• أنها قد عزمت •• قالت الأم :

ـ أصحيح ما سمعت يا هناء ؟

وقالت هناء فى حزم :

ـ نعـــم •

ـ صحيح ؟

ـ نعـــم •

ـ كيف •• كيف يحدث هذا ؟

ـ أليس لى الحق أن أختار ؟

ـ تختارين ولدا ضائعا فقيرا لا يملك شيئا !؟

وقالت هناء فى ثورة :

ـ أنا أكره المــال •• أنا أكره المــال وسيرة المــال •• أبى تزوجك من أجل المــال فقط ، فانظرى إلى حياتك •• أبى لا يهتم بغير المال •• جمع المــال وبدد احترامنا له •• وفقد احترامك •• وفقد احترام الخــدم •• أنا أكره المــال •• أكرهه •• لا أحب الغنى ، ولا أحب الأغنياء ، ولا أريد المــال •• لا أريد المــال •

وطفرت الدموع من عينى سهير ، ولكنها تمالكت أمر نفسها سريعا ، وجففت دموعها ، محاولة أن تخفى الدموع ، وتخفيهــا عن ابنتها ، وحاولت ببقايا روحها المبهورة الكســيرة أن تلتقى بابنتها فى ثورة كثورتها !

ـ حمق •• حمق هذا الذى تقولين •• حمق وخرافة •• إن كان أبوك قد تزوجنى من أجل المــال ففسدت حياتى ، فلأى سبب تعتقدين أن هذا الولد يطلبك •

ـ لا أدرى لأى سبب ، ولكن ليس من أجل المــال •

ـ أيتها الحمقاء •• كيف تعرفين ؟

ـ أنا لست طفلة •• كلامه لا يدل على أنه يريد مالا ••

ـ لن يكون هذا •• لن يكون هذا أبدا •

وقالت هنــاء فى حزم :

ـ أظن أنه يحسن أن يتم هذا برضاك •

وفطنت سهير لمــا تقصد إليه ابنتها ، ولكنها لم تصدق ما سمعت ، فهى تقــول :

ـ ماذا تقولين ؟

وأعاده هناء الحديث فى إصرار :

ــ نعم يحسن أن يتم هذا برضاك •

وقالت الأم ذاهلة •

ــ ألهذا الحد ؟

وقالت هناء وهى على إصرارها لا تزال :

ــ نعـــم •

ثم تركت الغرفة ، وخرجت واثقة الخطوات ، حازمة القسمات ، وظلت أمها تنتظر إلى ظهرها وهو يغيب عنها ، فما ردها غيابه عن أن تظل مثبتة العينين إلى حيث اختفت ابنتها ، ذاهـــلة النظرة ، والهة حسرى ، تتنزى نفسها ألمـــا وخوفاً وحيرة •

(٢٣)

كان أحمد جالسا فى حجرة مكتبه حين دخل إليه السيد حليق اللحية ، لا يزال الدم ينهمر من مواضــع كثيرة فى وجهــه ، من أثر السرعة التى أزال بها لحيته ، وكانت عيناه تائهتين فى نظرة هالعة ، وجسمه جميعه ينتفض فى خوف راعد ، ولم يلتفت أحمد من أمره إلا إلى هذا الجديد الذى طرأ عليه ، فقال فى سخرية ضاحكة :

ــ الله •• شيخ سيد •• ذقنك •• أين المرحومة ؟

وأجاب سيد فى هلع غير مكترث بمزاح أحمد :

ــ أحمد •• البوليس يبحث عنى •

وارتسمت على وجه أحمد أمارات الجد وهو يقول :

ــ ماذا ؟؟ •• البوليس ؟ لمــاذا ؟

ــ منذ مقتل النقراشى والحــكومة تقبض على أفــراد الجمــاعة جميعهم •

وضحك أحمد محاولا أن يهدىء من روع السيد ، وقال له :

ــ ما هذا الكلام ؟•• وأنت ما دخلك بمقتل النقراشى ؟

ــ لقد قبض على جميع زملائى •• وأعتقد أنهم سيقبضــون على حالا •• أحسن طريقة أن أترك البيت •

وقال أحمد ساخرا ، فمــا كان يعتقد أن للسيد هــذه الأهميــة كلهــا :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟•• أنت تخيف نفسك بلا مبرر •• وعلى كل حال ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أريد أن أهرب ، وسأتصل بك يوميا فى التليفون ، فاذا لم أتصل بك يوماً فاعلم أنهم قبضوا على ، واتصل بوصفى باشا فورا •

ـ وصفى باشا ؟

ـ قل له إننى سأترك الاخوان •• أرجوك يا أحمد ، أنت لا تعرف مقدار شقائى بالسجن إن أنا سجنت ، أنا أمل عائلة ، ونحن قوم نريد أن نعيش ياسى أحمد ، وقد كان طيشا وسأتركه ، أرجوك يا أحمد بك •

ـ يا أخى ، أنت لا تحتاج إلى هذا الرجاء الطويل •• وماذا تظننى كنت فاعلا •• طبعا كنت سأذهب إلى وصفى باشا •

ـ طيب سلام عليكم •

ـ وعليكم السلام •• أنتظر •• أين ستختفى ؟

ـ هل معك نظارة سوداء ؟

ـ نعم ها هى ذى •• أين ستختفى ؟

ـ لا أدرى •• قد أخبرك حين أتصل بك •

ـ وكم معك ؟

ـ ماذا ؟ فلوس ؟ معى جنيهان ؟

ـ مبلغ لا يكفى طبعا •• خذ •• أنا ليس معى إلا أربعة جنيهات ، خذها •

ـ شكرا •• أظن أن ما معى يكفى •

ـ خذ •• وحين تكلمنى أكون قد أعددت لك مبلغا آخر •

وأخذ السيد الجنيهات الأربعة ، واستدار ليترك الغرفة ، ولكن الباب فتح ودخل منه ضابط وشرطيان ، ونظر السيد إلى أحمد يائسا ، ونظر أحمد إليه دهشا ، فقد كان يظن أنه يضفى على نفسه من الأهمية ما لا يتمتع به .

* * *

استقبل وصفى أحمد متجهما بعض الشيء ، الأمر الذى عجب له أحمد ، فما تعود منه هذا .. وسأله وصفى :

— خير ؟!

— لقد قبض البوليس على السيد بن عبد البديع أفندى .

— لماذا ؟.. أهو من الجماعة ؟

— نعم .

— هيه .. ومتى سيقبضون عليك ؟

وفغر أحمد فاه وانفرجت عيناه عن نظرة دهشة واسعة :

— على أنا ؟

— نعم أنت . أتظننى لا أعرف .. ألا تفكر فى أمك المسكينة .. ألست ا نسانا ؟ .. ماذا جنت حتى تفعل بها هذا أنت وأختك .. ألا تعلمان أنها مريضة بالقلب .. ألا تخشى عليها أن تموت ؟

— أنا ، ماذا فعلت يا عمى ؟

— أنت شيوعى يا سى أحمد

ومست قلب أحمد فرحة أنه مثار اهتمام ، وأن عمه وصفى باشا يعرف أهميته ، ولكنه قال :

— من قال يا عمى ؟

ـ لا تحاول أن تنكر ••

ـ ولكن يا عمى ••

ـ وحياة والدك لا لزوم لهذه الطريقة الصبيانية ، أرجـوك •• من أجل أمك •• أشفق عليها يا أخى من أجل مرضها على الأقل •• وثق يا أحمد أنه إذا قبض عليك ، فانه يصعب جدا أن تعتمد على كما تريد أن تعتمد على الآن فى مسألة السيد •

ـ والله يا عمى ••

ـ والله يا بنى أنا حذرتك وأنت حر • اترك حكاية السيد ، ولا تنتظر أن تنتهى بسرعة ، أمامها مدة •

ـ شكرا يا عمى •

ـ الشكر يكون بمراعاة أمك ياسى أحمد •• مع السلامة •

(٢٤)

كان ا لقصر يرزح تحت رزء كبير ، فقد كان زواج هنـــاء خطبـــا فادحا حاول الأب أن يمنعه بسلطته المتهالكة فلم يستطع ، فقد أفهمته سهير أن الزواج فى البيت برضائهما خـــير من أن تخرج الفتاة عن طوعهما للتزوج وحدها ، وتضعهما أمام الأمر الواقع ، ولن يجديهما يومذاك أن يلوذا إلى القضـــاء ، فأمامه ستعلن فضيحة ينبغى لهـــا أن تستتر بل إن سهير أفضت إلى سليمان بما يراودها من خوف أن تخرج الفتاة عنهما بلا زواج على الاطلاق ، وما يراودها من خـــوف أن ينفرد بها هذا الصعلوك ، وينتهز فرصة مقاطعتهما لها فلا يستطيعان لها عونا إن هى احتاجت لعون • فاقتنع سليمان •

وحاول وصفى أن يعين ســـهير فى محنتها ، وعرض عليها أن ينقـــل فوزى من وظيفته بالقاهرة إلى الأقاليم ، ولكن الرأى استقر بينهما على أن هذا لن يجدى فى شىء •

وهكذا تم عقـــد القران فى مأتم بلا معـــزين ، إلا أهـــل القـــاتل وأهل القتيل ، فقد جاءت أم فوزى ، واستطاعت أن تزيد النار اشتعالا فى نفس سهير ، وإن كانت لم تستطع أن تجعلها تخـــرج عن صمتهـــا اليائس الحزين ، فقد كانت أمه معجبة بنفسها ، تحاول جاهـــدة أن تصبح ندا لهذا البيت الذى تناسبه • أما الأب فقد كان أكثر ادراكا للموقف ، فاتخذ لنفسه مكانا قصيا ، وصمت حتى انتهت المراســـم ، وغادر البيت وجلا كما دخله •

وأغضى سليمان على النـار عرفهـا لأول مـرة تتناش فؤاده ، وخجل أحمد من الهـدية التى قدمهـا الى القصر ، ونسى حينذاك مبدأه وأفـكاره وفلسفته ، وكره هذا اللص الذى تسرب تحت وقاء من الصداقة ، واختلس أختـه فى ضباب من النظـريات والألفـاظ البارقة ، والغش الخادع الخسيس •

ولم يكن أحمد ليغبى أمر فوزى ، وان يكن قـد قبـل أن تتوطد بيهما الصداقة • ولم يكن يتوقع أن أخته تقبل أن تلتقط هذا الفتى من عرض الطريق لتجعل منه زوجا لها ، وفى غفلة من عـدم التوقع هذه لم ينتبه أحمد الى الذئب يجوس فى عقر داره • وقد عزم أحمد على أن يقطع علاقته بفوزى ، ثم سمع هذا الحديث من أمه ، فعزم على أن يجعل صلته بفوزى بحيث لا ينتبه أحد الى انقطاعها ، وأصر فى نفسه على ألا يدخل بيت أختـه مهما تكن الأسباب والدواعى •

وكان موقف سميحة من هـذا الزوج هو موقف أختهـا سهير ، وقد حزن فى نفسها الألم الذى ترى آثاره على ابنها بيـاض النهار ، اذا رأته بياض النهار ، والذى ترى آثاره فى غيـاب ابنها عن البيت الى أعماق الليـل ، أو هامات الصباح ، دون أن تدرى أين يغيب ، الأمر الذى كانت تجهـد نفسها أشـد الجهد فى اخفائه عن زوجهـا وتمويه حقيقته عليـه •

وكان الخدم فى القصر جميعهـم يشـعرون بالتعاسة التى ترزح على القصر وساكنيه ، وكانوا يدرون مبعثهـا ، وكان حزنهـم لهـا عميقا ، فقـد كانوا يتمنون أن يفرحوا بستهم هنـاء ، وقـد كانوا يتمنون أن تتزوج من رجـل يستطيعـون أن يحترموه ، فمـا كان

زوجهـــا أمامهم الا شخصا يتسقط على مائدة أحمد بك ، ثم لا شيء بعـــد ذلك •

هـــكذا كان القصر جميعه واقعـــا تحت هـــم واصب ثقيل ، فلم يضم بين جدرانه الا شخصا واحدا لم يحفل هذا الاعراض وهكذا الحزن ، هو هنـــاء نفسها •• فقد اندفعت فى حمأة زواجهـــا كشيء أنقى بنفسه الى منحدر يصب فى هاوية فما يفـــكر لأنه لم يعد يملك التفكير ، وما يرتد ، لأنه لم يرغب فى هذا الارتداد • لم يكن حبهـــا لفوزى حبـــا جارفا يقتلع العوارض والعراقيل ، واكنها استطاعت مـــع ذلك أن تحطم كل ما وقف فى سبيلها ، وهى نفسها عاجبة لمـــاذا تبذل كل هـــذا الجهد !! انهـــا تعلم أنه ليس حبها لفوزى ما يثير فى نفسها كل هذه القوة • كانت تظن أن كرهها لأبيها ولمـــا أنزله بأمهـــا هو ما يبعثها الى العنف والاصرار ، ولكنها كانت تعود فتفكر أنهـــا هى نفسها بما تعمله تنزل بأمهـــا أقسى ألوان العـــذاب ، وهى تعلم أنها مفئودة ، وأنهـــا تتعرض بهذا العذاب الى نوبة قد تودى بهـــا ، وتترقرق فى عينى هناء الدموع اذا جرى بها التفكير الى هذا المتجه ، ولكنها تعـــود الى دموعهـــا فتحبسها ، والى النسمة الهـــادئة التى تراوح قلبهـــا فتعصف بهـــا فى قســـوة ، ان كل هـــذا أهون من أن تتزوج شخصا لم تختره هى ، ولم تصـــل بينهـــا وبينـــه أوشاج من الهوى ، مهما تكن أوشاجا هينة ، كهـــذه التى تربطها الى فوزى • ان هـــذا جميعه أهون من أن تختار أمها لها أو يختار أبوها ، لقـــد كانت خليقة أن تقبل حســـام لو لم يكن ابن خالتهـــا ، ولو لم يكن أبوها وأمهـــا راغبـــين فى تزويجها منـــه أشد الرغبة ، ولو لم يكن غنيا ، لقـــد كرهت الغنى كما قالت لأمهـــا •• كرهته حين رأت أباها

ولا هم له إلا أن يصبح غنيا مهما يجنح به هـذا العـزم الى انتهاب أموال أمهـا وخالتها التى لجأت آخر الأمر الى زوجها أن يحميها ، ولن تنسى هناء يوم تمت القسمة بين أمها وبين خالتها ، ولن تنسى تلك الدموع التى سفحتها أمهـا ، مـع أنها هى التى ألحت فى تنفيذ هـذه القسمة ، حتى تنقذ أختها من يد زوجها الغائلة ، وحتى تنقذ أولادها مما قـد يكون بين سامى وسليمان من فضائح •• فقد كانت تعـرف زوجهـا •

وتجمعت البـواعث فى نفس هنـاء ، ولم يـكن أقـواها حبهـا لزوجهـا ، ولكنها بواعث قـد تعبرها عين الناظر إذا عرضت عليه متفرقة ، فان تجمعت جعلت من هنـاء هـذا الاعصار الذى يدور فى القصر فينفذ ما يشاء فى تبجح هادىء فما كانت تحتاج الى ثورة •

لم تكن لهناء من مطالب بعـد أن تم عقـد القران ، وحين فكرت أمها فى جهازها ، سكبت دموعها غزيرة ، ان اللـه لم يشأ أن تفـرح بجهاز عروس أبدا ، ان جهازها هى اختير لها ، ولم يكن لهـا فيـه رأى ، وحين أنجبت هنـاء ، كانت تمنى نفسها أن تعوض فى جهازها ما فوتته على نفسها أيام عرسهـا ، ولـكن ها هى ذى ابنتها تخـذل آمالها ، كما خـذلت هى آمال نفسهـا حين تزوجت • وكانت سهير تحاول أن تخفف من ألمهـا بعض الشيء ، حين تهمس الى نفسها أن لعـل ابنتها تسعد فى ظل زوج أحبته ، ولـكنها حين تذكرت قسمات ابنتها وهى تفضى اليهـا باصرارها على الزواج ، وحين ترى ابنتها رائحـة فى البيت غادية ، جامدة النأمات ، صلبـة الوجه ، وحـين تراها مستسلمة لمصيرها هـذا الذى اختارته •• وحين ترى فوزى وترى مقـدار تبجحه على البيت ، واقباله على قـوم يعلم أنهـم

عازفون عنـــه •• حين تذكر وترى هــذا جميعه ، ما تلبث أن تذوب الهمسة المتفائلة فى طوفان من هم كبد •• فما هــذه تصرفات فتــاة، فى قلبها هوى ، وما هذا الفتى بمستطيع أن يثير فى فؤاد فتاة حبا •

ولــكن هذه الأفكار جميعها لم تمنعها من أن تسأل ابنتها عمــا تريده فى جهازها ، وقالت الفتاة :

ــ لا أريد الا أشياء بسيطة فسنعيش فى شقة صغيرة •

وارتاحت الأم أنها تنتوى أن تبتعد عنها بزوجها هــذا الــكريه ؛ ولكنها رأت أن تقول لهــا على سبيل المجاملة :

ــ ولم لا تعيشان معنا هنــا ؟

وقالت هنــاء فى حــزم ، شأنها منــذ أعلنت عن رغبتها فى هــذا الزواج :

ــ لا •

ولم تجد الأم وسيلة تقطع بها الحديث أن يطول ، الا أن تعطى ابنتها ألفى جنيه تفعل بهما ما تشاء ، وقبلت هناء المــال ، ووضعته فى صوانها ، وضمت اليه مائة جنيه ، دفعها زوجها مهرا ، وانتظرت أن تسأل زوجهــا عما يفعلان •

وفى يوم جاء فوزى وطلب الى هناء أن يخرجا للنزهة ، وخرجت معه فى سيارة أبيهــا ، وما أن تركا البيت ، حتى اســتوقف فوزى السائق ، وأمره فى ثبــات أن يترك السيارة ليقودها هو • ودهشت هناء بعض الشىء من طريقته فى اصدار الأوامر ، ومن اعطاء نفسه الحق فى قيادة سيارة لا يملكها ، ولــكن دهشتها لم تزد على غصة فى نفسها ، وسألت فوزى :

— أتعرف كيف تسوقها ؟

وأجاب فوزى فى اقتضاب :

— نعـــم •

وقبـــل أن تسأله هنـــاء كيف تعلمت ، قال هو فى نغمة ساخرة بعض الشيء :

— طبعا لم تـــكن عنـــدى سيارة ، ولكنى تعلمت كيف أســـوق بسيارة أخيك أحمد •

وسكتت هنـــاء ، ولـــكن السائق لم يصدع بأمر فوزى ، فمـــا تعـــود أن يتلقى منـــه أوامر ، ورأت هنـــاء تردد السائق ، فسارعت تقـــول :

— اذهب انت الى بيتك يا أسطى عبـــده •

وصـــدع السائق بالأمر فـــور سماعه ، وانتقل فوزى الى مقعد القيادة ، وانتقلت هناء الى جانبه ، وأحس فوزى بتردد السائق ، ولكنه أغفل أمره ، فقد ذكره اسم أحمد بأن يسأل هناء :

— وحتى أحمد غير موافق على زواجنا •

وقالت هناء فى استبسلام :

— وما يهمـــك أنت ان كان يوافـــق أو لا يوافـــق ، ما دمت أنا موافقة ، وما دمنا قـــد تزوجنا فعلا ؟

وقال فوزى فى غير اكتراث :

— على رأيك •

ثـــم قال :

ـ انني معـــد لك مفاجأة هائلة •

ـ خـــير ؟

ـ وكيف تكون مفاجأة اذن ؟

ـ ومتى أراها ؟

ـ نحن فى طريقنا اليها •

وصمتت هنـــاء ، واتخذتالسيارة طريقهـــا الى الزمالك ، وأمام عمارة فاخرة ضخمة ،أوقف فوزى السيارة وقال لها :

ـ انـــزلى •

ونزلت هناء ،وقد ، حزرت ما هى مقدمة عليـــه ، ولكنها لم تشأ أن تصدق حدسهـــا ، فان العمارة التى يدخلانها باذخة الفخامة ؛ لا تتناسب اطلاقا مـــع ما كانت تهيىء نفسها له من بيت متواضـــع يتفق وقلة المـــال عنـــد فوزى ••

ولم يكن ثمـــة مجال لـــكثير من التفكير ، فقـــد وجدت نفسها فى مصعد أنيق ، ثم وجدت نفسها أمام باب شقة يفتحه فوزى بمفتاح معه ، ثم وجدته يلتفت اليها قائلا :

ـ هيه •• أتريدين أن أحملك كما يفعل الغربيون ؟

ولم تضحك هنـــاء من محاولة المزاح ، ودخلت البيت ، وراعتها أناقته ، وأذهلتها سعته •• ست حجرات وبهو •• لمـــاذا هذا جميعه؟ وسمعت فوزى :

ـ وطبعا سأتفق مع مهندس لتزيين الجدران ، ورسم الأثاث •

وازدادت هنـــاء ذهولا ، وقالت :

ـ ولكن أليس كبيرا ؟ !

فقال ساخرا :

ـ أهو كبير ؟ •• وأين هو من القصر ؟

فقالت هنـــاء :

ـ ولكن هل يكفى مرتبك لهـــذا البيت ؟

وقال فوزى وهو يغمغم الكلام :

ـ هـــذا أمر ندبره •

ولم تزد هنـــاء شيئا • وظلت صامتة وهو يتحدث عن مشروعاته فى تجميل الشقة ، وفى اختيار الأثاث ، وفى الميزات التى فى الشقـــة وفى أى مكان مبيت السيارة لا يؤخذ عليـــه أجر إضـــافى ، وصكت كلمة السيارة ســـمع هنـــاء ، فنظرت اليـــه ، ولكنها لم تتكلم ، بل ظلت على صمتها •• لازمت الصمت وهـــو لا ينقطع عن الحديث •• لازمت الصمت وهما فى الطريق الى سيارة أبيهـــا ، ولازمت الصمت وفوزى يحييها مودعا ويترك مكانه من السيارة •• ظلت على صمتها حتى صعدت الى الطابق الأعلى من البيت ، وحين رأت أمها جلست أمامها صامتة •• وطال بهـــا الصمت هونا ، ثم تماوجت دمعـــات فى عينها ، سارعت باخفائها دون أن تلحظ أنها تأخرت فى هذا الاخفاء ، فقـــد كانت الأم مثبتة النظرة اليها ، ترى وجهها فكأنما ترى كـــل ما تخفيه خلفه •• وأخيرا قالت هناء :

ـ نينا •• لن يكفينى ألفا جنيه للجهاز •

وقالت الأم فى تؤدة وهى ناظرة الى ابنتها لا تزال :

ـ نعـــم أعـــرف •

(٢٥)

أقبـل حسـام على بار الشباب ، فتطلع اليـه الرفاق فى حب واشفاق ، شأن الكريم هان بعـد كرامة ، وأحس حسام بالاشفاق فى نظرتهم ، فقال غاضبا :

ـــ مالـكم ! • ما هـذه النظرة وكأنى مسكين تعطفون عليـه •• هات كأسا يا بنى ، وكان سعد أسرعهم الى الحديث وأجرأهم فيه :

ـــ نعم •• أنت مسكين بهذا السم الذى تطفحه كل يوم •

ـــ ولمـاذا يا سيدى ؟ •• منـكم نستفيد ، ألم تكن أنت تطفح منـه يوم طردك عمك ؟ !

ـــ كنت أهبـل •• وكنت أهبـل لمـدة يوم واحـد ، أو سـاعة واحدة ، ثم عقلت ، ولكنك أنت مصر على هبلك •

ـــ يا أخى ، أنا حر •

وقال سميح :

ـــ ما هـذا الكلام الفارغ ؟ •• لا يا أخى ، أنت لست حـرا •• ما معنى أن تأتى إلى هنا كل يوم ، وتظل تشرب حتى لا تعى ، ونظل نحن ناظرين إليك ، كأنك مريض بيننا •• إن كنت مجنـونا يا أخى فلماذا لا تذهب إلى المستشفى ؟!

وجاء ينى بالكأس ، فشربها حسام دفعــة واحدة ، وطلب أخرى ، ونظر إلى سميح قائلا :

ـ نعم ياسى سميح •• آلست أنت من قلت لى إن الخمر مفيدة فى هذه الأحوال ؟

ـ يا أخى غلطت ، وهل تراها حضرتك مفيدة ؟!

ـ نعم •• إنها مفيدة •• إنها تنسينى ما أحب أن أنساه •

وضحك أصدقاؤه ، وقال سعد :

ـ يا عم صــل على النبى •• واللــه إن بنت الكلب هــذه تزيد الانســان تذكرا •• كيف تنسى شيئا لا تزال تفــكر فى أنك تريد أن تنساه •• هذه خرافة وشرفك ••

وقال حسام وهو يشرب الكأس الثانية :

ـ ما هذا الهجوم ؟ •• أنا سأشرب ••

وقال سعد :

ـ اسمع •• إن عبد الجواد أفندى أعد لنا الليلة شيئا ••

وقبل أن يكمل سعد حديثه ، قاطعه حسام :

ـ قديمة •• هذه لعبتى أنا يا حبيبى •• أتضــحك على بما كنت أضحك به انا عليك ؟

وضاق الرفاق بالحديث ، ورأوا أن لا فائدة ترجى من حسام ، وأحس حسام بضيقهم ، فما وقف به هذا عن ابتلاع الكؤوس مترعة متلاحقة ، حتى لم تمض ساعة إلا كان ســكران ، وحين قام الرفاق ليمضوا إلى عبد الجــواد أفندى ، تخلف سعد لأنه رأى حســام لا يستطيع أن يقيم أوده ، فبقى معه ، وظل يحثه على القيام ، حتى

قبل آخر الأمر ، وقام متعتعا يتكفى ويهذى بحديث لا يكتمل ، حتى وضعه سعد فى السيارة وركب إلى جانبــه ، وراح يقود الســيارة فى طريقه إلى البيت •

وحين وصل الصديقان إلى بيت حسام ، كان حسام نائما لا يحس شيئا مما حوله ، وحاول ســعد أن يرده إلى الوعى ، ولكن محاولته فشلت فشلا تاما ، فلم ير بدا من الالتجاء إلى البواب ليحمله خفية إلى حجرته •

وجاء البواب يستغفر الله آسفا أن يرى سيده على هذه الحال ، وتعاون هو وسعد على حسام ، وكلاهما مقطب الجبين ، بادى الألم ، وصعدا إلى الدور الأعلى ، وكانت نوال جالسة فى البهو تتحدث فى التليفون ، فحين رأت أخاها محمولا ألقت بالسماعة ، ودقت صدرها بيدها ، وأسرعت تســأل عما أصابه فى لهفة ألهتهــا عن أن تخفض صوتها ، فأشار إليها سعد أن تحذر ، وهمس لها بالحقيقة ، ولكن همسه جاء متأخرا ، فقد كان سامى جالسا إلى زوجته فى حجرتهما فسارعا يستطلعان ما أثار لهفة ابنتهما ، وطالعهما ابنهما محمــولا غائبا ، واندفعت الأم والهة وجمد الأب مكانه واجفا ، ولم يجد سعد بدا من أن يفضى إليهما بالحقيقة ، فقد وجدها أهون مما يخشيانه ، أو خيل إليه أنها أهون مما يخشيان • وحاولت الأم أن تقود حاملى ابنها إلى حجرته ، ولكن الأب قال فى صرامة قاسية :

ــ ألقيا به إلى الأرض •

وتردد سعد والبواب ، ولكن صوت الأب أرعد فى حسم :

ــ ألقيا به إلى الأرض •

فانفرجت يدا البواب عن قدمى سامى ، ووضع سعد رأس حمله على الأرض ، ولم يكد حتى انفتل إلى السلم يطويه أربعا أربعا يقع بجسمه الضخم على درجاته ، ثم يقوم كأنه لم يقع ، حتى غاب عن الأنظار التى تبعته فى وجوم ، وأمر الأب بالماء فأفرغ على وجه ابنه حتى أفاق ، ووقف حسام مترنحا وأمه شاخصة إليه ، حائرة لا تستطيع لأبيه دفعا ، وهو فى خمار السكر غير مقدر للموقف الذى ألقى بنفسه إليه ، ولم يمهله أبوه ، فراح يصفعه بحده وهو يتقى يد أبيه بيد مترنحة ، لا تستطيع أن تثبت على مكان ، حتى إذا هدأ أبوه هونا ، راح يدفعه إلى الحجرة وهو يقول :

ـ منذ الغد لن ترى القاهرة يا كلب ،، منذ الغد سألقى بك إلى العزبة يا سكير •

وحين أصبح حسام فى الغرفة أقفل أبوه عليه الباب ، وعاد إلى حجرته دون أن يلتفت إلى زوجته أو ابنته ، ونظرت سميحة إلى نوال ، والتقت بعينيها نظرات ابنتها حسيرة ، وفهمت كلتاهما ما يدور بنفس الأخرى ، فجرت الدموع فى عيونهما •

وتذكرت نوال التليفون الذى كانت ممسكة بسماعته حين جاء حسام •• أو حين جىء بحسام ، فنظرت إلى حيث تركت السماعة ، ولكنها لم تتحرك ، فقد أدركت أن هناء لا يمكن أن تظل منتظرة طوال هذه المدة •

ونظرت الأم حيث نظرت ابنتها ، ثم أطرقت وعادت إلى زوجها

ولم تجد نوال شيئا تفعله ، فعادت إلى السماعة ، وهمت أن تضعها على الحامل لولا أنها سمعت :

ــ آلو •

ــ آلو •

ــ ماذا جرى يا نوال ؟

ــ هناء •• هناء •

وانخرطت نوال فى بكاء غزير الدموع ، وهناء على الطرف الآخر لا تزال تلح عليها أن تطمئنها •

وأخيرا قالت نوال :

ــ إنه ما فعلته بنا يا هناء •• إنه ما فعلته بنا ••

ــ أنا ؟

ــ نعم •• أنت •• ويا ليتك سعدت • إذن لارتحت أنا بعض الشيء ، وعزيت نفسى عن شقاء أخى بسعادتك أنت •• ولكنك حتى لم تسعدى نفسك يا هناء •• وتأبين إلا أن تزيدى شقائى فلا تجدى إلا أنا ، لتبثيها ما تلاقينه من زوجك وأهله •• أنا وحدى فى العائلة التى أتحمل الشقاء شقاءين •• شقاء أخى بك ، وشقاءك أنت بغير أخى ••

ولم تر نوال الدموع الجارية على خدى هناء ، ولم تحس النار اللاهبة التى ازدادت اشتعالا فى نفس بنت خالتها التى اتخذتها أختا •• لا لم تر نوال الدموع ، ولا أحست النار •• أو لعلها أحست وميضا خابيا من هذه النار ، حين طرقت أذنها سماعة هناء ، وهى تستقر فى مكانها من الحامل منهية الحديث •

(٢٦)

قام فوزى من نومه مبكرا ، شـــأنه كل يوم ، فوجد زوجته قـــد صحت وجلست تنتظره ، لتتناول معه طعام الافطار ، وحين جلســا إلى المــائدة قال فوزى :

ـ ماذا •• فول ؟

ـ نعم وما عيب الفول ؟

ـ كل يوم !•• بعض الرحمة •

ـ إنى أقدمه لك أحيانا فى الفطور فقط ومعه أصناف أخـــرى •• كفرت ؟!

ـ يا ستى أنا لم أقل شيئا •• وهل أستطيع أن أقول شيئا •• فـــكله من خيرك •• إن كان فولا فأنت من تدفعين ثمنــــه ، وإن كان قشدة فأنت من تدفعين ثمنها •• هل أستطيع أن أتكلم ؟

ـ ما معنى هذا الكلام ؟•• إنك دائما تعيرنى بأنى أدفـــع ثمن الأكل •• ماذا تريدنى أن أفعل •• يا أخى قل لى ما تريدنى أن أفعله وأنا أنفـــذ ••

ـ يا ستى العفو •• وهل أستطيع •• إنما يأمر الرجل الغنى الذى يستطيع أن يدفع ثمن ما يطلبه •

ـ يا أخى مرنى ولا تدفع •• ولكن فقط لا تنكد على عيشتى كل هذا النكد •• ماذا جنيت ؟

— يا ستى ماذا أكون أنا حتى أنكد عليك ؟•• العفو العفــو ••!

ولم تستطع هنـــاء أن تكمل طعامها ، بل إنها لم تستطع أن تبدأه ، فقامت على المـــائدة مغضبة وهى تقـــول :

— لا •• لا أستطيع •• لا يمكن •

وأسرع فوزى قائلا :

— خادمتك •• أمى ستأتى اليـــوم ، فأرجو أن تتكرمى باعـــداد شىء لهـــا •

وسمعت هناء الحديث وانصرفت دون أن تلقى إليه التفاتا • وفرغ هو من طعامه هادئا ، وقام إلى الباب الخارجى وصفقه من خلفـــه ومضى •

وظلت هناء فى حجرتها تبكى بكاء مرا ، ولكنها لم تكد حتى سمعت جرس البـــاب ، فظنت أن زوجها نسى شيئا فعـــاد لاحضـــاره ، ولكنها دهشت حـــين سمعت صـــوت حمـــاتها يرن فى البهـــو قائلة للخـــادمة :

— أين سيدك ؟

وقبل أن تجيب الخادمة ؟ سارعت تقول :

— وأين ستك ! •• أهى نائمة ؟

وقالت الخادمة فى جمود :

— سيدى وستى تناولا الافطار معـــا ، ونزل سيدى إلى عمله ، وستى صاحية فى غرفة نومها •• سأناديها •

ودخلت الخادمة عند هناء ، ولم تمهلها هنـــاء لتعلن إليها قدوم الست الكبيرة ، بل عاجلتها قائلة :

ـ أحضرى التليفون •

وحاولت الخادمة أن تقـول شيئا ، ولكن هنـاء سـارعت قائلة فى حـزم :

ـ أحضرى التليفون •

وخرجت الخادم لتعود بعـد لحظات حاملة التليفون ، وأدارت هناء القرص ، وما لبثت أن قالت :

ـ من ؟•• لواحظ ؟ •• أين ستك نوال ؟ •• أيقظيها •

وبعد لحظات من الصمت قالت هنـاء :

ـ نوال •• سآتى إليك الآن •• سـأخبرك حين آتى ، المهم أن ترتدى ثيابك وتنتظرينى •• نعم فورا •

ووضعت هناء سماعة التليفون ، وقامت إلى ثيابها فوضعتهـا على نفسها دون عنـاية ، ومدت يدها إلى درج خفى فى صوانها ، فأخرجت منه كل ما فيه من مال ، ووضعته فى حقيبة يدها الصغيرة ، ولم تلق إلى المرآة نظرة ، وخرجت إلى البهو لتجـد حماتها قد جلست على الأريكة فى عظمة تقول لها :

ـ صح النوم يا هانم •

ـ أهلا تيزة •

ـ أهلا بك يا أختى ••• أيصـح أن تتركينى سـاعة أنتظرك ، افرضى أنى جائعـة وجئت أتناول الفطور عندك •• أهـذا يليق ؟ ولكن لم لا •• أين نحن منك •• طبعا وهل نتوصل ؟

وقالت هناء فى هدوء بارد :

ـ كنت ألبس يا تيزة •

ـ وما لزوم اللبس يا أختى •• أم تريدين أن تشعرينى أنى جئت مبكرة •• حسبت أنى أجىء إلى بيت ابنى فى أى وقت •• نسيت يا حبيبتى أن البيت ليس بيت ابنى •• نسيت •• لا مؤاخذة •

ـ لا أبدا يا تيزة •• هو بيت ابنك كما حسبت تماما ، هو بيتك •

ـ العفو •• ومن أين لى ببيت كهذا ؟ •• والله يا حبيبتى اضطررت أن آتى الآن ، لأن عمك ـ لا مؤاخذة ـ أقصد زوجى ، ينزل إلى الديوان الآن ، فنزلت معه ، لأنى لا أستطيع أن آتى وحدى ، ولكن لا تخافى يا حبيبتى •• لقد تناولت فطورى قبل أن أجىء •• وسأقعد معك أسليك حتى يجىء زوجك •

ـ أشكرك يا تيزة •• ولكن هل تسمحين لى أن أنزل لأغيب عنك نصف ساعة فقط ، ثم أعود ••

ـ الآن •• والساعة لم تصل إلى التاسعة ؟

ـ نوال بنت خالتى تريدنى فى شىء مهم •• سأصل إليها وأعود •

ـ إن كنت ضايقتك أنزل أنا •

ـ أبدا •• البيت بيتك وسأعود حالا •• أتركك بخير •

وقبل أن تسمع هناء كلمة أخرى من هذا الحديث الذى لم تسمع غيره منذ تزوجت ابن هذه المرأة ، سارعت إلى الباب الخارجى للشقة وانفتلت منه إلى الخارج ، وهى لا تكاد تصدق أنها أصبحت فى الطريق ، ونزلت إلى الشارع ، ووجهها كله عزم وإصرار ، ونادت أول سيارة أجرة ، وأعطت السائق عنوان خالتها •

وعند الباب الخارجى نزلت ، وطلبت إلى السائق أن ينتظر ،

وقفزت السلالم قفزا سريعا متواثبا إلى حجرة نوال ، فوجدتها قد ارتدت ثيابها وجلست تنتظرها .

ـ نوال .

ـ ماذا ؟

ـ قلت لى : إن لك صديقة ذهبت إلى يهودى أجرى لها عملية اجهاض ، لأن زوجها فقير لا يريد أطفالا أكثر مما لديه .

ـ نعـم .

ـ ما عنوان هذا اليهودى ؟

ـ وكيف لى أن أعرفه ؟

ـ طبعا صديقتك ليس لها تليفون .

ـ بالطبع لا .. إنها صديقتى من المدرسة ، وقد قصت على هذا الحديث حين زارتنى .. ما الذى أذكرك به ؟

ـ أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى .

ـ هل أنت مجنونة ؟!

ـ أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى .

ـ وكيف لى أن أعرف مكانه .

ـ ما عنوان صديقتك .. أنت تعرفينه .. لقد قلت لى أنها اصطحبتك يوما إلى بيتها .

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ هل تعرفين عنوانها ؟

ـ نعـم .

ـ فقومى معى .

ـ هل أنت مجنونة ؟

ـ ليس بعد . أنا الآن فى تمام عقلى ، وسأكون مجنونة إذا لم أفعل ما أنا مقـدمة عليه .

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟

ـ أنا حامل فى شهرى الثانى ، وأريد أن أجهض نفسى الآن .

ودقت نوال صدرها بيدها قائلة :

ـ ماذا ؟

ـ اسمعى .. أمى أضاعت حيـاتها من أجل أخى أحمـد ومن أجلى .. لا أريد أن أضيع حياتى .. لا أستطيع العيش مع فوزى ، لقد حاولت .. حاولت بكل ما أستطيع .. لا أطيق العيش معـه ، لقد حاولت أن أكتم عن أمى ما أقاسيه لأننى أنا من اخترته ، أما الآن فلا يهمنى ما تفعله بى أمى ، لا يهمنى شىء فى الوجود إلا أن أنقـذ نفسى من هذه النار التى ألقيت بنفسى إليهـا ، أنا أكره فوزى .. أكرهه بدمى جميعا ، بل إن شعورى نحوه أشد من الكره .. لا ليس شعورا ما أحسه نحوه .. إنه اسقاط له من حياتى جميعا ، إنه شىء حقير قذر ، دنس فترة من حيـاتى ، ولا أريده أن يدنس حيـاتى جميعها .. لا أستطيع العيش معه .

وترقرقت الدموع فى عينى نوال وهى تقول :

ـ وما ذنب طفلك ؟

ـ إنه لم يعد طفلا بعد .. ولا أريده أن يتحمل حيـاة لم يجن هو شيئا فيها .. نعم إنه لا ذنب له ، ولذلك أريد أن أنقذه من أبيه

حين يكبر ، وأريد أن أنقذه من العيشة بلا أب قبل أن يكبر ، وأريد أن أنقذه من الحقيقة التى كشفتها فى أبيه •• إنه شىء بلا أخلاق •• بلا أخلاق على الاطلاق •• ليس لأى شىء قيمة فى نظره •• أريد أن أنقذ ابنى من أبيه ، وأريد أن أنقـــذ نفسى من أمومة أشك فى أنها ستكون صالحة •• إن هذا الجنين الذى فى أحشائى لا يزال جنينا •• أريد أن أخلصه من الحياة قبل أن يلتقى بالحياة •

وكانت الدموع تنهمر من عينى هنـــاء وهى تتحدث ، كمـــا كانت تنهمر من عينى نوال ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقول أقسى قول يمكن أن يقال لهناء فى لحظتها تلك :

ــ أليس هذا هو فوزى الذى أشقيت به المسكين حسام ؟

ونظرت إليها هناء نظرات آلة حزينة ، ثم أطرقت وهى تقول :

ــ لا •• ليس هو •• لم أعرفه إلا حين لم تعد لمعرفتى به فائدة •

وقالت نوال فى حزم :

ــ قومى •

واستأذنت نوال من أمها ، وخرجت مع هناء ، وما هو إلا بعض الحين حتى كانتا بالمكان الذى يقيم به اليهودى ، وما هـــو إلا بعض آخر من الحين ، حتى أصبحت هنـــاء وهى لا تحمل إلا روحا واحدة هى روحها ، ونزلت إلى السيارة ومعها نوال •

وفى الطريق إلى البيت انخرطت هنـــاء فى بكاء حاد عنيف ، ولكنها لم تجد له فى نفسها ألمـــا ، أحست كأنها انسانة ضحت ، وإن حلاوة التضحية تمسح عن نفسها الألم الذى عانته •• ألم الأم تقضى على ابن أحشائها •

ووقفت السيارة عند باب القصر العتيد ، ونزلت هناء وانية شاحبة اللون ، وصعدت الدرج فى إعيـاء تساندها نوال ، فمـا إن بلغت أمها حتى هبت إليها الأم مذعورة تسألها ما بها ، ولكن هناء لم تستطع إجابة ، فقد اجتمع عليها الألم والاعياء والحزن واليأس ، فلم تجب أمها ، وإنما سارت فى خطواتها الوئيـدة المتهالكة إلى حجرتهـا ، وفتحت بابها فى ضعف ، وأمها من ورائها لاتنى عن سؤالها عما بها ، وهى لاتنى عن الصـمت ، حتى إذا بلغت السرير ارتمت عليـه ، وصعدت شـهيقا عميقا ، كأنهـا تطرد به من نفسها كل الآلام التى قاستها ، ثم قالت فى همهمة :

ــ أخيرا •• الحمد لله •

وتولت نوال إبلاغ الأم بما كان من ابنتها وزوجها والحياة النكدة التى لقفتها منـذ تركت القصر • وظلت نوال تحـكى حتى أتت إلى آخر المطاف عنـد اليهودى ، وجـزعت الأم من هـذه الحـادثة وقبل أن تجيب نوال إلى حديثهـا ، قامت إلى التليفون ، فاستدعت طبيبها الخاص ، ليطمئنها على صحة ابنتها ، وحين رجعت إلى نوال قالت لهـا :

ــ إن اجهاضها لنفسها يمنع أى محاولة للاصلاح •• أرجو الله أن يقدرنا على الخلاص من هذا الشاب ، فأنا أعرف هـذا الصنف من الناس •• ولكننا سنتخلص منه على أية حال •

ودخل أحمد إلى الغرفة مذعورا بعد أن أنباه الخدم بمجىء أخته ، وبالحال الذى جاءت عليه ، وحين أنبأته نوال بما أنبأت به أمه ، قال فى هدوء وجد :

ــ لقد كنت مقدرا لهذا جميعه •• على أية حال سيطلقها ، فما أظنه سيجرؤ على عدم الطلاق •

ونظرت إليه أمه فى ابتسامة ساخرة :

ــ أتظن ذلك ؟ •• أتظن أنك ستقول له طلق فيطلق •

فقال أحمد فى وثوق :

ــ طبعــا ••

ــ ما زلت صغيرا يا أحمد •

ــ إنه صديقى وأنا أعرفه •

ونظرت إليه أمه نظرة عميقة وقالت :

ــ أتعرفه حقا ؟

فتلعثم أحمد هنيهة ، ثم قال :

ــ على كل حال لا أظن أنه سيمانع فى الطلاق •

وقالت الأم فى وثوق :

ــ سترى •• قم إلى التليفون واطلب إليه أن يأتى •

وقام أحمد وطلب فوزى فى التليفون ، ووعد فوزى أن يأتى فورا ، وقبل أن يأتى جاء الطبيب وأجرى الفحص على هناء ، ثم نظر إلى أمها وقال :

ــ أما هناء فبخير والحمد لله ، ولكن أنت •• أنت التى لابد لك أن تستريحى يا سهير هانم •

قالت سهير :

ــ نعم أعرف •

ــ يخيل إلى أنك لا تعرفين أبدا •• إننى بغير أن أفحصك أرى أنك مجهدة كل الاجهاد ، ولابد من الراحة التامة •

ــ أعرف يا دكتور سأستريح •

ونزل الدكتور ، وبعد حين جاء فوزى ، ورآه أحمـد يدخل من الباب الخارجى ، فسارع نازلا إليه ، وحاولت أمه أن تستوقفه لتنزل معه ، فطلب إليها أن تلحق به •

وفى الدور الأسفل التقى أحمد بفوزى ، وأراد فوزى أن يصعد إلى الدور الأعلى ، ولكن أحمد قاده إلى غرفة مكتبه التى كانا يجلسان بها ، وما كاد الصديقان يجلسان ، حتى قال أحمد فى تسرع وفى حسم :

ـ فوزى ، أريدك أن تطلق هناء •

وفغر فوزى فاه من الدهشة ، ثم تمالك أمر نفسه وقال :

ـ ماذا ؟

ـ أريدك أن تطلق هناء •

ـ هكذا ، بهذه السهولة •• !!

ـ نعم •

ـ وإذا رفضت ؟ !

وأخذ أحمد من الطريقة التى يحادثه بها فوزى ، ولكنه صبر نفسه وقال :

ـ لا أظنك ترضى أن تعيش مع زوجة تكره العيش معك •

ودخلت سهير الحجرة فى هدوء ، وقام فوزى فلم تبال قيامه ، وجلست على أقرب كرسى ، وجلس فوزى هو الآخر قائلا :

ـ ما هذا الكلام الذى يقوله أحمد يا نينا ؟

ولم تستطع سهير أن ترد عن قلبها تلك الغصة التى تحسها كلما سمعته يقول « يا نينا » ، ولكنها أغضت على السوء وقالت :

ـ ماذا قال أحمد ؟

ـ قال إنه يريدنى أن أطلق هنـــاء •

فقالت الأم فى هدوء :

ـ لا •• هذا غير صحيح •• إنه لا يريدك أن تطلق هناء ، ولكن هناء تريدك أن تطلقها •

ـ ماذا ؟

فقال أحمد فى غضب :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ إن الأمر كما سمعت •• ألم تكن تتوقعه •

وقال فوزى فى هدوء :

ـ الواقع أننى لم أكن أتوقعه •

فقالت الأم :

ـ على كل حال توقعك لا يجدى شيئا •• ما رأيك الآن ؟

وصمت فوزى بعض الحين ، ثم قال :

ـ أيمكن أن أكلمك على انفراد ؟

وقالت سهير :

ـ أى انفراد تقصد ؟ أنا لا أرى معنا إلا ابنى •

وقال أحمد :

ـ أى سر يمكن أن يكون بينك وبين أمى ويختفى على ؟

فقال فوزى :

ـ إنها مسائل عملية لا أحب أن أتحدث فيها أمامك •

فقالت الأم :

ـ لن يختفى شىء عن أحمد •• قل ما تريد •

فقال فوزى :

ـ الواقع أننى لا أستطيع العيش بدونهـا ، فحياتى كلها معلقـة برضائها عنى ، ولا أتصور كيف يكون حالى إذا تخلت عنى هنـاء ،

وقالت سهير فى هدوء :

ـ أنا أفهمك تماما يا فـوزى ، ولكنى أريد أن توضـح نفسـك فى جـلاء •

ـ الواقع أننى لا أستطيع الطلاق •

فقال أحمد فى تسرع :

ـ يا أخى هذه صفاقة •

ونظر فوزى إلى أحمد وفى عينيه ثورة مصطنعة ، يخالطهـا أدب متكلف :

ـ أظن أنه لا معنى للاهانات •

فقالت الأم :

ـ أسكت يا أحمد • أنا آسفة يا فوزى •• قل ماذا تريد إذن ؟ وكيف يمكن أن تعيش معها ، وهى لن تعود إلى البيت مهما تفعـل ، لا أظنك تنوى طلبها فى بيت الطاعة •

فقال فوزى متلعثما :

ـ بالطبع لا •

فقالت الأم فى ثبات :

ـ فبيت الطاعة ، كما تعلم ، لابد أن تعده أنت •

وأطرق فوزى خجلا وقال :

ـ نعم أعرف •

ـ إذن ماذا تريد أن تفعل ؟

وصمت فوزى لحظات ، وأخــذ يردد النظر بين ســـهير وأحمد ، ثم قال :

ـ ألا يمكن أن نكون على انفراد ؟

ودهش أحمد من اصراره هذا ، وقالت سهير فى حسم :

ـ لا •

فقال فوزى فى بطء :

ـإذن فأنت تعرفين أننى فى فترة الزواج هــذه قد تعودت نوعا معينا من المعيشة ، وأصبحت لا أستطيع أن أعود إلى المستوى الذى كنت أعيش فيه ، فان هذا يخجلنى أمام أصدقائى •

وفغر أحمد فاه من الدهش ، ولم يجد شيئا يقوله ، بينمـــا قالت سهير فى ثبات ، وكأنها كانت تدرك أن فوزى لن يســـوق إلا هــذا الحديث الذى يسوقه الآن :

ـ إذن ماذا تريد ؟

فقال فوزى :

ـ والله أمرك •

ـ أتكفيك السيارة ••؟

وصمت فوزى ، وقالت الأم :

ـ السيارة وأثاث البيت •

وقال فوزى :

ـ وماذا أفعل بأثاث البيت ، إننى لن أحتاج منــه إلا إلى أثاث ثلاث غرف فقط •• النوم والمكتب والمــائدة •

وقالت سهير :

— وماذا تريد أيضا ؟

وعاد فوزى يقول :

— أمرك .

والتفتت سهير إلى أحمد ، وقالت له :

— أحمد .. ارسل عم دهب لينادى المأذون .

وقام أحمد والدهشة عاقدة لسانه لا تزال ، وقال فوزى :

— ألا نتفق أولا ؟

ودق أحمـد الجرس ، وعاد إلى مقعـده ، وقالت أمه وهى على هدوئهـا :

— سنتفق يا أحمد .

وقال فوزى :

— ماذا ترين ؟

وقالت الأم لابنها :

— هات دفتر الشيكات من الدور الأعلى يا أحمد .

وقام أحمد ، وقبل أن يغادر الحجرة ، أقبل عم دهب تلبية لنـداء الجرس ، فأمره أحمد أن يستأجر سيارة ويحضر بها المأذون فورا ، ثم خرج ينفذ أمر أمه . ولم تتكلم سـهير ، ولم يتكلم فوزى ، حتى عادأ حمد ومعه الدفتر ، وأخذته منه أمه ، وطلبت إليه قلما ، وكتبت شيكا وقعته وفصلته عن الدفتر ، ثم نظرت إلى فوزى قائلة :

— هذا هو الشيك .. اسمح لى ألا أعطيه لك إلا بعد أن توقـع الطـلاق .

وقال فوزى مصطنعا الحيـاء :

— ألا أعرف الرقم ؟

وقالت الأم فى حسم :

ـ ألف جنيـــه •

وهم فوزى أن يقول شيئا ، ولكنه رأى النظرات الجامدة فى عيون أحمد وســـهير • وظل ثلاثتهم صامتين ، حتى جاء المأذون • وطلب إليه أحمد أن يجرى اجراءات الطـــلاق ، وحين حاول المأذون أن يلقى خطبته التقليدية ، قطعها عليه أحمد ، وطلب إليه أن يمضى فى اجراءاته بلا إطالة •

وتم الطلاق ، وتسلم فوزى الشيك ، وهم أن ينصرف ، ولكن أحمد أمسك به من طرف سترته وقال له :

ـ اسمع •• إن أشد ما آسف عليه أننى عرفتك ، فاننى أحتقر تلك الفترة فى حيـــاتى التى جمعتنى بك ، لقـــد خلقت فى نظـــرى مستوى جديدا للانحطاط لم أكن أتصور أن يرتمى فيـــه أحـــد •• وكل رجائى اليـــوم ألا أراك أبـــدا ، وألا أذكر هـــذه الفترة التى عرفتك فيهـــا •

وفى جمود نظر فوزى إلى الأرض وقال :

ـ أشكرك •

ثم انفتل خارجا يتحسس جيبه الذى وضـــع فيه ثروته الجديدة •

(٢٧)

كان سيد فى طريقه إلى بيت وصفى باشا حين التقى به فجأة زميله فى الجماعة عبد العاطى بسيونى ، وحاول سيد أن يروغ من اللقاء ، ولكن عبد العاطى لم يتح له فرصة ، وأمسك به :

ـ أين أنت يا أخى ؟

ـ فى الدنيا .

ـ لقد أرسلنا إليك بعد خروجك من المعتقل فلم تأت .

ـ آتى إلى أين ؟

ـ إلى الأسرة .

ـ أى أسرة ؟.

وذهل عبد العاطى ، وقال له فى سخرية :

ـ ألست السيد عبد البديع الدكر ؟

ـ هذا أمر لا شك فيه .

ـ هل جننت فى المعتقل ؟

ـ لا .. بل عقلت .

ـ ألا تعرف الأسرة ؟

ـ لا .. ولكن أعرف أن الجماعة قد حلت ..

ـ لكننا نجتمع .

- لا شأن لى باجتماعكم •
- أكفرت بمبادئنا ؟
- نعم وآمنت بنفسى •
- اتحنث فى يمين أقسمتها ؟
- أنا لم أقسم على القتل •
- هذا مروق !!
- اسمع •• أنا فى طريقى إلى وصـــفى باشا شكرى بنـــاء على طلبه ، وأعتقد أنه قد أعد لى وظيفة ، وسأقبلها فورا ، وقد خطب لى أبى عروسا من أقربائنا وسأتزوجها ، فأرجوك أن تعتبرنى مستقيلا من الجماعة •• أنا لم أعد عضوا •• أنا أريد أن أعيش يا أخى •• ابعـــدوا عنى •
- أنت مارق •• تتصل بأعداء الله وتخالف تعاليم الشريعة •
- أبدا وشرفك •• إننى سأصلى الخمس ، وأصـــوم الشـــهر ، وسأحج إن استطعت سبيلا ، وسأؤدى ازكاة إذا وجبت على الزكاة، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله •
- خدعتك الدنيـــا •
- بل إنى أعمل للآخرة أيضا •
- سترى •• دولة الظلم ساعة ، والحق إلى قيـــام الساعة •
- انتظروا أنتم قيـــام الساعة ، وأما أنا فسأعمل بقول ربى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » •
- ولكن أولى الأمر لا يطيعـــون الله • ولو أكملت الآية لذكرت قول ربى « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرســـول إن كنتم

نؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خـير وأحسن تأويلا » صدق الله العظيم •

ـ فدعوهم لله يحاكمهم •• كيف تعرفون أنتم الحق من الباطل من أعطاكم الحق فى الحكم على الناس وعلى أعمالهم ؟ !

ـ كتاب الله نطبقه •

ـ كتاب الله للجميع •• وإنه يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فمالكم أنتم تتصدون للمحافظة عليه وحدكم ؟••

كيف تعرفون أن أحكامكم على النـاس هى الصادقة ، وكيف تثقون أن تفسيركم أنتم لآيات الله هـو التفسـير الحق •• الدين للديان يا عبد العاطى •

ـ هذا فراق ما بينى وبينك •• أنت كافر •

ـ مع السلامة يا عبد العاطى •• مع السـلامة يا أخى •• دعنى أعيش يا أخى •• مع السلامة •

ومشى عبد العاطى مغضبا دون أن يرد تحية أخيـه سابقا ، وأكمل سيد طريقه إلى بيت وصفى باشا •

وحين أذن له الباشا بمقابلته قال له :

ـ ستذهب غدا إلى سكرتير وزير المعـارف ، وستجد طلبك عنده مؤشرا عليه بالتعيين •

ـ أطال الله عمرك يا سعادة الباشا •

ـ فى هـذه المرة اسـتطعت أن أنقـذك ، فى المـرة القـادمة لن أحاول •

ـ أطال الله عمرك يا ••

ولم يكمـل ، فقد دق جرس التليفون ، وسـمع الباشا يقـول فى جزع :



ـ ماذا يا هنـــاء ؟

ثم سمعه يقول :

ـ متى ؟

ثم وضــع الباشـــا السماعة وهو يقــول « لا حــول ولا قوة إلا بالله •• » •

ولم يستطع سيد صمتا ، فقال للباشا دون وعى :

ـ خير يا سعادة الباشا ؟

فقال الباشا فى ذهول :

ـ هذه آخرة لعب العيــال •• لقــد قبض على أحمــد بتهمــة الشيوعية •• ماذا نفعل الآن •• الأمر فى يد النيــابة ، ربنا يلطف بأمــه •

وثبت سيد فى مكانه دهشا قانطا ألمــا ، لم يستطع إلا أن يقــول فى حسرة وذهول :

ـ أحمد بك •

(٢٨)

عرف أحمد السجن ، وما كان يتصور أن يعرفه •• قاده إليه شرطى فظ ينفذ الأوامر فى خشونة صماء ، فالجميع عنده سواء ، لا فرق ثمة بين متهم فى سياسة ، أو متهم فى جريمة ، وإنما كلهم فى عرفه مسجين ، ثم لا شىء بعد ذلك ، ألقى أحمد فى حجرة ضيقة ، أدار عينيه فيها فرأى دلوين ، وما احتاج لسؤال ، فقد كان يعرف أمرهما •• أحد الدلوين للشراب ، والآخر لافراغ الشراب ، وغير الشراب ، وهكذا يلتقى الانسان بالحيوان فى كثير من الأحيان ، أى فارق إذن بينه وبين البهيم فى حظيرته ، يفرغ طعامه حيث يأكله ، ويلقى بجسمه إلى الأرض فى مساواة بينه وبين الداوين ومساواة بينه وبين الحيوانات •

كان يفرح أنه مسقط العيون من الأمن ، وكان يفرح أنه مثار اهتمام من السلطات ، وكان يفرح باسمه الحركى ، وبالأسرار والتهاويل والطقوس ، وكان يفرح بلهفة أخته عليه ، وكان يفرح بأنه متحرر الفكر ، لا يدين بالله ، كما يدين عامة الناس والغوغاء الذين يطالب لهم بالانصاف من الأغنياء ، وكان يفرح أنه قطعة خارجة عن نظام القطيع الذى يسعى الحياة فى طريق تقليدى ، يسير على آثار السابقين ، وكان يفرح بأنه مهدد بالخطر ، وبأن أصدقاءه يخشون عليه هذا الخطر •

أما وقد وقع ما كان مهددا به ، فذاك ما لم يتوقعه ، فجميل أن

يكون ذا أهمية ، وأن يشعر بأنه ذو خطر يسعى رجال الأمن خلفه ، ولكن ليس جميلا أبدا أن يوقع به رجال الأمن فى السجن ، فالواقـــع أن أحمد ، برغم أنه كان فرحا بأنه مهدد ، إلا أنه لم يكن يتـــوقع أبدا أن يدخل السجن ؛ فما كان يتصور أنه هو •• ربيب القصر ، وحاكمه ؛ والسيد الأول فيـــه والأخير ، يدخـــل السجن ، وما كان يتصور أن يلقى إلى السجن ، وعمه وصفى باشا يتمتع بهذا النفوذ • كان فى عميق نفسه يستبعد فكرة دخوله السجن ، ولكنه كان يترك هـــذه الفكرة طافيـــة على ســـطح شعوره ليستاف منها هذا الأريج الحلو من الاحساس بالأهمية •

وأجال أحمد نظره ثانية فى حجرة السـجن ، وعاد إلى نفســـه يسائلها ، إذن فهذا هو السجن ، فمن هنـــا إذن عرف الناس الحرية ، وذكرته كلمة الحرية بالخطبة التى ألقاها فؤاد ، جميلة هى الحرية •• إن شيئا فى العالم لا يساوى الاحساس بالحرية •• حرية الحركة ، وحرية الشعور ، وحرية التفكير ، وحرية القول •• من هنا يستطيع أن يدرك قيمـــة الحرية •• لم يســـتطع أن يدرك قيمتها إلا حـــين فقدها •• كم هو غبى وإن ادعى تحررا فى التفـــكير •• كيف قبـــل أن يؤيد نظاما لا يعترف بالحرية ، ويرى فيها معنى رخوا لا يســـير بالحياة إلى أهدافها السامية •• وما أهداف الحياة السامية ؟ أليست هى معانى تقف الحرية منها موقف الزعامة •

إن الله أعطى عبيده حرية التفكير والعمل ثم حاســـبهم ، الحرية أساس النظام الذى أقامه الله •• سبحانك يا رب •• يا رب •• فك قيدى لأقدس الحرية •• إنى ألجأ إليك يا رب ؟ !!

يا ماذا ؟ ماذا أقول •• أأقـــول يا رب ؟ يا للضـــلال الذى كنت

فيه !• لجأت إليه عند أول نازلة ، وكفرت به فى النعمة •• أى هباء كنت أعيش فيه ؟• أأقول يا رب بهذه البساطة ، وكأننى لم أكفر به ، ولم أخرج عليه ، ولم أعتبر التابعيه بهائم مخدرين ، أأقول يا رب ، وأجد لها فى نفسى هذا الرنين ، بل إنى أحس الآن أنى قريب إليه ، وأحس أملا يشيع فى نفسى من بعد ضيق ، وأحس صدرى وقد أشرقت فيه أضواء جديدة باهرة حلوة • أكل هذه المعانى تتواكب فى نفسى المظلمة من كلمة واحدة تنطلق من صميم الفؤاد •• يارب •• نعم إننا نحسه ولا نحلله ، إننا نؤمن به فنصل إليه ، ولكننا لا نفحصه ولا نضعه على أسس من المنطق والعقل ، وإلا فما هذا الشعور الحلو الذى ينساب فى نفسى ، ما قول المنطق والعلم والفلسفة فى هذا الشعور ؟ ما رأى العلوم جميعا فى هذه الراحة التى أتملاها منذ قلت يا رب ، وما رأى المذهب الذى أدين به فى هذا الهدوء الذى يتمشى فى أوصالى من بعد اضطراب وضيق ويأس ، لا يفصل بين الشعورين إلا كلمة واحدة قلتها •• يا رب •• فاذا أنا سعيد ••

أى ضلال كنت أسعى فيه ؟• إن مذهبى فيما أذكر تعرض لهذا الشعور الذى أحس ، نعم إنى أذكر نظريته فى هذا الصدد ، لقد أحسوا بالخطر الذى يطالعهم من قول الناس « يا رب » فأنشأوا نظرية ليحاربوا بها الخطر •• يقولون أننا لو هيأنا للانسان حياة مستقرة ، ينال فيها ما يطمح إليه ، ومشت به الحياة فى الطريق الهادىء الأمين ، لو فعلنا ذلك ما احتاج الانسان أن يقول يا رب • يا للضلال الذى كنت فيه ! وهل حياة الانسان كلها مادية لا يحتاج فيها إلا لمطالب الجسد التى يريد مذهبهم •• أليس للانسان رغبات أخرى •• ألم يدركوا تلك الحياة التى تمور فى نفس الانسان ،

متقلبة بين السخط والرضى ، والاقبال والنفور ، والضيق والانشراح ، بلا داع إلى السخط أو الرضى أو الاقبال أو النفور أو الضيق أو الانشراح • أين نولى وجوهنا عند الضيق ، وأين نولى وجوهنا عند الرجاء ، وأين نولى وجوهنا عند الخوف ، وأين نولى وجوهنا عند المرض ، ولماذا هذا التساؤل جميعا ؟•• أين نولى وجوهنا فى هذا السجن الذى ألقيت إليه •• أنا الآن لا أحتاج إلى طعام ولا شراب ، بل إننى هنا فى السجن مكفول الرغبات ، مهما تكن هذه الرغبات محققة بأبخس ما تقبله النفس من خبز أسود وأُدْم حقير ، الا أننى على أية حال مكفول الرغبات •• فهل أنا مستقر الحياة ، هادىء على الطريق ، لا أحتاج إلى أن أقول « يا رب » ، فما لها انطلقت من صميم الفؤاد ، مالى وجدت نفسى أقول « يا رب » دون أن أفكر فى قولها •• إننى الانسان • أنا عالم فى نفسى • عميق الغور ، جموح العواطف ، موّار الأمواج ، وويل للانسان إن ضحل غوره ، أو هدأ عاصفه ، أو استكانت الأمواج فيه • إن جمال الانسانية فى هذه الاشراقات التى تعقب الضيق ، وفى هذا التقلبات التى لا يستقر بها قرار ، فمن لى فى هذه الأنواء ، وما أقول إن لم أقل يا رب •

لقد فكر المذهب فى كل شىء ونسى الانسان الكامن فى نفس الانسان •• الطبيعة الانسانية هى أشد أعداء المذهب عنفا •

ولكن مالى أجهد فى إقناع نفسى بأن أترك اقتناعى بمذهبى ، هل مر على حين من الأحيان كنت فيه مقتنعا بمبدئى كل الاقتناع ؟ هل أذكر لنفسى فترة كان المبدأ خلالها مستقرا فى عميق إيمانى ؟ •• لا أذكر •• أنا لا أذكر أننى كنت عميق الايمان بشىء على الاطلاق •

لم اكن خالص الايمان بمبدئى ، كما لم أكن خالص الايمان بشىء .
فان هذا هو سر شقائى .. حاولت أن أهرب من القلق والفشل إلى المبدأ ، فخيل لى أننى مؤمن به ، ولكننى كنت أعلم دائما إننى احب فيه الاسم الحركى ، وأحب فيه الاستخفاء عن الأمن ، وأحب فيه إثارة هذه السحابة من الابهام والغموض والاسرار حولى ، وأحب فيه لهفة أختى على ، كلما رأتنى نازلا إلى موعد اجتماع ، وأحب فيه الاجتماع نفسه ومناقشة أمور الكون جميعا كنا نتحدث عن العالم أجمع ، وكأننا نحن حكامه ، وكنا نتخذ العالم أجمع مجالا لتطبيق النظريات التى تعلمناها ، والمبادىء التى نعتنقها .. كنت أرى نفسى فى هذا الاجتماع ندا لله ذاته ، فحق لى إذن أن أبحث فى وجوده وفى تعاليمه .. لم أكن أحسه فكفرت به ، واعتقدت أننى آمنت بمبدئى ، ولو أننى أزلت عن نفسى ما تتخذه من أقنعة ، ولو أننى التقيت بنفسى لقاء خالصا من كل زيف نتستر خلفه ، لعرفت أننى كنت أومن بمظاهر مذهبى ، دون أن أومن بمذهبى ذاته .

إنى أعرف ذلك فى نفسى ، ولن أنسى تلك الانتفاضات التى كنت أواجهها من نفسى بين حين وآخر ، ولن أنسى أننى كنت أقسر مضطر بها ، وأسكن مائجها ، لقد كنت محتاجا لمذهبى ، لأقنع نفسى به أننى ذو شأن .. لم أستطع أن أكون ذا شأن فى شىء ، فاتخذت هذا المذهب ، وإنه والحق يقال ، يمد النفس بشعور ضخم من الأهمية ، إن هذه مشكلة لا بد لى أن أواجهها الآن ما دمت ألتقى مع نفسى فى هذه الصراحة التى لم نتعودها ، وما دمت أنتوى أن أترك المذهب .. هل سأتركه ؟ .. نعم ، لقد آمنت بالله

واحسسته ، والمذهب لا يقبل مؤمنا بالله •• إذن ففيم يكون تفوقى ؟
لو أن المذهب يقبل منضما له ومؤمنا بالله ؟ إذن ••؟ إذن ماذا ؟
إذن لظللت منتظما فى سلكه ، إن للمذهب ألفاظا حلوة الرنين ،
سريعة النفوذ إلى الاحساس •• كان يعجبنى فيه أنه لا يساوينا
بالقطيع •• ولكن أى قطيع يقصد •• أليس القطيع هو الشعب الذى
يريد المذهب له العدالة والانصاف من الأغنياء ، ويريد أن يسوى
بينه وبين جميع الأغنياء ، فلا يكون فى العالم غنى ، ولا يكون فى
العالم فقير •• لا شك أن هذا معنى من معانى القطيع •• وهناك
معنى آخر •• قطيع الذين سبقونا • ولكن أليس المذهب نفسه
يقدس قطيعا سبقه من الذين أسسوه ووضعوا دعائمه الأولى .
قطعان نحن فى كل منحى من مناحى الحياة • ولكن ماذا يضيرنا
أن نسير فى طريق قطعه من قبلنا ، بل كيف نعرف أخطاء السابقين ؛
إذا كنا لا نرود طريقهم ، بل كيف نتقدم إذا نحن لم ندر أين وقفوا ••
إن نقطة البداية فى سير من سبقونا ، هى نقطة البداية فى سيرنا ، وهكذا
يتقدم العالم • لا يستطيع كل جيل أن يكفر بما سبقه ، وإلا ظل
العالم واقفا فى مكان واحد لا يتقدم •• إن تقدم العالم خطوات من
الأجيال المتلاحقة ، واعتراف من اللاحق بفضل السابق ، وتصحيح
من اللاحقين لأخطاء السابقين •• وهناك قيم انسانية وضعتها
الأجيال ، ثم لم تغيرها الأجيال ، وهناك مشاعر انسانية بدأت مع
الانسان ، ولم يستطع الانسان أن يغيرها ، لأنها جزء منه ، هل
يحق لنا نحن اللاحقين أن نعدو على هذا القيم فنغيرها ، أو هل
يحق لنا أن نغير هذه المشاعر •• هل يجوز لنا أن نغير ما استقرت
عليه الأجيال من تقديس الحرية والعدالة والآداب العامة التى
تعارف الناس عليها ، والأمانة والشرف والوطنية •• هذه القيم

وأمثالها ، هل يجوز لنا أن نعدو عليها •• لا نستطيع ، فهل يجوز لنا أن نغير المشاعر ؟ •• السؤال فى ذاته غير جائز ، لأنه ليس فى طوقا لانسانية أن تغير المشاعر •• كيف نغير مشاعر الحب والبغض ، والضيق والسرور ، والفرح والألم ، والراحة والاضطراب ، أجيال مضت وأعقبتها أجيال ، والقطيع سائر يتقدم فى العلم وفى الفن . ولكنه يقف عند هذه المشاعر ، كل جهده إزاءها أن يحللها ويصفها ويرسمها ، ولكنه أبدا لم يستطع أن يغير منها شيئا • فالقطيع إذن كلمة نقولها فنبغضها ، ولكننا إذا مشينا قليلا وراء معناها ، وجدنا أن سير القطيع هو الذى بلغ بالمدنية إلى هذا المدى الذى بلغته اليوم •• على أن يكون فى القطيع عقول واعية تدرس وتفكر وتطمح إلى التقدم ، وتسعى إليه وتبلغه ، أو تترك من الآثار ما يجعل الانسانية تبلغه •• هو ليس قطيعا إذن •• إنه الانسان يسير فى طريق الحياة ، وله هدف محدد واضح ، هو نمو الانسانية وتقدمها وبلوغها إلى أسرار الكون ، وانتفاعها بهذه الأسرار فيما يفيد الانسانية جميعا •• الانسانية إذن تجمع السابقين واللاحقين ، ومن يخرج عن ركابها عضو أبتر فلا نفع فيه ، إن من يقف على حافة الطريق ، ويسخر من السائرين ولا يشجعهم ، عضو أشل ضعيف ، أشفق من السير ، وخاف الطريق ، فوقف يريد أن يعرقل السائرين ويعوق تقدمهم ، ولكن الانسانية أقوى منه ، ومن كيده ، فهو يسخر ثم لا يصنع شيئا •• لقد كنت كذلك •• إننى لم أسر مع أحد •• لم أسر مع مذهبى ولم أقتنع به ، ولم أسر مع غير مذهبى ، وسخرت منه ، لقد كنت إذن على هامش الطريق • الانسانية لم تستفد منى شيئا •• لعلى كنت مشفقا لأنى لم أستطع أن أكون ذا موهبة فى شىء •• ولكن هل لابد لى أن أكون حتى أسير

الطريق •• هل كل إنسان فى العالم ذو موهبة ، كيف تستقيم الحياة ، وكيف يكون صاحب الموهبة فذًّا إن كان يستوى فيها مع الناس أجمعين ؟ •• إننى الآن أعرف أننى لست صاحب موهبة ، ولكننى أيضا تبينت الطريق والهدف ، إن خير ما أستطيع أن أفعله أن أكون إنسانا •• إنسانا يسع العالم أجمع فى قلبه ؛ يشفق على الضعيف ويعينه ، ويفرح للناجح ويشجعه ، ويؤيد القوى إن كان على حق ويضبعه على الطريق إن أخطأ ، ويثور فى وجهه إن عدا وظلم وبغى ، فلن ترى الانسانية أبشع من قوىّ يظلم ولا يجد من يقول له ظلمت •• إننى الانسان ، أهم عنصر فى هذا الوجود الضخم •• المواهب جميعها تسعى لاسعادى أنا الانسان •• فهل أستطيع أن أكون إنسانا يستحق ما تقدمه له المواهب ؟ هل أستطيع أن أتذوق الفنون وأحسها ؟ وهل أستطيع أن أتابع التقدم العلمى وأعينه بجهدى الذى لا يتمتع بموهبة • وقبل كل هذا هل أستطيع أن أسع فى قلبى المخطىء ، ولا أهينه ، والمحسن ولا أحقد عليه ؟ وهل أستطيع أن أغالب نفسى فلا تسعى إلى الشر ، بل هل أستطيع أن أتيح لخير نفسى أن يتغلب على شرها •• ولكن هل أصادق الشرير ؟ •• لا •• فليس هذا من الانسانية فى شىء • فصداقته تشجيع له على المضى فى شره •• فهل أجازيه الشر بالشر ؟ •• إن اقتصر العقاب عليه فنعم • هل أستطيع أن أحب الجميع ؟ •• هل أستطيع أن أحب أبى ؟ •• نعم •• نعم ؟ ! •• إننى أدرى أنه هو الذى ألقانى إلى هذا الشك ، وإلى هذه الحيرة ، لم أستطع أن أحترمه أبدا •• ولكن ما ذنب أبى •• إن فى نفسه عوجا ، ولكن من يستطيع أن يحتمله إن لم أحتمله أنا ، ومن يعينه إن أنا لم أعنه• إننى أريد أن أكون إنسانا •• فهل أستطيع •• الطريق وعر ، ولكننى سأستطيع •

(٣٩)

كانت سهير لائذة بسريرها ، مرغمة على الاستلقاء فيه ارغاما ، ولو تركت وشأنها ما استقر بها قرار ، ولظلت حائرة بين السجن وأولى الأمر ، ولكن تكاثروا عليها وأرغموها على أن تظل بسريرها ، وكانت أقوى حجة فى يدهم أن وصفى قطع الأمل عندها أن يستطيع أحد من ذوى السلطان عملا ، فابنها متهم فى جريمة يعاقب عليها القانون ، والقضاء وحده هو المختص ، ولا سبيل لأحد عليه • ولكن ماذا يجدى استلقاؤها هذا ، وقبلها هو المريض ، والألم يعتصر قلبها ، وسيظل يعتصره مهما تلجأ إلى الراحة ، إن المرض فى نفسها ، فأين لها المهرب من نفسها ؟! • أحمد فى السجن •• ويلى مما صنعت الأيام !! ••

ودق جرس التليفون ، وكان المتكلم هو وصفى باشا ، وقد ألقى إليها أنه استطاع بعد جهد أن يجعل النائب العام يعجل بالتحقيق مع أحمد ، وقد تقرر أن يبدأ التحقيق معه فى الغد •

وما لبث سليمان أن دخل الحجرة فأنبأته ، فما زاد على أن أطرق صامتا ، وراحت سهير تنظر إليه وتطيل النظر ، لقد رأت فى وجهه معالم حياة •• لقد رأته يتألم ، وأحست ألمه •• كانت تحس ألمه فى نفسها ، كما تحسه فى وجهه ، لقد التقيا آخر الأمر على احساس واحد ، وإن يكن هذا الاحساس هو الألم ، إلا أنهما التقيا عليه آخر الأمر •• عجيبة هذه الأيام ، أكان لا بد لنا من هذه

الفواجع حتى نلتقى ؟! وهل كان لا بد لنا من اللقاء ؟.. عجيبة ؟..
إن التنافر الذى كان بيننا هو الطريق الذى أدى إلى لقائنا اليوم .
لقد نشأ ولدانا فوجدانا متنافرين ، لم نتحد يوما على تربيتهما ،
ولم نتآزر يوما من أجلهما ، كانت الصلات بين الأبوين مفككة
هشة فنشأت أخلاق طفلينا مفككة هشة . بذلت أنا الأم ما فى
وسعى ، ولم يكن للأب وسع ، فلم يبذل شيئا .. ولكن هل بذلت
ما فى وسعى حقا .. أترانى كنت أقوم بما يجب على ؟ .. أكان كل
واجبى أن أحقق رغبات طفلى مهما تكن هذه الرغبات .. أكان
يجدر بى أن أترك أباهما أمامهما يتضاءل ويضمحل حتى يصبح
شيئا كالهباء من العدم ، فاذا هما ينشآن بلا قدوة أمامهما ، ولا
إيمان بشىء ولا احترام لشىء . أكنت أستطيع أن أقيم من سنيمان
شيئا .. ما أظننى كنت مستطيعة ؟ ولكن هل حاولت ؟ لا .. لم
أفعل .. ولم أحاول حتى أن أقيم خلق طفلى ، لم أحاول لهما شيئا
إلا أن أنفذ ما يريدان ، ثم أنطوى على ألمى ضنينة به ، أخشى أن
يزول ، كنت ألتذ ألمى ، لأنه يحمل لى ذكريات من الشباب والهوى ،
وفى غمرة من اللذة والألم والذكريات والشباب والهوى لم أحفل
أمر ولدى فنشآ ضائعين فى بيداء لا هدف لهما فيها ، تائهين لا يحدد
أملهما مطمح أو غاية .

كنت ضعيفة أمام ألمى ، كما كنت ضعيفة أمام طفلى . كنت ضعيفة
أمام ألمى منذ اللحظة الأولى ، لقد هيأت لنفسى حينذاك أننى قوية ،
وأننى أنتقم لحبى المهجور .

فاذا بى أنتقم من نفسى ، وخيل لى أننى فى انتقامى لنفسى
قوية ، ولكن هأنذى على الأيام أتبين أننى ما انتقمت إلا عن ضعف ،

فالانتقام جميعه ضعف •• إنه لا يصـــدر إلا عن إنسان عجـــزت نفســـه أن ترد الشر الصاخب فيهـــا ، ولا يصدر إلا عن إنســـان هانت عليه نفسه ، فعقله ضـــئيل ، وعاطفة النقمة عنده طاغية ، فهو مغلوب على أمره من عاطفته ، ومن عاطفة شريرة فيه •• كنت ضعيفة حين تزوجت سليمان ، هدنى هجر وصـــفى لى ، فـــلم أتمالك أمر نفسى وقســـوت ، ثم •• هأنـــذى أرى أن قســـوتى لم تكن منى إلا ضعفا ••

وكنت ضعيفة أمام طفلى •• فمـــا زلت أجسم لنفسى أن ليس لى إلا همـــا ، فضعفت وكنت أعلل ضعفى دائما بأننى لا أمل لى إلا هما ، ولو كان هذا المعنى عميق الغور فى نفسى لاستطعت •• أو لحاولت على الأقل أن أجعل منهما شيئا آخر غير هـــذا الذى صارا إليه •• ولكن الواقع أننى عشت فى الألم الذى خلقته لنفسى منذ أول حياتى ، ثم أبيت أن أخرج عن هـــذا الألم ، فكان ما أقاسيه الآن من ابنـــة مطلقة ، وهى لا تزال فى أول بواكير الشباب ، وابن ســـجين وهـــو لا يزال فى أول بواكير الحياة •

* * *

بكرت الأشعة الأولى من الشمس ، فلم تجد ســـهير فى فراشها ، بل كانت قد استيقظت فى زوال الليل ، وارتدت ملابسها ، ومكثت تنتظر أن تعلن إليها هـــذه الأشعة أن اليوم الجديد قد جاء ، وأنها تستطيع أن تلتقى بابنها •• على أى حال ستراه ؟ •• إنها لا تدرى ولا يهمها أن تدرى ، كل ما تصبو إليه أن تراه •

واستيقظ سليمان مبكرا ، وعجل بارتداء ثيـــابه ، ونزل هو وزوجته إلى مقر النيابة التى سيحاكم فيها أحمد •

ودخلت سهير المحكمة •• الله للأيام ، لمـاذا يقسو عليها الزمان هـذه القسوة ، أتدخل هى المحكمة لترى ابنهـا مقبوضا عليه ؟! ••

وفى ساحة المحكمة رأت سهير المسـاجين ، والشرطة ، يروحون بهم ويغدون ،وهم كالشياه المستسلمة لا تملك من أمر نفسـها أمرا ، القيود فى أيديهم ، والملابس الزرقاء ملقاة عليهم ، واليأس يمـلأ عيونهم ، والمذلة تغشـاهم • أهذه هى نهـاية المطاف ؟ أيقدر لى أنا ان أرى ابنى ندا لهؤلاء ، بعد أن أفنيه عمرى من أجله ، أكل ما قد فعلته ، وكل ما قد امتنعت عن فعـله ، لا يثمر لى إلا هذه النهـاية الكالحة الشوهاء •• أمن أجل هـذا أهدرت شبابى ، ولذات حياتى ، وآمال المطالع الأولى من اشراقات عمرى ، أمن أجل هذه النهـاية لازمت سليمان ، وقطعت كل خيط يصلنى بأمل من سعادة ، وحبيت آلمى وأحييته كلما آذن بضعف ، وكلما أشرف به النسيان من الزمان على وهن • أأنا من صنعت هـذا المصير ، أترانى أنا من مهدت له ، أترانى أنا قـد شغلت بألمى عن ولدى ، فكان هذا المصير الذى ألتقى به فى أخريات العمر منى ، وفى أوائل العمر منـه • أو كنت أقدر ؟ أم هل كنت أفكر ؟ •• لا •• ما فكرت فيما قد يصـير إليه ولدى ، ولا حتى فكرت فيما قد أصير إليه أنا ، ولكن هل أخطأت إلى هـذا الحد ؟ هل كان خطئى كافيا وحده ليقودنى إلى هذا المكان ؟ •• هنا مع زوجات المجرمين وأمهـاتهم ، أى فارق بينى وبين هـذه المرأة هنـاك ؟ •• تلك التى تحيط بها أجواء من الجهل واليأس والألم • وأى فارق بينى وبين تلك التى هنا تحمل طفلها على كتفها ، وترنو إلى زوجها الشاب ، يقاد إلى حيث لا تدرى ولا يدرى من مصير •• لعل هذه الأم خير منى ، لعلهـا هى لم تخطىء ولم تكن لهـا يد فى الجريمة التى ارتكبها زوجها ، ولعلهـا ترعى وليدها خيرا مما رعيت

د وبيدى •• ولكن آكان خطئى يستحق هذا جميعه ؟ •• أم أن سليمان كان مخطئا معى ؟ لا •• لا أرى سليمان أخطأ فى شىء ، لقد جرى على طبيعته لم يغيرها ، وكان على أنا أن أعوض ولدىّ عن أبيهما •• لا بالمال وحده ، ولكن بالرعاية والتقويم أيضا ، ولكن ماذا يفيد الندم الآن ؟ بل ماذا يفيد أى شىء الآن ؟•• لا •• ما أظن شيئا يفيد !! •

وبينما سهير فى غمرة من هذه الأفكار والذكريات ، أقبل وصفى إليها مصطحبا صديقه المحامى الكبير مصطفى باشا حسنى ، وما إن رأته حتى عصفت بنفسها نوازع شتى من الألم والاطمئنان والحسرة والجزع •

قال وصفى :

ــ لماذا تجلسين هنا ؟

فقالت سهير :

ــ إن سليمان يقول إنه سيمر من هنا •

فصمت وصفى هنيهة ، ثم التفت إلى صديقه يقول :

ــ تذهب أنت إلى غرفة المحامين يا باشا •

وقال مصطفى باشا :

ــ وأتركك •• لا يا أخى •• لا طبعا •• سأنتظر هنا معكم حتى يبدأ التحقيق •

فقال وصفى :

ــ ألا تبلغ وكيل النيابة أنك هنا ؟

فقال مصطفى باشا :

ــ حين يجىء المتهم سأدخل لوكيل النيابة ، لا تنشغل يا باشا ، كل شىء سيكون على ما يرام •

ومست كلمة المتهـم قلب سهير ، ولـكنها ما لبثت أن سخرت من نفسها وهى تسائلها ، وبماذا يمكن أن يسمى •• إنه متهم •• وليس له هنا اسم آخر ••

وبينما كانت سهير شاخصة إلى الباب ، لا تميل ببصرها عنـه ، مال وصفى على سليمان :

ـ سليمان •• سهير متعبة ، التعب يبدو على عينيها بشكل واضح ، أرجوك أن تأخذها إلى البيت بمجرد أن ترى أحمد •

ـ نعم يا باشا سأفعل •

وشمل الصمت أربعتهم بعض الحين ، ثم ما لبثت سـهير أن رأت السيد عبد البديع يدخل من باب المحكمة مضطربا بادى الألم ، ورآهم السيد ، فأقبل إليهـم مسرعا ، وحياهم جميعـا فى أدب حـزين ، ثم أراد أن ينتحى ناحية ، ولكنه رأى جعفر وحسام يدخلان الساحة ، فوقف حيث هو ينتظرهما ، وقصـد الشابان إلى حيث كان الجميع يجلسون ، وقالت سهير :

ـ كيف أنت يا حسام ، متى جئت من البلد ؟

ـ أمس مساء •• طلبتنى أمى •

ثم التفتت سهير إلى جعفر :

ـ كيف حالك يا جعفر ؟

ـ بخير يا عمتى •• الحمد لله •

ثم انتحى جعفر وحسام بالسيد ناحيـة مستترة ، وراحوا يدخنون فى صمت ، وأنظارهم إلى الباب تنتظر مجىء أحمد •

ولم يطل بهم الانتظار ، فسرعان ما جاء أحمد مرتديا ملابسه العادية ، لم يزد عليها إلا القيد الذى يكبل يديه • ونظرت سهير إليه ، وزأرت فى صدرها صرخة مجنونة ، لم يمنعها من الانطلاق إلا أنها فى صدر سهير تمور •• ولم تجد الصرخة سبيلا إلى الهواء إلا فى كلمة واحدة ، قالتها الأم فى صوت خفيض كسير ، ملتهب النغمات ، واله الرنين :

ـ أحمد •

ونظر سليمان إلى ابنه يقترب منه والقيد فى يديه ، ابنه المتكبر الذى لم يره فى القصر إلا عالى الرأس ، حاسم الأوامر ، شديد الترفع ، قليل الحنين لأبيه ، قليل الاحتفاء به •• أحمد الذى لم يستطع رغم علمه بما يدور فى نفسه نحوه إلا أن يحبه أشد الحب ، حبا يستخفى ، لأنه لا يجد فرصة للظهور •• أحمد المتكبر الحبيب ، يقاد وفى يديه القيد •• وكالنبع تسده الصخور عن الجريان ، فيحطمها ويسيل ، سالت الدموع من عينى سليمان •

واقترب أحمد ، وراع القوم المنتظريه اشراقه فى وجهه ، لا تتدفق إلا عن نفس مطمئنة هادئة ، ونظرت الأم إلى ابنها ، وحاولت أن تبتسم ، وجاهدت لتفرج فمها عن ابتسامة تصحب ابنها إلى التحقيق، ويسر لها الأمر ابتسامة عريضة طالعتها من ولدها ، فلاقتها بابتسامتها هى المخضلة بالدموع ، ثم لم تزد •

والتفت أحمد الى أبيه فى اشفاق وحب واهتمام :

ـ لا ترع يا أبى •• لن يكون إلا ما يسرك •• أقسم لك يا أبى •• أقسم بحياتك أنه لن يكون إلا الخير كل الخير •

وخفق فؤاد سليمان فى وجيب متدافع •• بحياتى أنا •• أبحياتى أقسمت يا ولدى •• أحياتى عندك قسم •• ألى حياة عندك يا ولدى •• حذار يا ولدى أن يختطفك منى السجن •• فى رعاية الله يا ولدى •• دعاء تردد فى قلب الأب •• فى كل خلجة من خلجات قلبه ، ولكن لسانه ظل مذهولا بالمفاجأة ، معقودا بالدموع ، لا يطيق أن يصل بهذا الدعاء إلى أذن ابنه ، ولكنه كان واثقا أن الدعاء قد بلغ آذان السماء •

ونظر أحمد إلى عمه وصفى باشا ، ومد له يده ، فوجد يده الأخرى تصاحبها ، فأطبق بيديه كلتيهما على يد عمه ، وقال ودمعة متألقة تموج فى عينه تظل بها لا تسيل :

— يا عمى ، أنا مقدر مجيئك ، ومقدر كل ما تبذله من جهد لأجلى • أشكرك لا تكفى ، ولكنى لا أجد غيرها •• أشكرك •

وقال وصفى باشا فى ثبات :

— أى شكر يا أحمد ؟ •• أنت ابنى •• أريدك أن تثبت ، بل لا أريد منك شيئا ، فهذا الذى أراه فى وجهك فوق ما كنت أنتظر •

وأقبل الشبان الثلاثة على أحمد يحادثونه ، وحاولوا أن يبتعدوا بحديثهم عن العواطف ، وعن السياسة ، وعن التحقيق ، فلم يجدوا إلا كلاما أجوف وقع فى نفس أحمد موقعا حلوا • لقد كان يدرى ما يدور فى نفوسهم ، وكان يقدره •

قص حسام عليه ما صنعه فى البلد ، وما ضاق به فيها ، وما سره ، وقص عليه السيد أمر عروسه وفرحها بأنها ستأتى الى مصر ، ووقف جعفر يعلق على الحديث جميعه ، محاولا المرح ، ما أتاحت

له نفسه هذا المرح ، حتى جاء الحاجب آخر الأمر يستدعى أحمــد للتحقيق الذى سبقه الى غرفته محاميه مصطفا باشا • وقال الشبان لأحمد : انهــم منتظرون ، وودعتــه أمه وأبوه بدعــوة تتصــاعد الى السماء من عيونهم ، ومن دموعهم ، وقال له وصفى باشا :

ــ كن كما أنت يا أحمــد ••

ودخل احمد غرفة التحقيق •

وحاولت سهير أن تعــود الى مجلسها ، ولــكن وصفى وسليمان والشبان اقنعوها ان التحقيق سيطول ، وانها لا تستطيع الانتظار ، وكانت الأم فى حال لا تحتمل معها كثرة اللجاج أو العناد فخضعت ، وخرجت يصحبها سليمان ووصفى •

مكث الشبان الثلاثة ينتظرون نتيجة التحقيق • ومر بهــم ضابط بوليس دخل غــرفة التحقيق ، ومكث بهــا بعض الحين ثــم خــرج واتخذ لنفسه كرسيا بجانب باب الغرفة •

وبعــد ساعات طويلة انتهى التحقيق ، وخرج أحمد وانضم اليهم والاشراقة لا تزال ماثلة فى وجهه ، تشيع الاطمئنان حــوله ، وتبعث به دافئــا الى قلوب اخوانه ، وسألوه عما دار بالتحقيق ، فأنبأهم بأنه لا دليل لدى النيابة ضــده •

وقال السيد عبد البديع :

ــ أنا واثــق ان التحقيــق سيحفظ •• لقــد حفظ التحقيق مع فوزى عبد المجيد ولكن ••

ولــكنه لم يــكمل الجملة ، وكأنمــا أحس أنه ما كان له أن يذكر اسم فوزى •• أشعره بذلك هــذا الوجوم الذى لصق بوجه حسام ،

ولـــكن أحمد كان مصغيا للحديث باهتمام ، فهو يقول لســـيد محاولا أن يخفف عنه الحرج الذى وضحت آثاره عليـــه :

ــ اذن فالقضية جميعها لا دليـــل فيهـــا •• أنا واثق من ذلك •• لقـــد أرحتنى يا سيد •• لأنك بشرتنى بأننى سأخرج •

وقال السيد فى اطراق :

ــ ان شـــاء اللـــه •

وقال أحمـــد :

ــ يا أخى ، ليست هـــذه لهجة المتفائل •• ألم تقـــل ان فـــوزى قـــد أفرج عنـــه ؟ !

وقال السيد فى ألم ووجوم :

ــ لا •• لـــم أقل انه أفرج عنـــه ، ولـــكننى قلت ان التحقيق حفظ لعـــدم كفاية الأدلة •

وقال أحمـــد :

ــ التحقيق حفظ يعنى أن فوزى أفرج عنـــه •

وقال جعفر فى ثبات •

ــ لا •• النيابة أفرجت عنه ولكن البوليس اعتقله •

وبهت أحمد هنيهة ، ووجم حسام ، ولـــكن جعفر سارع قائلا :

ــ أظن أنهـــم لن يعتقلوا أحمد ، فاذا فعلوا ، فأعتقـــد أن أبى سيجعلهم يطلقون سراحه •

وقال السيد :

ـ طبعـــا •

وقال جعفر :

ـ لقـــد كنت أعلم أن فوزى معتقل ، فقد جاءنى صديق لى وله ، ورجانى أن أكلم أبى ليشفع له فى الافراج عنـــه •

وامتقع وجه حسام ، وسارع السيد قائلا :

ـ بعـــد ما فعله يا جعفر بك !!

فقال جعفر :

ـ واللـــه أنا أيضـــا لم أكلم أبى ، ورغم أن صديقه أخبرنى أن أبا فوزى قد أصيب بالشلل ، ولم يعد للبيت رجل غير فوزى •

وظل حسام على وجومه ، وارتبك ســيد فلم يقــل شيئا ، وقال أحمد فى هــدوء وثقــة :

ـ ولمـــاذا لم تكلم عمى ؟

وعلت وجـــوه الشبان الثلاثة دهشة ، كان جعفـــر أسرعهـــم فى التخلص منها ، وقال :

ـ الحــق ، خشيت أن أغضب اثنـــين •• خشيت أن أغضبـــك ، وخشيت أن أغضب أبى ذاته •

ومست قلب حسام غصة لأن جعفر لم يخش أو لم يقــل انه خشى أن يغضبه هو أيضا ، فقد كان يحب أن يرتبط اسمه بأسرة خالته • وقبل أن يجيب أحمد ، خرج مصطفى باشا من غرفة التحقيق ، وعلى

وجهه فرحة متحفظة ، وشخص أربعتهم اليه ، وهو يقترب منهم ، حتى بلغهم وقال :

ــمبروك يا أحمد •• لقــد حفظ التحقيق لعــدم كفــاية الأدلة ولكــن ••

وقال أحمــد :

ولكن ماذا ؟

ــ أظن أن الأمن العام سيظل متحفظا عليك فترة أخرى •

وأطرق أحمد ، ووجم السيد وحسام ، وقال جعفر :

ــ المهم يا سعادة الباشا •• هل النيابة أمرت بالافراج ؟

فقال البــاشا :

ــ نعــم •

فقال جعفــر :

ــ ألف شكر •• لا تخف يا أحمــد •• كــل شيء ســيكون على ما يــرام •

وقال أحمد فى ثقــة :

ــ نعم ، أعرف •• كل شيء سيكون على ما يرام •

واقترب الضابط الذى كان جالسا الى جانب غــرفة التحقيــق ، وأمر الشرطى حارس أحمــد أن يتبعــه والسجين ، وفى صمت مشى الموكب حتى بلغ الباب الخارجى ، ووقف الضابط أمام ســيارة ذات

صندوق كبير مغطى بالقماش ، وقف الركب خلفـــه ، وتقدم الشرطى الى باب الصندوق الخلفى ، ووقف بجانبه ناظـــرا الى أحمد الذى صـــعدفى سكون درج السيارة ، وجلس فى هدوء واطمئنان ، وجلس الشرطى الى جانبـــه ، وصعد الضابط الى جانب السائق ، وأمره أن يسير ، وانطلقت السيارة ، وتبعتها عيـــون الشبان الثـــلاثة ، حتى غابت عن الأنظار ، فأفاقوا الى وقفتهم ، وسارعوا الى سيارة حسام يركبونها صامتين ٠

(٣٠)

دخل الشبان الثلاثة القصر ، فوجـدوا وصفى باشـا جالسا فى البهـو منكس الرأس ، ووجدوا الاضطراب يسـود القصر جميعا ، حتى لم يلحظ أحد دخولهم ، على رغم الأنباء المهمة التى يحملونها ، ولم يرهم وصفى الا حين اقتراب ابنه منه يسأله :

— أبى ، ماذا حـدث ؟

وانتبه وصفى الى ابنه ورفع اليه عينين ، رأى جعفر فيهما آثار اضطراب وحيرة ، ولو أنعم جعفر النظر ، ولو كان رأى أباه يبـكى قبل اليوم ، لأدرك أن ما بعينى أبيه آثار دموع ، ولـكنه لم يلحظ شيئا من هـذا ، وانما شغله أبوه بسؤاله :

— ماذا فعلتم ؟

وأنهى جعفر الى أبيـه ما يحمله من أنبـاء ، فقفـز وصفى عن كرسيه ، وهو يقـول لابنـه :

— سهير حالتهـا خطـيرة ، فاسألوا الأطباء عمـا يجب أن يقـال لهـا ، وما لا يجوز أن يقال ، وأنا ذاهب الآن الى وزير الداخلية •

وخـرج وصفى مسرعا ، وصعد جعفر وحسام الى الطابق الأعلى

فوجدا باب سهير مقفلا عليهـا ، أو لا يكاد يقفل ، فالخدم داخلون خارجون منـه ينفذون أوامر الأطباء فى وجوم وسرعة واضطراب ، فاختار الشابان مكانا لا يعوق الأرجل المتسارعة ، وجلسا فى البهو ، وبعـد حين خرجت هناء من حجرة أمها وهى تقول :

ــ ألم يأت الأكسوجين ؟

وسارع اليها حسام يسألها :

ــ هناء ، هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟

وفى غمـرة الخطر المرفرف فى القصر نسى الاثنـان ذكرياتهما ، والتقيا على هـذه الأحداث المحيطة بهما ، ولكن هناء لم تستطع رغم هـذا أن تمنع هذه الحمرة من الخجل أن تصعد الى وجهها ، دون أن يكون لهـا تأثير فى استئنافها الحديث مـع ابن خالتها وكأنها لم تصرع آماله •• لم تتلعثم رغم اللهفة التى رأتها فى حديثه اليها •• لهفـة محب لم تستطع أن تختفى فى جـلال الموقف الذى يجمعها ، محب يصفح عن حبيبته ، ويهفو اليها ، ويأمل أن تقبله أملا لا يشوبه ذكريات زواجها من غـيره •• فى لحظة عابرة رأت هنـاء فى عينى حسام صفحا وحبـا ، وفى لحظة عابرة رأى حسـام فى عينى هنـاء اعتـذارا واشفاقا •• واقبـالا •• لحظة أومضت فى الحوالك التى تحيط بهمـا ، ثـم عادا الى الدوامـة التى تصخب حوليهما ، قالت هنـاء :

ــ ماذا فعــل أحمد ؟

فأنبأها حسام متلاحق الأنفــاس ، وطلب اليها أن تسأل الأطباء ان كان يمكن أن يبلغا خالتــه •• وجمعهما الخطب ، وتبــادلا جملا متقطعة عما يجب أن يفعلاه •• دارت هــذه الجمل عن المرض وعن السجين ، وأحس حسام من هــذا الحديث القاتم اشراقا ينساب الى نفســـه ، وملأه فرحا أن مشاعر متحدة تجمعه وهنــاء فى أحــد ت واحدة ، كلاهما مهتم بهــا • وطلبت اليه هناء آخر الأمر أن يتعجل أنبــوبة الأكسوجين فسارع يثب السلم والفــرح يغمــر نفســه ، ويزجر هذا الفــرح عن نفسه أنه غــير خليق به أن يفرح ، وخالته أم هــواه تنتزع أنفاسها انزاعا ، وأحمد ملقى فى السجن ، وتنحسر موجة الفرح هونا لتفسح مكانا لبعض شفقة ، أو بعض اشفاق ، ثم ما تلبث موجة الفرح أن تطغى مرة أخرى هازئة بما يجب أن يحسه فى لحظته تلك ، ساخرة ممــا تريد الظروف أن تفــرض عليــه من احســـاس ، محطمة كــل ما يحاول أن يقف فى طريقهــا من عقــل أو منطق أو مشاعر غير الحب والفرح بهذا الحب •

* * *

كان مرض سهير أقوى حجة فى يــد وصفى حين قصد الى وزير الداخلية ، فما زال به حتى أصدر أمرا بالافراج عن أحمد ، وسارع وصفى الى السجن ، ليصحب أحمد الى البيت • وعلى باب السجن قال أحمد فى هــدوء ووثوق :

ــ عمى ، انى أشكرك ، ولكن لى رجاء عنــدك ؟

وقال وصفى باشا :

ــ اركب أولا يا أحمد ، وقل رجاءك فى السيارة •

ولم يحفل أحمد اضطراب عمه ، بل قال فى هدوء :

ــ فــوزى •

وقطب وصفى جبينه ، فمــا كان ينتظر أن يسمع هــذا الاســم الآن ، ومن أحمد ، وفى هــذا المكان ، وانتزعته الدهشة هنيهة من اضطرابه ليقول :

ــ ماله ؟ !

ــ معتقل ، وأبوه مشلول •

ونظــر وصفى فى عينى أحمد بانعام ، وقد ازدادت الدهشة على وجهه ، يخالطها اعجاب واكبار ، ولكنه عاد يسأل فى تشكك :

ــ أما يزال صديقك ؟

ــ أتظن أنه يمكن أن يكون صديقى ؟

وآفاق وصفى الى الاجابة ، وأصبحت نظــرته الى أحمد اعجابا خالصا ، وازداد تحديقا فيه ، وطالعته معارف سهير من وجه أحمد ، فانتفض جازعا وقال :

ـ طيب •• اركب •• اركب الآن يا أحمد •

ـ ولكن يا عمى أتعـــدنى ؟

ـ يا أخى أمك مريضة جـــدا •• أسرع •

واضطرب أحمـــد لهـــذا النبأ ، وأسرع يركب السيـــارة ، ولـــم ينتبه أنه ســـبق عمه فى الركوب ، وركب وصفى ، وأمر السائق ان يسرع الى القصر •• وفى الطريق راح أحمد يسأل عن تفاصيل مرض أمه ، ووصفى يجيبه ذاهلا ، حتى إذا لم يجد أحمد أسئلة أخرى ، غاص الى نفسه •• أتموت أمى ؟ •• أأكون أنا قاتلها ؟ •• أى حياة سألقاها من بعـــد ؟ •• حذار •• حذار أن أجر على نفسى الخسران فى دوامة هذه الأفكار • • ان الموت والحياة بيـــد الله • • الرحمة يا رب •• نجها يا رب •• أأطلب منه نجاتها لأنى أريدها ؟ •• أم لأنى لا أريد أن أكون أنا قاتلهـــا •• انى على الحالين أنانى •• فأنا هى انباعث فى هـــذا الدعاء على أية حال •• أهـــذه هى الانسانية التى أريد أن أبلغ فيها شأوا ؟ وماذا بيدى ؟ •• كيف أسيطر على هـــذه الأفكار التى تمور برأسى ؟ •• نعم انى أستطيع ، ونظر الى وصفى وقال :

ـ أنا لن أذكرك بفوزى ثانيـــة يا عمى •

ودهش وصفى هنيهـــة ، ثـــم بـــدا وكأنه قـــدر ما يعتمل بنفس الشاب ، فقال له فى ثقـــة :

ـ لن تحتاج الى ذلك •

وبلغت السيارة باب القصر ، وجرى أحمـــد ملهـــوفا الى حجرة

أمه ، وفتحها ودخل ، فوجد أمه تلقف أنفاسها من كمامة متصلة بأنبوبة موضوعة الى جانبها ، وما ان رأته حتى أزاحت الكمامة عن فمها وهتفت :

ــ أحمد •• ابنى •

وارتمى أحمد على صدرها يقبلها فى كل مكان ، وراحت الأم تجذب أنفاسها ، وتقبل ولدها لحظات ، ثم لم تستطع ، وأحس أحمد ضعفها ، فسارع يبتعد عن وجهها ويعيد الكمامة اليها ، وهو راكع لا يزال بجانب سريرها ، وأحس أحمد يدا رقيقة تربت ظهره ، وسمع صوت أبيه يقول :

ــ الحمد لله على السلامة يا أحمد •

ونظر أحمد فوجد أباه جالسا على طرف سرير أمه ، ينظر اليه فى حدب ، فوضع رأسه على ركبته ، وانطلق فى بكاء صامت ، تنسكب دموعه من فؤاد جازع حزين • ورأت سهير ما فعل ابنها ، واستروحت المنظر •• وهدأت أنفاسها قليلا ، وراحت فى سبات عميق •

(٣١)

أيام قليلة مرت .. أيام قليلة استطاعت فيها سهير أن تنعم بهذه الاشراقة التى أصبحت لا تفـارق وجه ابنهـا ، فتبعث فى نفسهـا راحة تعينها على آلامها ، واستطاعت فيها أن ترى اقبال ابنهـا على أبيه ، اقبالا فيـه اشفاق ، وفيه حب ، وفيـه تمهيد للعذر ، وتقدير للطبائع ، وكادت سهير ترى خوالج ابنهـا الجديدة مجسمة أمامها ؛ ينبض بها قلب كبير بعيد عن الأنانية . وسمعت سهير ابنها يدعو الله أن يشفيها .. سمعت الله يهتف به أحمد ، فخيل اليها أن قلبه هـو الذى خفـق بالهتفة خفقا شديدا ، كان أعلى دويا من حركة الشفاه واللسـان .

ورأت سهير حسام لا يكاد يفارق بينهم ، ورأت هنـاء تقبل عليه فى غير ما تـكلف وفى ود ، ورأت فى عينى بنتها معانى اطمأنت لهـا نفسها ؛ وهدأ لهـا هـذا اضطرب الذى يعصف بها عصفا جائحا ..

أيام قليلة .. رأت سهير فيها سليمان يقبل على أحمد اقبـال أب ، ويهتم بأمره فى جـدب ، ويلتقى واياه على الطريق الذى سار فيـه أحمد من حب .. حب بذل سليمان غاية جهـده ليضع معالمه ، ويظهر معارفه ، ولم يكن لسليمان جهـد كبير فى هـذا الشأن ، ولكنه على أية حال يحاول ، وسهير تحس بمحاولته .

أيام قليلة •• رأت فيهـا سهير البيت كما كانت تتمنى أن تراه •• أو كما كانت تريد أن تصنعه •• وانهـا لتفكر أنه كان خليقا بالبيت أن ينشأ ويظل على ما هـو عليـه الآن لو كان سليمان هـذا شخصا آخر • نعم وصفى الذى كان لا يكاد يغيب عن القصر لحظة فى هـذه الأيام الأخيرة •• وصفى هذا •• ولكن ماذا يفيد الآن •• وما البأس بنا الآن •• أنا لا أتمنى شيئا اليـوم الا أن أشفى •• فهل أشفى ؟

ولم يشأ القـدر أن يحقق هـذه الأمنية ، فماتت سـهير ، وكان موتها بعد حين قصير من خروج الطبيب المعـالج ، باسم الثغـر ، يهنىء الأسرة والقصر بقرب شفاء المريضة العزيزة •• لم يكن الطبيب خاطئا كل الخطأ ، لقد شفيت من آلامهـا جميعا •• من آلام نفسها ومن آلام جسـمها ، وانتقلت روحها إلى عليين لدى ملك لا يمنـع الظل لائذا ، الرحمة الكبرى وراء سـمائه ، تلف التقى فى سيبهـا والعاصى •

أقبـل المعزون ، ووقف سليمان وأحمـد ووصفى يستقبلونهم ، لا يكاد واحد منهم أن يقيم أوده من الحزن ، وكان وصـفى أشدهم ألمـا ، وأكثرهم اضطرابا ، لأنه الوحيد بينهم الذى لا يستطيع أن يتيح لألمه طريقا يخرج منه إلى الحيـاة •• كانت الدموع تمـور فى عينيه فيحبسها ، فالعرف والتقاليد سـياج حولها أن تسيل ، وترحم الدموع نفسه • إنها دموع سنوات كثيرة •• إنها ذكريات الشباب الأولى ، والساعات المشرقة فى حياته •• إنها دموع تحمل فى رقراقها

صور المـاضى كلها ، والمـاضى قطعة من نفسه ، بل إنه عند وصفى فى موقفه هذا النفس كلها •• ويلجأ وصفى إلى القصر يبحث فيه عن مكان يستر دموعه المـائجة فلا يجد ، ويخرج من القصر إلى الحديقة ، وينفض المكان بعينيه ، فيرى جميـع من فى الحديقة مشـغولا بأمر المأتم ، وكما كان يفعل فى الأيام الخوالى ، يسير الهوينا فى المماشى حتى يبلغ السلم •• السلم القديم فينفض المكان مرة أخـرى دون أن يفكر فيما يفعل ، ثم ينزل السلم وثبا ، كأنه ذلك الشـاب الذى كانه منذ حين بعيد •• بعيد غاية البعد ، وما يكاد وصفى يصـل إلى المقاعد التى شـهدت قطعا كثيرة غالية من حيـاته ، ما يكاد حتى يرتمى إلى أحدها ، وينخرط فى بكاء عالى النشـيج ، يستره القرآن الذى يتصاعد من المأتم أن يبلغ إلى أذن ، ويحيط به هذا القـرآن نفسه فى حنان واشفاق وسمو •

كان فوزى بين المعزين ، وقد انتهز فرصة انفرد فيها أحمد ، وجاء ليجلس إلى جانبه :

ــ البركة فيك يا أحمد •

ونظر إليه أحمد ، ثم لم يجب ، فقال فوزى :

ــ خرجت بالأمس من المعتقل ، وقد جئت أعزيك وأشكرك ، فقد عرفت أنك رجوت وصفى باشا من أجلى ، ولولاه لكنت معتقلا حتى الآن •• لقد كنت نبيلا يا أحمد ، وكنت رجلا •

وقال أحمد فى هدوء وفى صوت خفيض :

ـ أقبل عزاءك مع الشكر ، أما شكرك فلا أقبله بحال من الأحوال. فقد سعيت لاخراجك اشفاقا على أبيك المريض ، وأمك التى أصبحت بلا عائل إلا أنت ، وإن رأيى فيك الذى قلته لك يوم طلقت هناء يزداد عمقا فى نفسى •• وإن وصفك لى بالنبل أمر آخذه أنا عنى محمل الهجاء لا الحمد ، فمديح مثلك مسبة للممدوح •• وما زلت أرجو ألا أراك أبدا بعد اليوم •• أشكرك •

وقام أحمد عن فوزى فى نفس الهدوء الذى كان يلقى به هذا الحديث •• ولم ينظر أحمد وراءه ليرى فوزى وهو ينصرف ، ولكنه أحس على رغم قسوته أنه يسير فى الطريق التى يريدها لنفسه •

انتهت الليلة ، وبحث أحمد عن أبيه فى السرادق فلم يجده ، فصعد إلى الدور الأعلى من القصر ، وقصد إلى حجرته ، ولكنه لم يجده ، فعجب بعض الشىء ، وقصد إلى غرفة نومه هو ، وراح يخلع ملابسه ، وما إن استبدلها بملابس النوم ، حتى جلس قليلا مطرقا ، ثم قام فى هدوء خارجا من الغرفة ، قاصدا إلى غرفة أمه ، يسير إليها وكأنه يتوقع أن يجدها •• وفتح أحمد باب الغرفة فطالعه ظلام زاده قتاما أن أغلق الباب من خلفه ، وقصد أحمد إلى حيث كان رأس سهير ، وركع إلى جانب السرير ، وغمر وجهه فى الوسادة ، ولكن صوت نشيج ما لبث أن علا إلى أذنه يأتى إليه من قريب ، ورفع أحمد رأسه وأدار عينه إلى حيث النشيج ، ثم مد يده فلمست كتفا عرفها ، وزحف أحمد إلى جانب أبيه ، واحتضنه بذراعه ، وربت كتفه ، والتفت إليه أبوه ، وكانت عينا أحمد قد تعودتا الظلمة ، فاستطاع أن يرى على ضوء شعاع ينسكب

من زجاج الباب وجه أبيه مغطى بالدموع ، واضطرب أحمد لدموع أبيه العصية ، وازداد اضطرابا حين وجد أباه يرتمى بين أحضانه ، وكأنما هو الابن فقد أمه •• اضطرب أحمد هنيهات ، ثم تمالك نفسه ، وسكن جأشه ، واحتوى أباه بذراعيه فى حنان •• والتقت الدموع •• !

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٥٣٤/١٩٧٧
الترقيم الدولى ٠٦٠ ــ ٢٨٦ ــ ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر
الفجالة ــ القــاهرة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



مطبعــة نهضــة مصر
الفجالة ــ القــاهرة